أسماء الله الحسنى

الهادية إلى الله والمعرّفة به

أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾

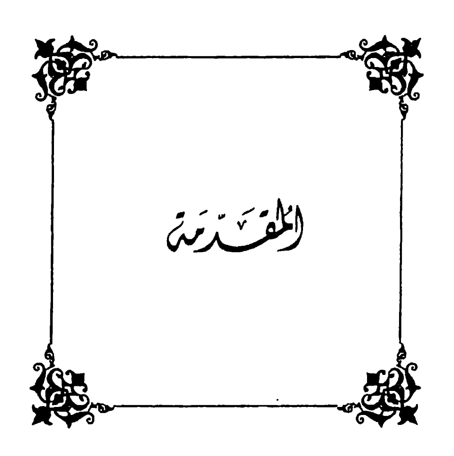
أَسْمَاءُ اللهِ الحُسْنَى

الطَّبعَة الثانيَة
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م



العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : 927511 عمّان 11190 الأردن
هاتف : 5693940 - فاكس : 5693941

e-mail : alnafaes@hotmail.com
web : www.al-nafaes.com



الحمد لله مبدع الأرض والسموات، منشئ الأحياء والأموات، ومدبر الكائنات، له الأفلاك الدائرات، والجبال الراسيات، والبحار الواسعات، والسفن الجاريات، أوامره في مخلوقاته نافذة، ومشيئته فيهم ماضية، وهم تحت قدرته وقهره وجبروته وسلطانه، لا يستطيعون فراراً منه إلا إليه، ولا يجدون مهرباً من غضبه إلا إلى رحمته، وهم إليه راجعون، وعلى أعمالهم محاسبون مجزيون.

والصلاة والسلام على من أرسله ربّه إلى خلقه مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وقد دلَّ الناس على ربهم وإلههم ومعبودهم، وعرفهم به، فكان ذلك صراطاً مستقيماً، من التزم به اهتدى، ومن فارقه ضل وغوى.

والصلاة والسلام على آل رسول الله ﷺ وصحبه، الذين فقهوا عن الله دينه وشرعه، وعرفوا ربهم حق معرفته، وعبدوه حق عبادته، وعلى من سار مسارهم، واتبع هديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله تبارك وتعالى أنار بنور الوحي قلوب المؤمنين، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط الحميد، وكان أعظم أنوار الوحي النصوص القرآنية والنبوية التي تتحدث عن الله رب العالمين، خالق الناس أجمعين، ومبدع السموات والأرضين، ولو ترك العباد من غير الأنوار الإلهية الربانية لعاشوا

في ظلمات بعضها فوق بعض، فالحمد لله على عظيم نعمائه، وأثني عليه سبحانه بما هو أهله، لا أحصي ثناء عليه، كما أثنى هو على نفسه، فهو فوق ما وصف الواصفون، وأعظم مما أثنى عليه المثنون.

وأعظم نعمه علينا أنه هدانا إليه، وعرفنا به عليه، فَعَرَفْنَاه بنور وحيه، فله الحمد والمنة والثناء الحسن، والمسلم يعرف مدى هذه النعمة إذا نظر إلى أصحاب العقول في القديم والحديث الذين اعتمدوا عقولهم في التعرف عليه من خلال نظريات وضعوها، ومقاييس اخترعوها، فصعَّبوا الطريق إلى الله، وجعلوا بقواعدهم وضوابطهم ومقاييسهم العلم بالله أصعب العلوم، فلا يكاد السالك لطريقهم يسير على أمر سواء، وضلوا في منحنيات الطريق، بل إن بعض هؤلاء الذين سُمّوا بالفلاسفة زعموا أن قواعدهم وعلومهم هدتهم إلى أن هذا الوجود وجد من غير موجد، فكانت هدايتهم ضلالاً، فقالوا ما قالوه لأن عقولهم أظلمت، وطريقهم انحرفت، فاقتنصهم الشيطان، وسلك بهم الطريق إلى النار وغضب الجبار.

وبعضهم اتخذوا طريق النظر في الكون سبيلاً إلى معرفة الخالق، ولكنهم حجبوا هذه المعرفة بمقاييس ظنوا أن النظر في الكون لا تتم الهداية به إلا إذا خاضوا فيها، فغرقوا في بحار لجية، وغاية ما حصلوا عليه هو الإقرار بأن لهذا الكون خالقاً، ولكنهم لم يعرفوه حق معرفته، فضلاً عن أن يعبدوه حق عبادته.

لقد تشكك كثير من الباحثين من الفلاسفة وغيرهم في وجود الله، والذين أثبتوا له وجوداً جعلوا له أنداداً وشركاء، يعبدونهم من دون الله، فمنهم من عبد الشمس والقمر، والشجر والحجر، ومنهم من عبد البشر والبقر، ومنهم الذين شبهوا الله بخلقه، فصوَّروه في صورة إنسان أو حيوان أو جماد، وبعض الذين توصلوا إلى علم قد يكون متقدماً شيئاً ما نفى عن الله علمه بالجزئيات، ونفى ما جاء به الشرع، فزعموا أن الله ليس له ذات، ونفوا سمعه وبصره وقدرته واستواءَه

على العرش، وكلامه، ورؤيته في الآخرة.

إن التعرف على الله عن طريق العقل المجرد وحده، بعيداً عن وحي الله المنزل طريق دحض مزلة، وما يتوصل إليه الإنسان من حق قد لا يصفو لصاحبه، وقسم عظيم من الصفات المعرِّفة بالله لا تستطيع العقول إدراكها بعيداً عن الوحي المنزل.وعَلِمَ اللهُ سبحانه مدى القصورِ والجهل الذي يتصف به بنو آدم، فأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب ليدلهم عليه، ويعرفهم به، ويرشدهم إليه، فحدثهم في كتبه عن نفسه. وكل من يعقل يعلم علماً لا يشوبه جهل، بيقين لا يشوبه شك أن علم الله كامل شامل لا يخفى عليه شيء، وكل منصف عاقل يجب أن يُقِرَّ أنه لا أعلم بالله من الله، ومن زعم أن أساطين الفلاسفة، وعلماء اللاهوت، وعلماء الكلام أعلم بالله من الله فقد قال على الله قولاً عظيماً، وافترى على ربّه إفكاً مبيناً، ومن فَقِهَ عن الله قوله فيما حدث به، علم أن كل ما أوحاه إلى رسله وأنبيائه يجيب عن السؤال الكبير الذي يسأل عن الله فيقول: من هو الله؟

لقد أرسل الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ليجيبوا عن هذا السؤال، وكانت سعة الجواب بسعة الدين الذي أنزله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

لقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للناس: إن جميع الوحي الذي أنزله الله إليه يتلخص في هذه الكلمة ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وكذلك كل ما أنزله الله إلى الرسل جميعاً يتلخص في هذه الكلمة أيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

إن الله تبارك وتعالى أجاب عن هذا السؤال بنفسه، ولم يترك هذه المهمة لأحد من خلقه، حتى الرسل فإن الله أوحى إليهم بها، لقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله في مخلوقاته وبديع صنعه فيها، وإظهار ما في هذا

الكون من إعجاز يدل على عظمة خالقه ومبدعه سبحانه.

كما عَرَّفنا الله بنفسه عبر مخاطبته بالدلائل التي تخضع لها العقول، وتنقاد إليها القلوب، لإظهارها الحق بجلاء من غير خفاء، بعيداً عن باطل البشر الذي وضعه فلاسفتهم ومتكلموهم.

وأجاب الله تبارك وتعالى عن هذا السؤال في كتابه بنصوص كثيرة ومتنوعة ومتعددة.

وإذا أنت وضعت السؤال العظيم السائل عن الله رب العالمين قبل الآيات التي يتحدث فيها الله عن نفسه، أو يتحدث فيها عن فعله في خلقه، فإنك تجد التطابق تامّاً كاملاً بين السؤال والجواب.

فلو قال قائل: مَنِ هو الله؟ صح أن يكون الجوابُ من غير تكلُّف: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

ولو سألت السؤال مرة أخرى، فقلتَ: من هو الله؟ صح أن يكون الجواب المطابق للسؤال أيضاً قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإذا سألت مرة ثالثة عن الله، صح أن يكون الجوابُ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وهذا النمط من النصوص يعرفنا الله فيها بنفسه بذكر ما يستحقه من صفات الجلال والكمال التي تليق به، وتنفي عنه كل عيب ونقص، وبها يكون تقديسه وتسبيحه وتمجيده، والثناء عليه.

والآيات التي موضوعها صفاتُ الله المُعَرِّفةُ بالله هي أعظم النصوص في كتاب الله، ومن المعلوم أن القرآن كلَّه كلامُ الله، ونسبته إليه واحدة، وإنما تتفاضل آياتُه بتفاضل موضوعاته، فالنصوص التي تتحدث عن الله أعظم النصوص، عَظُمتْ بموضوعها، وشرفت به، ومن هنا كانت آيةُ الكرسيِّ أعظمَ آياتِ القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] تعدل ثلث القرآن.

وهناك ضرب آخر يتحدث الله فيه عن نفسه يصلح جواباً عن السؤال العظيم القائل: من هو الله؟ والجواب حديث من الله عن مخلوقاتِه، وفعلِهِ بها، وبيان الحكمة من خلقها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

أَعِدْ تلاوةَ هذهِ الآيات، وأَرْعها سمعك، وتفكر بها، تجدها تُعَرِّفك بالله (إن الله فالق الحب والنوى... ذلكم الله... فالق الإصباح... وجعل الليل سكناً... ذلك تقدير العزيز العليم... وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها... وهو الذي أنشأكم...وهو الذي أنزل من السماء ماء...) نعم الفاعل لذلك كلّه هو الله

تبارك وتعالى، وهو إلهنا، وربنا، وهو الذي يجب أن نعبده ونوحده، والنصوصُ التي تشبه هذا الضرب من آيات القرآن كثيرة تملأ القلب إيماناً وطمأنينة، وتعظيماً لجلال الله سبحانه.

وقد أجاد العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى عندما قرر أن محتوى الخطاب القرآني هو التعريف بالله، ووصل القلوب به، فقال: « تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملكُ كلُّه، وله الحمد كلُّه، أَزِمةُ الأمور كلُّها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستوياً على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعاً على إسرارهم وعلانيتهم، متفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي ويقدر، ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده دقيقُها وجليلُها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف يثني على نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلُّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوه». [الفوائد: ص ٣٦].

وأنت كما ترى أننا في الجواب على السؤال الكبير الذي يسأل عن الله لجأنا إلى الله تبارك وتعالى نفسه، والسبب في ذلك أن الله – تبارك وتعالى- غيب لم نشاهدْه، ولم نره، وقد أمرنا أن نؤمن به ونخشاه بالغيب، وطريق معرفةِ الغيبِ الخبرُ الصادق المتلقى عن الله تعالى وتقدس.

ولا يجوز أن نتحدث عن الغيب بغير دليل ولا برهان: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

إنَّ السبيل الحق الذي هدانا الله إليه يقوم على الإيمان بالله، ثمَّ نأخذ عن اللهِ الوحيَّ الذي أوحاه إلينا، فنصدق به، ونتعرف منه على ربنا وصفاته وأسمائه وأفعاله، ونتعرف منه أيضاً على ملائكة ربنا ورسله وأنبيائه وجنته وناره، ونتعرف منه على أنفسنا، والكون من حولنا، وما يريده الله منا، وهذا معنى قول من قال من أهل العلم، وهو منسوب لابن عباس رضي الله عنه: «عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي » أي هو الذي عرفني بنفسه من خلال حديثه عن نفسه في كتابه، ولولا هذا الوحي الذي أنزله الله لما عرفتُ الله.

فإذا أنت فَقِهْتَ حديث الله عن نفسه، تكون قد عَرَفْت اللهَ بالله، وكنت على السداد والصواب، وسرت على الصراط المستقيم، وخَلُصْت من الجهل والشرك، وانحزت إلى زمرة أهل الإيمان، وكنت بالله عارفاً، ولدينه متابعاً، ولم يك بك حاجة إلى مقولات الفلاسفة، ولا إلى الدين المحرف الذي عليه المغضوب عليهم والضالون، ولا إلى النظريات التي يُرددها علماء الغرب، ولو كان فيما يعلمه هؤلاء كفاية، لما أرسل الله الرسل، ولا أنزل الكتب، وفي يوم القيامة لا يسألنا ربُّنا عما قرره أصحاب العقول في القديم والحديث، بل يسألنا عما جاءَت به نذر ربنا: ﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ * وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١٠].

إن الهدف من وراء تأليف هذا الكتاب هدف إيماني وهو تقرير الإيمان بالله في القلوب من خلال حديث الله عن نفسه وصفاته وأسمائه وأفعاله، وقد كنت فيما مضى دونت مؤلفاً في أسماء الله وصفاته، عنونت له: بـ«أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة ».

تناولت فيه عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله وأسمائه، وكان المقصد منه أن أتناول القواعد والضوابط التي تعصم من الزلل والضلال في هذا الباب.

ولكن بقي جانب مهم لم أعرض له في ذلك المؤلف، وهو تجلية معاني أسماء الله وصفاته، وهو المقصد الأهم في هذا الباب، إذ به يعرف العباد ربهم وخالقهم وموجدهم، وبه يحصلون على ما أراده الله منهم من معرفته والعلم به.

وكنت منذ وقت بعيد أمنّي النفس بالكتابة في هذا الموضوع، لما أرى فيه من نفع لنفسي وللمسلمين، فكان يحول دون ذلك قلة الوقت، فكان الوقت المتيسر على قلته أصرفه في التدريس لطلبة كلية الشريعة بالجامعة الأردنية، فلما قدر الله لي بحكمته سبحانه أن يُنْهَى عملي في تلك الكلية، وجدت أن الله قد يسر لي الوقت الذي كنت أفتقده، فاعتكفت على إنجاز هذا العمل الذي طالما اشتقت إلى إنجازه، فلله الحمد والمنّة على عظيم مواهبه، وجزيل عطائه، فقد عودني ربي أن يقدر لي وقائع وأحداث، يظهر منها أنها شر، فإذا هي الخير الشافي الوافي، كما قال الشاعر:

على أن لله في الأحداث حكمة تكشف عن فيض من الرحمات

وأصدق منه قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

فلله الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهرا وباطنا، وأسأل الله العون على إنجاز أعمال أخرى كنت أتطلع إلى القيام بها، وكان ما ذكرته من قلة الوقت يحول دون ذلك، فإنه سبحانه إذا شاء شيئا كان، وهيأ أسبابه، والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

وقد بدأت قبل الكتابة النظر في المدونات الموضوعة في هذا الباب، محاولا وضع المنهجية التي تحكم التأليف فيه، فوجدت مؤاخذات على بعض تلك المؤلفات حاولت تجنبها، فمن ذلك أن بعض المؤلفين يجمع الأقوال في معاني أسماء الله وصفاته من غير تمحيص وتدقيق للمعنى الصحيح لهذه الأسماء وتلك الصفات، وبعضهم تعمق في ذكر الشواهد التي تدل على المعاني اللغوية، وآخرون إختصروا الشرح في كلمات لا تكاد تفي بالمعنى الرئيس، أضف إلى ذلك أن بعض من ألف فيه حرف مسار الكتابة فيه، لضلال تلبس به بعيدا عن المنهج الحق الذي كان عليه السلف الصالح.

ووجدتني في خضم هذه التأليف أنهج النهج الذي نهجته في كتبي في العقيدة، فكان همي هو الوصول إلى المعاني الصحيحة عبر تجلية ذلك من الكتاب والسنة، وقد وجدت فيضاً من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تجلي معاني أسماء الله وصفاته التي تعرف بالله وتتحدث عنه، وقد أوردت من كلام أهل العلم في تفسير أسماء الله وصفاته ما كان محكوماً بهذه النظرة، وهذا النهج الذي بينته، لم ألجأ فيه إلى ما كتبه اللغويون إلا بمقدار ما يتأكد أن المعنى الذي قصدته هو المعنى المراد المقصود.

إن الهدف الذي قصدت إليه من وراء هذا التأليف هو دخول القارئ - حين يلج بوابة هذا الكتاب - إلى المعاني الرئيسة مباشرة، وأحشد كل ما أمكن من حشود ومؤثرات كي تتضافر للتأثير القرآني النبوي لمعاني الأسماء والصفات، فيدرك القارئ المعاني الكريمة التي تتحول إلى نور حقيقي تضيء النفوس البشرية، وتسمو بها، وتجعلها تعيش مع تلك المعاني الكريمة، بعيداً عن القواعد والضوابط، فقد تحقق هذا الهدف في المؤلف السابق المعنون له: بـ « معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته».

أسال الله – تبارك وتعالى- أن ينفعني بما كتبته وينفع به عباده، وأن يؤجرنا جميعاً ويثيبنا، إنه نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين.

أ.د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

تلاع العلي. عمان.

الأردن.

الأول من ربيع الثاني ١٤٢٤هـ

الثاني من حزيران (يونيو) ٢٠٠٣م





أخبرنا رسولنا ﷺ أن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها أو أحصاها دخل الجنة، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة ».[البخاري: ٢٧٣٦] وزاد في رواية: « وهو وتر يحب الوتر » [٦٤١٠].

ولم يرد حديث صحيح يحدد الرسول ﷺ فيه هذه الأسماء، والروايات الواردة في ذلك ضعيفة، وهذه الأسماء مبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد رغّب الرسول ﷺ بحديثه السابق أهل العلم إلى جمع هذه الأسماء رجاء تحصيل الثواب الذي وعد الرسول ﷺ فيه محصيها وحافظها.

وقد رأيت أهل العلم قد اتفقوا فيما بينهم على عدّ ما يقرب من ثمانين اسماً من أسمائه تعالى، ومنهم من وقف على تسعة وتسعين اسماً، وبعضهم زاد في عدها إلى أكثر من ذلك، وزادت عند بعضهم على مائتي اسم، وقد أحصيت في كتابي: « أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة» كل ما أدخله أهل العلم في أسمائه مما اطلعت عليه، فبلغ (٢٩٠) اسماً إلا أن أكثره لا يوافق على إدخاله في أسمائه.

والسبب في هذا الاختلاف راجع إلى أمرين:

١- مدى دلالة الحديث السابق على أنها تسعة وتسعون اسماً من غير زيادة، فيرى بعض أهل العلم أن مفهوم الحديث أن « تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» عبارة واحدة معناها من أحصى هذه التسعة والتسعين من بين أسمائه الكثيرة دخل الجنة، وهؤلاء لم يحددوا أسماء الله المنزلة في ديننا بعدد، ورأى فريق آخر أنها تسعة وتسعون اسماً لا تزيد، أعني المنزلة من عند الله في الكتاب والسنة.

٢- اختلافهم في الضوابط التي تحكم ما هو من أسماء الله مما ليس منها، والذي يترجح لديَّ أنها تسعة وتسعون اسماً، **وإليك المنهجية التي حددت بها ما يترجح لدي أنه من أسمائه سبحانه :**

أولا: لم أدخل في أسماء الله سبحانه وتعالى ما لم يرد به دليل من الكتاب والسنة الصحيحة، فليس لأحد أن يسمي الله باسم من عنده، **ويدخل في هذا الضابط استبعاد ثلاثة أنواع من الأسماء:**

١- الأسماء التي يخترعها البشر لله من عند أنفسهم، وهذا قول على الله بغير علم، كمن يسميه مخترعاً، أو جوهراً، أو صلداً بمعنى قوي، أو يسميه أسداً مشبهاً له بالأسد لقوته، أو المهندس، أو المخطط، ونحو ذلك مما يذكره بعض من يكتب عن الله.

٢- الأسماء المشتقة له من صفاته وأفعاله الواردة في الكتاب والسنة، كمن سمى الله بالجائي، المطعم، المسقي، الكاتب، القاضي، المؤيد، المبتلي، ونحو ذلك أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] وقوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠] ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وقوله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومن هذا الباب غير ما سبق: الباعث، الباقي، القاضي، الصبور، العدل، العادل، الفاتح، القيام، البالي، المنير، الثابت، الرشيد، الشفيع، والكائن، والمذكور، والبادي، والساتر، والستير، والواجد، والعدل، والوالي، والمعز، والمذل، ونحو ذلك.

يقول ابن القيم: « لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيَّداً أن يشتقَّ له منه اسم مطلق، كما غلط بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضلّ، الفاتن، الماكر، تعالى الله عن قوله، فإنَّ هذه الأسماء لم يطلق عليه منها إلا أفعال مخصوصة معينَّة، فلا يجوز أن يسمَّى بأسمائه المطلقة ».

٣- الأسماء التي أخذت عن طريق القياس، يقول الخطابي: « ولا يستعمل في أسماء الله القياس، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة، ومتعارف الكلام».

ومثل الخطابي للأسماء التي لا يجوز القياس عليها بالقوي والقادر والرحيم والعليم، فقال: « وَقَدْ جَاءَ فِي الأَسْمَاءِ: « القَوِيُّ » وَلاَ يُقَاسُ عَلَيْهِ الجلْدُ، وَإِنْ كَانَا يَتَقَارَبَانِ فِي نعُوْتِ الآدَمِيِّيْنَ، لأَنّ بَابَ التَّجلُّدِ يَدْخُلُهُ التَكَلُّفُ والاجْتِهادُ.

وَلاَ يُقَاسُ عَلَى « القَادِرِ » المُطْيِقُ وَلاَ المُسْتَطِيْعُ لأَنَّ الطَّاقَةَ والاسْتِطَاعَةَ إِنَّما تُطْلَقَانِ عَلَى مَعْنَى قُوَّةِ البُنْيَةِ، وتَرْكِيْبِ الخِلْقَةِ.

وَلاَ يُقَاسُ عَلَى « الرَّحِيْمِ » الرَّقِيْقُ، وَإِنْ كَانَتِ الرَّحْمَةُ فِي نُعُوْتِ الآدَمِيِّيْنَ نَوْعَاً مِنْ رِقَّةِ القَلْبِ، وَضَعْفِهِ عَنِ احْتِمَالِ القَسْوَةِ.

وَفِي أَسْمَائِهِ « العَلِيْمُ » وَمِنْ صِفَتِهِ العِلْمُ؛ فَلاَ يَجُوْزُ القياس عليه أن يسمّى «عارفاً » لما تقتضيه المعرفة من تقديم الأسبابِ الَّتِي بِهَا يُتَوَصَّلُ إِلَى عِلْمِ الشَّيْءِ.

وَكَذَلِكَ لاَ يُوْصَفُ بِالعَاقِلِ.

وَهَذَا البَابُ يَجبُ أَنْ يُراعَى، وَلاَ يُغْفَلَ، فإِنَّ عَائِدَتَهُ عَظِيْمَةٌ، وَالجَهْلُ بِهِ ضَارٌّ

وبِاللهِ التَّوْفِيْقُ.[شأن الدعاء: ١١١].

الثاني: أدخلت في أسماء الله تبارك وتعالى الأسماء التي صحت بها الأحاديث النبوية، فالقول بالاقتصار في عدها على ما ورد في القرآن يخالف القرآن، فقد أمرنا ربنا أن نأخذ ما جاءت به السنة كما نأخذ ما جاء في القرآن: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ومن الأسماء التي دخلت في أسمائه بأدلة صحيحة من السنة: المنان، الديان، الشافي، المحسن، المعطي، السبوح.

وعدم إدخال الذين أحصوا أسماء الله الحسنى هذه الأسماء في جملة ما أحصوه جعلهم يتكلفون في عدّ بعض الأسماء من القرآن، فأخذوها منه بطريق الاشتقاق.

الثالث: لم أدخل في أسمائه سبحانه الأسماء التي لا يصح أن يدعى الله بها، وقد دل الله سبحانه على هذا الضابط في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

فقد أمرنا سبحانه أن ندعوه بكل أسمائه الحسنى، فإذا وجدنا من يضيف له أسماء تنفر منها أسماعنا، وتقشعر جلودنا، عند دعائه بها، علمنا أن هذه الأسماء ليست من أسمائه.

فلا يصح أن ندعوه قائلين: يا دارئ، يا دهر، يا أبد، يا أمد، يا برهان، يا داعي، يا زارع، يا ماهد، يا ثابت، يا جاعل، يا سريع، يا عين، يا غيور، يا كائن، يا فاعل، يا فعال، يا قاتل، يا كاتب، يا كاشف، يا مبرم، يا نفس، ونحو ذلك من الأسماء التي أدخلها بعض أهل العلم في أسمائه.

ولا يجوز أن يفقه من هذا الضابط أنه لا يجوز دعاء الله إلا بأسمائه، فهذا غير صحيح، فإنه يدعى بصفاته سبحانه، كما يدعى بأفعاله، فيقال في الدعاء، يا داحي الأرض، ورافع السماء، ومنزل الغيث، ومصرف السحاب، ومنجي المؤمنين،

ومهلك الظالمين.

والذي قررناه في هذا الضابط هو أنه لا يجوز أن يدخل في أسمائه ما لا يصح دعاؤه به.

الرابع: لم أدخل في أسمائه كل اسم لم يصح أن نُعَبِّدَ العباد به، فمن المعلوم أنه يصح أن نعبد العباد بكل اسم من أسماء الله تعالى، فتقول: عبد الله، عبد العزيز، عبد الحي، عبد القيوم، ونحو ذلك، فإذا وجد من يسمي الله باسم لا يصح تعبيد العباد به علمنا أن هذا الاسم ليس من أسمائه.

فلا يصح أن نقول: عبد المخترع، عبد المهندس، عبد عدو الكافرين، عبد المرسل، عبد رابع ثلاثة، عبد السخط، عبد القاضي، عبد المبغض، عبد المتكلم، عبد القائم، عبد البالغ، عبد الغيور، وعبد المنزل، عبد الرافع، عبد الماهد، فلما لم يصح تعبيد الله بهذه الأسماء ونحوها علم أنها ليست من أسمائه سبحانه.

وقد نبه الخطابي رحمه الله تعالى إلى أن أهل العلم فضلاً عن غيرهم يقعون في هذا الخطأ، فقال: « وقد يقع الغَلَطُ كَثِيْرَاً في بَابِ التَّسْمِيَةِ.

وَأَعْرِفُ رَجُلاً مِنَ الفُقَهَاءِ كَانَ سَمَّى وَلَدَهُ: عَبْدَ المُطَّلِب، فَهُو يُدْعَى بِهِ إِلَى اليَوْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ بِعَبْدِ المُطَّلِبِ، جَدِّ رَسُول الله ﷺ فَجَرَى في التَّسْمِيَةِ بِهِ عَلَى التَّقْلِيْدِ، وَلَم يَشْعُرْ أَنَّ جَدَّ رَسُول الله ﷺ إِنَّمَا دُعِيَ بِهِ، لأَنَّ هَاشِمَاً أَبَاهُ كَانَ تَزَوَّجَ أُمَّهُ بِالمَدِيْنَةِ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِن بَنِي النَّجَّار، فَوَلَدَتْ لَهُ هَذَا الغُلامَ، وَسَمَّاهُ شَيْبَةَ، وَمَاتَ عَنْهُ وَهُوَ طِفْلٌ، فَخَرَجَ عَمُّهُ المُطَّلِبُ بنُ عَبْدِ مَنَافٍ أَخُو هَاشم في طَلَبِهِ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَحَمَلَهُ إِلَى مَكَّةَ فَدَخَلَهَا، وَقَدْ أَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، فَقِيْلَ لَهُ: مَنْ هَذَا الغُلامُ؟.

فَقَالَ: هَذَا عَبْدِي، وَذَلِكَ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ كَسَاهُ، وَلاَ نَظَّفَهُ، فَيَزُوْلَ عَنْهُ شَعَثُ السَّفَرِ؛ فَاسْتَحْيَا أَنْ يَقُوْلَ: ابْنُ أَخِي.

فَدُعِي بِعَبْدِ المُطَّلِبِ بَاقِي عُمْرِهِ. عَلَى أَنَّهُ لاَ اعْتِبَارَ بِمَذَاهِبِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ

فِي هَذَا، فَقَدْ تَسَمَّوْا: بِعَبْدِ مَنَافٍ، وَعَبْدِ الدَّارِ، وَنَحْوِهِمَا مِنَ الأَسَامِي » [شأن الدعاء ٨٥].

الخامس: لم أدخل في أسمائه ما جاءَت النصوص مخبرة به، أو ذكره بعض أهل العلم على وجه الإخبار لا على وجه تسمية الله به، فباب الإخبار يتوسع فيه بما لا يتوسع في باب التسمية والصفة.

فقد أجاز أهل العلم الإخبار عن الله بأنه موجود، وأنه شيء، وأنه ثابت، ولم يدخلوا مثل هذه في أسمائه وصفاته، وكل ما اشترطوه أن يخبر عنه باسم حسن أو ليس بسيِّئ، أما أسماؤه سبحانه فيشرط أن تكون حسنى.

ومن الأسماء التي رجَّحتُ أنها من باب الإخبار لا من الأسماء الحسنى ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أنه سبحانه المسعر، القابض الباسط، الرازق، الطبيب، الطيب، النظيف، الحي الستّير، المقّدم المؤخّر، الجميل، الماجد، السيد، الوتر.

وترجيحي لكون هذه الأسماء من باب الإخبار لم أقل به اعتباطاً، وإنما كان بإجرائي على هذه الأسماء التي ثبتت في صحيح السنة قواعد أخرى سبق ذكرها، ومن هذه القواعد، أن أسماء الله يجوز أن يعبد العباد بها، فهل يصح أن نسمي أطفالنا بعبد المسعر، وعبد الطبيب، وعبد النظيف، وعبد الجميل، وعبد الماجد، وعبد السيد، وعبد الوتر، أما الأسماء التي رجحت دخولها في أسمائه مما جاءَت به السنة الصحيحة فواضح أنه يجوز أن نعبد أطفالنا بها، فنقول: عبد المنان، وعبد الشافي، وعبد الديان، وعبد المعطي، وعبد المحسن، وعبد السبوح.

وكما لا يصح تعبيد الله بهذه الأسماء، كذلك لا يصح دعاء الله بها، كأن يدعى فيقال: يا مسعّر، يا طبيب، يا طيب، يا نظيف، يا جميل، يا سيد، يا وتر.

أما الباسط والرزاق فمع جواز التعبيد بها والدعاء بها كما يظهر فلم أدخلها

في أسمائه الحسنى، لأنها وردت مع المسعّر في حديث واحد، وسيقت مساقاً واحداً ففي الحديث « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق »، فغلب على ظني أنها مساقة سياقاً واحداً، على معنى أنها إخبار عن الله، لا من باب تسمية الله بها، والله أعلم بالصواب.

السادس: لم أدخل في أسمائه سبحانه الأسماء التي تشعر بالذمّ كالمخادع، والماكر، والفاتن، والسَّخط، والمنتقم، أو الأسماء المنقسمة إلى كمال ونقص: كالزَّراع، والماهد، والآتي، والمريد، والمتكلم، والفاعل، والفعال، والمبرم، ونحو ذلك.

قال ابن حجر رحمه الله: « اتفقوا على أنّه لا يجوز أن يطلق على الله تعالى اسم أو صفة توهم نقصاً، فلا يقال: ماهد ولا زراع، ولا فالق، وإن جاء في القرآن فنعم الماهدون، ونحن الزراعون».

أما ما وردت فيه في كتاب الله على النحو الذي وردت فيه، فإنها صفة مدح كما بينت ذلك في كتابي « أسماء الله وصفاته ».

السابع: لم أدخل في أسماء الله تعالى ما كان من صفات أفعاله أو صفات أسمائه.

مثل شديد العقاب، وسريع العقاب، وسريع الحساب، وشديد المحال، ورفيع الدرجات، لأنَّ الشديد والسريع من صفات أفعاله، فلا فرق في المعنى بين قوله: إن الله شديد العقاب، وسريع العقاب، وشديد المحال، وسريع الحساب، وبين قولنا: إنَّ عقاب الله شديد، وعقابه سريع، ومحاله شديد، وحسابه سريع، ودرجاته رفيعة.

الثامن: لم أخرج من أسماء الله ما اتفق معناه وتغاير لفظه.

بدعوى أنه من باب التكرار، فالرحمن الرحيم اسمان وليسا اسماً واحداً، والقادر والمقتدر والقدير ثلاثة أسماء، وكلٌّ واحد منها اسم مستقلٌّ بذاته ما دام قد

ورد في الكتاب والسنّة كذلك.

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أنَّ هذا ليس تكراراً من كلِّ وجه، فالاسم الذي يرى مكرَّرا يفيد معنى خاصّاً لا يفيده الاسم الآخر، وإن شاركه في أصل المعنى.

يقول ابن حجر العسقلاني: « الأسماء المشتقة من صفة واحدة لا يمنع ذلك من عدّها، فإن فيها التغاير في الجملة، فإنَّ بعضها يزيد بخصوصيَّة على الآخر ليست فيه» [فتح الباري: ١١/ ٢١٩].

ونقل ابن حجر عن أبي العباس بن معد قوله: « ليس في أسماء الله شيء مترادف، إذ لكل اسم خصوصية، وإن اتفق بعضها مع بعض في أصل المعنى » [فتح الباري: ١١/ ٢٢٣].

وفي مقابل الذين جعلوا الأسماء التي وردت في المعنى الواحد اسماً واحداً، ذهب فريق آخر مذهباً مغايراً لهذا المذهب، فقد جعلوا الأسماء المكرَّرة بألفاظها أسماء مختلفة باعتبار إضافتها وقطعها عن الإضافة، فقد جعلوا الربَّ، وربَّ المشرقين، وربَّ المغربين، وربَّ الملائكة والروح، وربَّ الناس، وربَّنا ورب كل شيء، أسماء متعددة، والحقُّ أنَّ هذه كلها اسم واحد هو الربُّ، ومما جعلوه متعدداً وهو اسم واحد: واسع المغفرة، الواسع، بديع السموات والأرض، البديع، النُّور نور السموات والأرض، الوكيل، نعم الوكيل، القادر، نعم القادر، الناصر، ونعم الناصر.

التاسع: لم أخرج من تعداد الأسماء الحسنى الأسماء المضافة التي وردت في الكتاب والسنة.

فلا يقرُّ من أخرج من أسمائه- تبارك وتعالى- عالم الغيب والشهادة، ومالك الملك، وبديع السموات والأرض، نور السموات والأرض، وغافر الذنب، وعلام الغيوب، وفاطر السموات والأرض، إذ لا حجة لهؤلاء إلا أنَّ هذه

الأسماء مضافة، وهذه ليست بحجة، فما الإشكال في أن تكون أسماء الله مضافة؟

العاشر: لم أدخل في أسماء الله الأسماء الجامدة التي لا تتضمن معنى يلحقها بالأسماء الحسنى، لأنَّ أسماء الله أعلام وأوصاف.

وعلى ذلك فلا يكون من أسمائه: الدهر، والأبد، والأمد، والشيء، والعين؛ فالدهر والأبد والأمد أسماء للزمن، قال تعالى فيما حكاه عن منكري البعث: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قد يقال: ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « لا تقولوا: يا خيبة الدَّهر، فإنَّ الله هو الدَّهر ».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسبُّ أحدُكم الدهر، فإن الله هو الدهر ».

وجاء في الحديث القدسي الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربِّه: « يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهر، وأنا الدهر، أقلِّب الليل والنَّهار » إن العباد يسبون من يوقع بهم البلاء، ويصيبهم بالمصائب والأحزان، وينسبون ما يصيبهم ويقع بهم إلى الدهر، وحقيقة الأمر أنَّ الذي يوقع بهم كلَّ ذلك هو الله الذي يصرِّف أمورهم وأمور الكون، يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعزُّ ويذلُّ، ويضحك ويبكي، ويميت ويحي، ويقلب الليل على النهار، والنهار على الليل، فإذا سبّوا الذي يفعل ذلك فقد سبّوا الله تبارك وتعالى، وإن سموه دهراً، لأن الفاعل هو الله، وقد أخطؤوا في نسبة هذه الأفعال إلى الدهر.

الحادي عشر: لم أحتسب في أسمائه ما بدئ بـ« بذو »:

الوارد في الكتاب والسنة من الأسماء المبدوْءَة بـ«بذو» المضافة إلى صفة من صفات الله، أو فعل من أفعاله، أو خلق من مخلوقاته من أعظم ما يمدح به ربٌّ

العزة ويدعى به، ولكنَّها لا تدخل في أسمائه الحسنى التسعة والتسعين على الأرجح، لأن معنى ذي القوة وذي الرحمة وذي الكبرياء: صاحب القوة والرحمة والكبرياء، فذو في اللغة بمعنى صاحب، **وهذه الأسماء ثلاثة أقسام:**

الأول: ما أضيف منها إلى صفة من صفات الباري وهذا نوعان:

النوع الأول: أن تكون لهذه الصفات أسماء تدلُّ عليها صرَّحت بها النصوص، وهي: ذو الرحمة، ذو القوة، ذو المغفرة، ذو الجبروت، ذو الملكوت، ذو الكبرياء، ذو العظمة.

والأسماء التي تضمنت هذه الصفات هي: الرحمن، الرحيم، القوي، الغفار، الغفور، الجبَّار، الملك، الكبير، العظيم.

والنوع الثاني: صفات ليس لها أسماء تدلُّ عليها في الكتاب والسنة.

وهي: ذو الطَّوْل، ذو الفضل، ذو الجلال والإكرام، فإن هذه الصفات أضيفت « ذو » إلى كل منها، وليس لأيّ منها اسم مصرَّح به في النصوص.

القسم الثاني: ما أضيف إلى فعل من أفعال الباري تبارك وتعالى، وهما اسمان هما: ذو عقاب أليم، وذو انتقام.

القسم الثالث: ما أضيف إلى بعض مخلوقاته، وهما اسمان هما: ذو العرش، وذو المعارج.

الثاني عشر: لم أدخل في أسماء الله ما جاء على صيغة أفعل التفضيل إذا كان مضافا.

أما ما جاء منصوصاً عليه من أسمائه على صيغة أفعل التفضيل من غير إضافة، فإنه من أسمائه مثل: الأعلى، الأكرم.

فهو وإن كان من أعظم المادح التي يُمدح بها ربُّ العزة، ويُثنَى عليه بها،

ويدعى بها إلا أنها ليست من أسمائه على الأرجح، مثل: أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين، وأحسن الخالقين، وخير الفاصلين، وخير الرازقين، وخير الناصرين، وخير الوارثين، وخير المنزلين، وخير الراحمين، وخير الحاكمين، وخير الغافرين، وخير الماكرين، وخير الفاتحين.

وهذه الأسماء على هذه الصيغة جاءت للدَّلالة على كمال الربِّ تبارك وتعالى، فكلُّ كمال اتصف به المخلوق من غير نقص بوجه من الوجوه فللربِّ منه أكمله.

وللدلالة على هذا المعنى يصحُّ أن يصاغ من الصفات الثابتة للربِّ تبارك وتعالى أسماء على صيغة أفعل التفضيل، وإن لم ترد في الكتاب والسنة مثل: الأعظم، الأقوى، الأعلم، الأقرب، الأكبر، الأحلم، الأحكم.

أما ما جاء منصوصاً عليه من أسمائه على صيغة أفعل التفضيل من غير إضافة، فإنه من أسمائه، مثل: الأعلى، والأكرم.

هذه هي الضوابط التي حكمت منهج الاختيار عندي، وبعض هذه الضوابط متفق عليه، وبعضها موضع اختلاف، فإن أصبت فبتوفيق الله، وإلا فإنني أستغفر الله وأتوب إليه، وأسأل الله أن لا يحرمني أجر من اجتهد فأصاب، أو أجر من أجتهد فأخطأ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

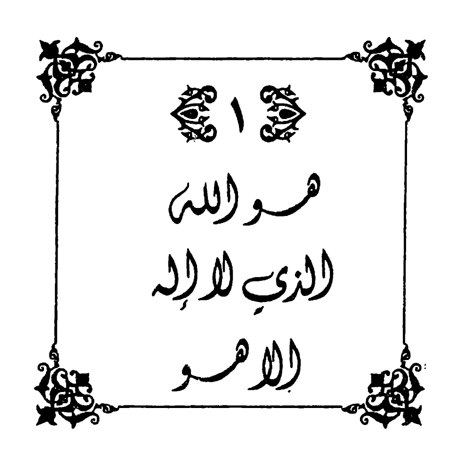




١ـ الله الذي لا إله إلا هو.	٢ـ الرحمن	٣ـ الرحيم
٤ـ رب العالمين	٥ـ الملك	٦ـ مالك يوم الدين
٧ـ المليك	٨ـ القدوس	٩ـ السلام
١٠ـ المؤمن	١١ـ المهيمن	١٢ـ العزيز
١٣ـ الجبار	١٤ـ المتكبر	١٥ـ الخالق
١٦ـ الخلاق	١٧ـ البارئ	١٨ـ الفاطر
١٩ـ المصور	٢٠ـ الغافر	٢١ـ الغفار
٢٢ـ الغفور	٢٣ـ القاهر	٢٤ـ القهار
٢٥ـ الوّهاب	٢٦ـ الرزاق	٢٧ـ الفتاح
٢٨ـ العالم	٢٩ـ العليم	٣٠ـ العلام
٣١ـ السميع	٣٢ـ البصير	٣٣ـ الحكيم
٣٤ـ الحكم	٣٥ـ اللطيف	٣٦ـ الخبير
٣٧ـ الحليم	٣٨ـ العظيم	٣٩ـ الشاكر
٤٠ـ الشكور	٤١ـ العلي	٤٢ـ الأعلى
٤٣ـ المتعالي	٤٤ـ الكبير	٤٥ـ الحافظ
٤٦ـ الحفيظ	٤٧ـ المقيت	٤٨ـ الحسيب
٤٩ـ الكريم	٥٠ـ الأكرم	٥١ـ الرقيب
٥٢ـ القريب	٥٣ـ المجيب	٥٤ـ الواسع
٥٥ـ الودود	٥٦ـ المجيد	٥٧ـ الشهيد

٥٨ـ الحق	٥٩ـ المبين	٦٠ـ المحيط
٦١ـ الوكيل	٦٢ـ القوي	٦٣ـ المتين
٦٤ـ الولي	٦٥ـ المولى	٦٦ـ الحميد
٦٧ـ المحيي	٦٨ـالحي	٦٩ـ القيوم
٧٠ـ الواحد	٧١ـ الأحد	٧٢ـ الصمد
٧٣ـ القدير	٧٤ـ القادر	٧٥ـ المقتدر
٧٦ـ الأول	٧٧ـ الآخر	٧٨ـ الظاهر
٧٩ـ الباطن	٨٠ـ البر	٨١ـ التواب
٨٢ـ العفو	٨٣ـ الرؤوف	٨٤ـ الغني
٨٥ـ النور	٨٦ـ الهادي	٨٧ـ بديع السموات والأرض
٨٨ـ النصير	٨٩ـ الوارث	٩٠ـ الصادق
٩١ـ الجامع	٩٢ـ الكافي	٩٣ـ المستعان
٩٤ـ المنان	٩٥ـ الديان	٩٦ـ الشافي
٩٧ـ المحسن	٩٨ـ المعطي	٩٩ـ السبوح





١- « الله » أشهر أسماء الرب تبارك وتعالى:

وكل البشر على اختلاف ألوانهم علماؤهم وجهالهم، عربهم وعجمهم يعلمون أن الله اسم لرب العالمين، خالق السموات والأرضين، الذي يحي ويميت، وهو رب كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يراد به هذا المسمى، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع بكل مسمى. [راجع الصواعق المرسلة: ٧٤٩].

وقال الخطابي: « إنَّ أشهر أسماء الرب تبارك وتعالى، وأعلاها في الذكر والدعاء « الله »، وكذلك جعله إمام سائر الأسماء، وخُصَّت به كلمة الإخلاص، ووقعت به الشهادة، فصار شعار الإيمان، وهو اسم ممنوع، لم يتسم به أحد، قد قبض الله عنه الألسن، فلم يُدْعَ به شيء سواه » [شأن الدعاء: ص ٣١].

٢-الصواب أن اسم الله مشتق:

واسم « الله » من أسماء الله الحسنى، ولذا فإن الصواب من القول أنه مشتق، وأن أصله الإله، وهو دال على صفة ألوهيته » [راجع: بدائع الفوائد: ١/ ٢٢].

وأصل « الله » الإله، قال ابن منظور: « الإله: الله عز وجل، وكل ما اتخذ

من دونه معبوداً إله عند متخذه، والجمع آلهة، والآلهة: الأصنام، سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها، وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم، لاما عليه الشي في نفسه، قال ابن الأثير: هو مأخوذ من ألِهَ » [لسان العرب: ١/ ٨٧].

وعزى الزجاجي إلى يونس بن حبيب والكسائي والفراء وقطرب والأخفش «أن أصله الإله، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً فاجتمعت لامان، فأدغمت الأولى في الثانية، فقيل: الله، فإله « فِعال» بمعنى «مفعول» كأنه مألوه، أي: معبود مستحق للعبادة، يعبده الخلق ويؤلهونه، والتأله التعبد » [اشتقاق أسماء الله: ٢٨].

وعلى ذلك فإن كل من عُبدَ من دون الله بالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحو ذلك فإنه إله، أي معبود، ولكن المعبودات كلها باطلة إلا الله تبارك وتعالى فهو إله الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٣] وقال:﴿الٓمٓ ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[آل عمران:١- ٢] وقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[الأنبياء: ١٠٨] وقال: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [البقرة: ١٣٣].

ويدل على أن أصل اسم الله الإله استعمال العرب له في كلامها فقد أورد البخاري في صحيحه في ترجمة « باب ما يذكر في النعوت وأسامي الله قول خبيب: « وذلك في ذات الإله ».

وأورد ابن أبي شيبة في مصنفه [٥/ ٢٧٤] أن عمر رضي الله عنه سأل وفداً من غطفان عن القائل :

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم في البرية فازجرها عن الفند

قالوا له: النابغة، قال: «ذلك أشعر شعرائكم » .

وفي المصنف أيضا [٦/ ٤٤٤] أن حارثة بن بدر الهمداني قال:

لعمر أبيك إن همدان تتقي الإله ويقضي بالكتاب خطيبها

وكل هذا يدل على أن أصل اسم الله هو الإله، وأن هذا كان معلوما للعرب في كلامها، والقرآن أنزل بلغة العرب.

٣- الله المعبود الحق المستحق للعبادة لا إله غيره ولا ربّ سواه:

و(لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، وقد تضمنت الدين الذي جاءَت به الرسل كلهم من عند الله، وهي أعظم كلمة أنزلت من عند الله، وقد تضمنت الحقيقة الكبرى، وبها أصبح الناس مؤمنين وكفارا، وأخيارا وأشرارا، وهي الدالة على تفرد الله بالوحدانية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وأوجب الحق تبارك وتعالى العلم بها: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [هود: ١٤].

ومعنى قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه المستحق للعبادة دون غيره، لا يستحقها أحد سواه، فكل ما عبده الناس من دونه آلهة باطلة، وقد عبد الناس قديماً ولا يزالون الشمس والقمر، والأصنام والأوثان والنيران، والنجوم والأشجار والأحجار، وكل هذا باطل، لأن هذه المعبودات لا تملك شيئاً من خصائص الألوهية، ولا الربوبية، والله وحده هو الذي يملك هذه الخصائص التي تجعله الإله الحق المعبود، وقد أورد الحق تبارك وتعالى في آية الكرسي الصفات التي تجعله مستحقاً للعبادة دون سواه، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه لكمال حياته وقيّوميّته سنة ولا نوم، وهو العالم المالك للسموات والأرض الذي لا يشفع أحد

عنده إلا بإذنه، وهو الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

٤- الله الاسم الأعظم على الأرجح:

وهذا الاسم- كما يقول القرطبي رحمه الله: « أكبرُ أسمائه وأجمعُها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسمُ الله الأعظم، ولم يتسمَّ به غيرهُ، ولذلك لم يثنَّ، ولم يجمع، وهو أَحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم: ٦٥] أي هل تعلم من تسمّى باسمه الذي هو « الله ».

فالله اسم للموجود الحق الجامعُ لصفات الألوهية، المنعوتُ بنعوت الربوبية، المنفردُ الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه » [القرطبي: ١/ ١٠٢].

وقد سمع الرسول ﷺ بعض الصحابة يدعو بأدعية، فأخبر أن أدعيتهم تلك تضمنت الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فمن ذلك أنه سمع رجلاً يدعو، وهو يقول: « اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال: والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى » [صحيح سنن الترمذي: ٢٧٦٣ وسنن أبي داود: ١٤٩٣].

وسمع آخر يقول يدعو بعد صلاته: « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنانُ بديعُ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي، يا قيوم» فقال النبي ﷺ: « دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى » [أبو داود: ١٤٩٥].

ويرجّح أن « الله » الاسم الأعظم امور:

١- أنه الاسم الوحيد الذي ورد في كل الأحاديث التي أخبر الرسول ﷺ أن فيها اسم الله الأعظم.

٢- كثرة وروده في كتاب الله تعالى، فقد ورد في كتاب الله (٢٧٢٤) مرة.

٣- أن بقية أسمائه تبارك وتعالى تجري مع هذا الاسم مجرى الصفات مع الأسماء، فتقول: من صفات الله العليم الحكيم الكريم، ولا تقول: من صفات العليم الله.

٤- اسم الله مستلزم لجميع معاني أسمائه الحسنى، دال عليها بالإجمال، وكل أسمائه وصفاته تفصيل وتبيين لصفات الألوهية التي اشتق منها اسم الله، واسم الله يدل على كونه- سبحانه - معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في النوائب والحاجات [راجع: مدارك السالكين: ١/ ٥٦].

وقال ابن القيم: « الإله هو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى »[بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٢].

٥- تعرف الرب تبارك وتعالى إلى موسى باسمه الله:

تعرف الله إلى عباده باسمه « الله » كثيراً، ومن هؤلاء نبي الله موسى عليه السلام عندما أرسله إلى قومه، فعندما كان موسى عليه السلام، عائداً بأهله من مدين في طريقه إلى مصر في ليلة ظلماء باردة، رأى على البعد بجانب الطور ناراً، فقال لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وقال له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٣- ١٤].

فتعرف الله إلى نبيه موسى بأنه اللهُ ربُّ العالمين، وأنه اللهُ الحقُّ الذي لا يستحق العبادة إلا هو.

وقد تعرف الله إلى عباده في كتابه المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ بمثل ذلك، ومن هذا ما جاء في فاتحة أعظم آيات هذا الكتاب، وهي آية الكرسي، فقد جاء في أولها﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦- دعائه- تبارك وتعالى- بهذا الاسم:

أكثر ما يدعى الله- تبارك وتعالى- بلفظ: « اللهم »، ومعنى: اللهم، يا الله، ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني [راجع: التفسير القيم: ٢٠٢].

ومما ورد في القرآن دعاءً بـ « اللهم » دعاء عيسى عليه السلام:﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ [المائدة: ١١٤] وقوله تعالى:﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقد كان الرسول ﷺ يدعو ربه كثيراً بقوله: اللهم، ومن ذلك:

١- عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: « اللهم اجعل في قلبي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، واجعل

لي نوراً » [البخاري: ٣١١٦].

٢- أوصى رسول الله ﷺ رجلاً، فقال: « إذا أردت مضجعك فقل: « اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك » [البخاري : ٦٣١٣].

٣- عن ابْنَ أبي أوْفَى رَضيَ اللهُ عَنْهما: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الأحْزَابِ، فَقَالَ: « اللّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَاب، اهْزِمِ الأحْزَابَ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ » [البخاري: ٦٣٩٢ مسلم: ١٧٤٢].

٤- عَنْ أبي هُرَيْرَةَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا قال: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فِي الرَّكْعَةِ الآخرَةِ مِنْ صَلاةِ الْعِشَاء قَنَتَ: « اللَّهُمَّ أنْجِ عَيَّاشَ ابْنَ أبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدَ، اللَّهُم أنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ ». [البخاري: ٦٣٩٣ مسلم: ٦٧٥].



يصح في جواب من سأل فقال: من هو الله؟ أن يجاب: هو الرحمن الرحيم، كما قال الحق- تبارك وتعالى-: «﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢] وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] والرحمن والرحيم اسمان من أسماء الله- تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال عز وجل: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

١- معنى الرحمن الرحيم:

والرحمن والرحيم اسمان من أسماء الله مشتقان من الرحمة أحدهما أرق من الآخر، كما يقول ابن عباس رضي الله عنه [فتح الباري: ١٣/ ٤٣٩].

وكما أن الرحمن الرحيمَ اسمان من أسمائه، فإنهما أيضاً صفتان من صفاته، يُثنى عليه بهما، ويُمَجَّد ويعظم بهما: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الصحيح « أن العبد إذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. قال: أثنى علي عبدي».

وقد ورد اسم (ٱلرَّحۡمَـٰنِ) في كتاب الله سبعاً وخمسين مرة، أما اسم الرحيم فزاد وروده فيه على التسعين مرة، وقد تكرر ذكر كل من هذين الاسمين في أعظم سورة في كتاب الله وهي الفاتحةُ مرتين، فقد ورد في الآية الأولى منها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على القول بأن البسملة آيةٌ من الفاتحة، وفي الآية الثالثة منها (ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ).

٢- مواقع رحمة الله تبارك وتعالى:

وقد أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- أن رحمته واسعة: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ [الأنعام: ١٤٧] ولسعتها وسعت كلَّ شيء: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وهي لسعتها وكمالها كأنّها الرحمةُ التي لا رحمةَ غيرُها ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨].

ورحمة الله الواسعة تراها أينما يَمَّمت وجهك في هذا الكون، وهي أعظم ما تكون في الوحي المنزل على رسل الله وأنبيائه، ومن ذلك ما أنزله على رسوله محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦- ٧٧] وقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وقال: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧] والتوراة المنزلة من عند الله كانت هدى ورحمةً كالقرآن: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وما آتاه اللهُ العبدَ الصالحَ الذي رحل إليه نبي الله موسى عليه السلام هو من الرحمة التي يرحم الله بها عباده: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

ومن رحمة الله بعباده المؤمنين إنجاؤُهم من العذاب الذي كان يحلّه بالكافرين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود: ٥٨]، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود: ٩٤].

وتتبدى رحمة الله في الماء الهاطل من السماء، الذي يحيي به الله الزرعَ، ويدر به الضرعَ، ويسقي به العبادَ والبلادَ، وقد دعانا الله- تبارك وتعالى- إلى التفكر والنظر في آثار رحمته بعد ما ينزله من الغيث ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠].

٣- كيف ينال العبد رحمة ربه:

وقد عرفنا ربنا- تبارك وتعالى- بالطريق التي نَنَالُ بها رحمته، فمن ذلك اتباعُ القرآن، والعملُ به، والاستماعُ لقراءته: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ، ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤] ومن ذلك إقامُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ وطاعةُ الرسول ﷺ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

ومما تنال به رحمة الله: الاستغفار والإحسان: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النمل: ٤٦]، ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الأعراف: ٥٦].

وقد أرشدنا ربنا- تبارك وتعالى- إلى سؤاله رحمته لأنفسنا وأقاربنا وإخواننا ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤] ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

٤- رحمة الله في الآخرة خاصة بالمؤمنين:

ورحمة الله في الدنيا تنال الطائع والعاصي، والمؤمنَ والكافر، أما رحمته في الآخرة فهي للمؤمنين خالصة، كما قال سبحانه: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « خلق الله مائة رحمة، فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون يتراحمون بها » [صحيح سنن الترمذي: ٣٧٩٠].

ولذا فإن رحمته في الآخرة أوسع من رحمته في الدنيا بكثير، كما أن عقابه في الآخرة أعظم من عقوبة الدنيا بكثير، ففي الحديث عن النبي ﷺ: « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد » [صحيح سنن الترمذي: ٣٧٩١].

ومع عظم رحمة الله وعظم عقوبته، فإن رحمته- دائماً- تغلب غضبه، كما صح في الحديث « إن الله حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه: أنّ رحمتي تغلب غضبي» [صحيح سنن الترمذي: ٣٩٩٢. وصحيح سنن ابن ماجه ١٨٩].

٥- الله يحب الرحماء من عباده:

والرحمة من الصفات التي يحب الله من اتصف بها من خلقه، ففي الحديث: «عن جَرير بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا يَرحمُ اللهُ مَن لا يَرحم الناسَ » [البخاري: ٧٣٧٦].

و عن أُسامةَ بن زيدٍ قال: «كنا عندَ النبيِّ ﷺ إذ جاءهُ رسولُ إحدىَ بناتِهِ تَدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: ارجع فأخبرْها أنَّ لله ما أخذَ ولهُ ما أعطى، وكل

شيء عنده بأجلٍ مسمًّى، فمْرها فلْتصبرْ ولتَحتَسبْ. فأعادتِ الرسولَ أنها قد أقسمت ليأتينَّها. فقامَ النبي ﷺ وقام معهُ سعدُ بن عُبادةَ ومعاذ بن جبل، فدُفع الصبيُّ إليه ونفسه تقعْقع كأنها في شَن، ففاضَت عيناهُ، فقال له سعدٌ: يا رسولَ الله ما هذا؟ قال: هذه رحمةٌ جَعلها اللهُ في قلوب عباده، وإنما يَرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرحماءَ » [البخاري: ٧٣٧٧].

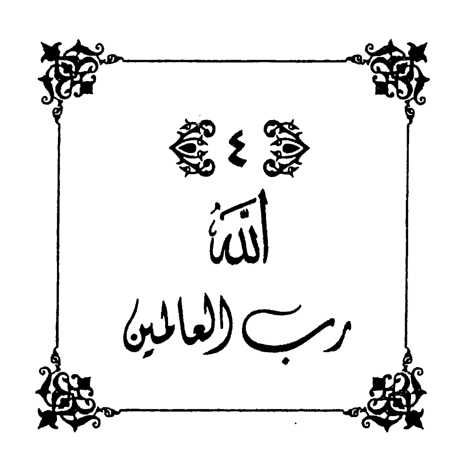
٦- الله أرحم الراحمين:

والله سبحانه أرحم الراحمين، وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن عباده الصالحين كانوا يدعونه بهذا الاسم، قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] وفي قوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وفي قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقد فقّهنا رسولنا ﷺ أن رحمة العباد بعضهم بعضا هو جزء ضئيل من رحمته فالله له مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة، فبها يتراحم الخلق فيما بينهم، وادخر عنده تسعة وتسعين رحمة، ادخرها للمؤمنين في الآخرة.

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الله خير الراحمين، وقد جاء هذا الاسم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنين: ١٠٩] وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنين: ١١٨].

كما أخبرنا سبحانه أنه ذو الرحمة، فكان صاحب الرحمة الحقيقية العظيمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].



من أسماء الله الحسنى التي يدعى بها، ويمجد بها، ويقدس بها، اسم « الرب » وأكثر ما جاء هذا الاسم في كتاب الله مضافاً، مثل: رب العالمين ورب السموات، ورب الأرض، ورب الملائكة، ورب العرش، ونحو ذلك.

وقد ورد في أكثر من (٩٠٠) موضع في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٧٤].

والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، وسيأتي ذكر بعض منها، ومن عجب أن الرواية المشهورة عند الناس، التي ذكرت فيها أسماء الله الحسنى خلت من ذكر هذا الاسم، مع شهرته، وكثرة وروده في الكتاب والسنة.

١-أقوال أهل العلم في معنى الربّ:

« والربّ- كما يقول ابن منظور- هو الله عزَّ وجل، وهو ربّ كلّ شيء ومالكه، وله الربوبية في جميع الخلق، لا شريك له، وهو ربّ الأرباب، ومالك الملوك والأملاك » [لسان العرب: ١/ ١٠٩٨].

وقال ابن الأثير: « يطلق الربّ في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: ربّ كذا، وقد جاء في الشعر مطلقاً على غير الله، وليس بالكثير » [النهاية : ٢/ ١٧٩].

« والربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام، يقال: ربّه ورباه، وربَّبه، وقيل: لأن يربني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربني رجل من هوازن. ولا يقال الرب مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قولهم: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦].

ويقال: ربّ الفَرَس، وربّ الدار، وعلى ذلك قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢] وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] [المفردات للراغب: ١٨٤].

وقال ابن العربي: « الربّ: الذي ينقل الأشياء من حال إلى حال، ويبدلهم بصفة بعد صفة في طريق النمو والإنشاء » [أحكام القرآن: ٢/ ٨٠٢].

وهذه التفسيرات متنوعة، ويصدق بعضها بعضاً، وليست مختلفة ينقض بعضها بعضاً.

٢- امتداح الله نفسه بأنه رب العالمين:

والرب من أعظم الممادح التي امتدح الله بها نفسه، ومن ذلك امتداحه نفسه بأنه ربّ العالمين، والعالمون جمع عالم، وكل جنس في الكون عالم، كالملائكة، والإنس، والجن، والحيوان، والنبات، والجماد، والله سبحانه ربّ العوالم كلها، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وقال حاكيا مقالة إبراهيم: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ

﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] وقال: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] والنصوص المصرحة بأنه رب العالمين كثيرة جداً.

وهو سبحانه رب كل شيء: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤].

٣- مدحه نفسه بأنه رب العرش:

وامتدح الله سبحانه نفسه بأنه رب العرش، والعرش أعظم مخلوقاته، قال: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢] وقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦].

٤- مدحه نفسه بأنه رب السموات والأرض:

وامتدح نفسه بأنه رب السموات والأرض ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال: ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]. وقال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦ وقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢].

٥- مدحه نفسه بأنه ربنا ورب آبائنا الأولين:

وامتدح الله نفسه تبارك وتعالى بأنه ربنا ورب آبائنا كما قال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الدخان: ٨].

٦- مدحه نفسه- سبحانه- بأنه رب المشرق والمغرب:

وهو أيضاً ربّ المشرق والمغرب ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].وقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الشعراء: ٢٨].

كما امتدح نفسه بأنه ربّ المشرقين وربّ المغربين ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٧ – ١٨].

وامتدح الله نفسه بأنه ربّ المشارق والمغارب وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠].

٧- دعاء الله وتمجيده باسمه الرب:

ومن نظر في كتاب الله وجد مدى تعظيم الله وتمجيده باسمه الرب سبحانه ودعائه بهذا الاسم.

فمن تمجيده بهذا الاسم قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥] وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢] وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]. وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. وقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[المزمل: ٨].

ومن دعائه باسمه تبارك وتعالى الرب دعاء إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة: ١٢٦] ودعائه أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٠].

ودعاء موسى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾[الأعراف: ١٥١] ودعائه أيضاً ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾[الأعراف: ١٥٥].

ودعاء نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾[هود: ٤٥] ودعاء يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[يوسف: ٣٣]. ودعائه: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: ١٠١].

ودعاء امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: ٣٥] ودعاء زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾[مريم: ٤].

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الله باسم الرب وتمجيده وتعظيمه به:

كان الرسول ﷺ يدعو الله كثيراً باسم الرب، ويمجده ويعظمه به، فمن ذلك ما أورده الترمذي في سننه: « ألا أدلك على سيد الاستغفار، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت... » [صحيح الترمذي: ٣٦٣٣].

وكان الرسول ﷺ إذا أخذ مضجعه يقول: « اللهم ربّ السموات، وربّ الأرضين، وربّنا وربّ كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن... » [صحيح الترمذي: ٢٦٤٠].

وكان إذا افتتح صلاته من الليل قال: « اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض... » [صحيح الترمذي: ٣٦٦٠].

وكان ﷺ يدعو عند الكرب بقوله: « لا إله إلا الله الحليم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم » [صحيح الترمذي: ٢٦٧٦].

والنصوص الواردة في ذلك كثيرة.



١- أسماء الله الدالة على ملكه:

من الأجوبة المعرفة بالله أن يقال: الله ملك السموات والأرض، ومالكهما، وملك يوم الدين ومالكه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١-٢] وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

ومن أسمائه التي سمى بها نفسه في كتابه المليك، قال تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

٢- السبب في اختصاصه بالملك في يوم القيامة:

وقد خص الله - تبارك وتعالى- نفسه بأنّه ملكُ يوم الدين، ومالكُ يوم الدين، فقد ورد في سورة الفاتحة قوله عزَّ وجل ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي قراءَة أخرى

صحيحة ﴿ مالكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وبأيٍّ من هاتين القراءَتين قرأ القارئ فهو مصيب.

وإنما خَصّ الله نفسه بأنه ملكُ يوم الدين ومالكُ يوم الدين لأمرين:

الأول: أن الله يبدل الأرض في ذلك اليوم غير الأرض والسموات غير السموات، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فحتى ينبه الله العباد على أن السموات والأرض له فهو سبحانه مالكهما.

والثاني: أن البشر لهم شبهةُ ملكٍ في الحياة الدنيا، فهم يملكون الضياع والقصور والبساتين والذهب والفضة، ولكنهم بين خيارين إما أن يزول عنهم ما يملكونه في الدنيا، وإما أن يزولوا عنه، ويخلّفوه وراءَهم، فهو ملك زائل، وعارية مسترجعة، ولكنهم في يوم الدين يومِ الحساب والجزاء لا يملكون شيئاً، فالناس في ذلك اليوم يحشرون حفاة عراة غرلاً بهماً، كما قال عزَّ وجل: ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾[الأنعام: ٧٣] وقال: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وعندما يُفني الله يوم القيامة الأحياءَ ويبيدهم، يأخذ سمواتِهِ بيمينه، والأرضَ بيده الأخرى، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله- عزَّ وجلَّ- السمواتِ يوم القيامة، ثمَّ يأخذهن بيده اليمنى، ثمَّ يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثمَّ يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون » [مسلم: ٢٧٨٨].

وفي يوم القيامة ينادي الرب سبحانه ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيبه أحد، فيجيب الحقُّ نفسه بنفسه ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٧].

٣- تمجيد العباد ربهم بصفة الملك:

وعلى العباد أن يمجدوا ربهم كما علّمهم أن يمجدوه به: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

فالله يمجد نفسه في هذه الآية تعليماً لعباده أن يمجدوه بذلك، مقرين بأنه تبارك وتعالى هو المتصرف في جميع مخلوقاته كما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦].

وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

٤- الله المستحق للعبادة لأنه الملك وما يعبد من دونه آلهة باطلة لأنها لا تملك:

ولما كان الحق- تبارك وتعالى- هو الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، والمتصرف في كل شيء، فإنه وحده المستحق للعبادة دون سواه، والآلهة التي تعبد من دون الله مخلوقة مملوكة مربوبة، لا تملك من دون الله شيئا، وألوهيتها باطلة، وعبادتها ظلم وضلال ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[النحل: ٧٣].

وقد عبد بنو إسرائيل العجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب، وقد بين الحق- تبارك وتعالى- بطلان ألوهيته بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[طه: ٨٩].

وقال تعالى في سياق تقرير ألوهيته وبطلان ألوهية ما يعبد من دونه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ

يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۞ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ١-٣] .

وقال أيضا سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

٥- أخنع اسم عند الله من تسمى ملك الملوك:

وحُق لمن علم أن الله سبحانه هو الملك على الحقيقة أن يتواضع لعظمة الله وملكوته سبحانه، ولذا فإن الله يبغض من تسمى بملك الملوك، أو حاكم الحكام، أو سلطان السلاطين، فإن الذي يستحق ذلك هو الله وحده، وقد ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أخنَى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملكَ الأملاك » [البخاري: ٦٢٠٥، ٦٢٠٦].

وفي رواية عند مسلم: « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملكَ الأملاك لا مالك إلا الله».

وفي رواية: « أغيظُ رجلٍ على الله يوم القيامة، وأخبثُهُ وأغيظُه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملكَ إلا الله » [مسلم: ٢١٤٣].

٦- تمجيد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ربه باسمه الملك:

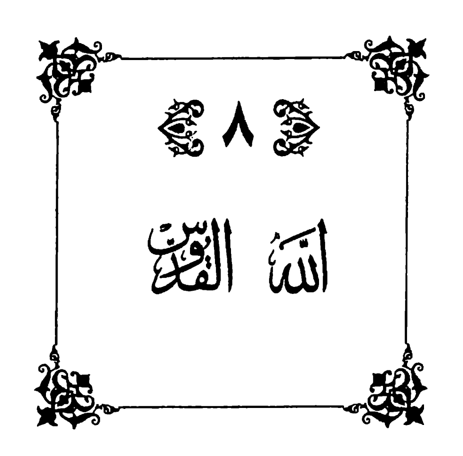
كان الرسول ﷺ يمجد ربَّه تبارك باسمه الملك، كما يمجده بالاعتراف بأن الملك له، أو أنه صاحب الملكوت، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان النبيُّ إذا قامَ اللَّيلِ يَتَهَجَّدُ قال: « اللَّهمَّ ربَّنا لك الحمدُ، أنْتَ قَيِّمُ السمواتِ والأرضِ ومَنَ فيهن، ولك الحمدُ أنت نورُ السمواتِ

والأَرض ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت ملك السمواتِ والأرضِ ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤك حَقٌّ، وقَولك حَقٌّ،والجَنّة حقّ، والنار حقّ، والنبيون حقّ، ومحمد حقّ، والساعة حقّ، اللَّهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمَنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبكَ خَاصَمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قَدَّمتُ وما أخَّرْتُ، وما أسررتُ وما أَعلَنتُ ».

وفي روايةٍ: « وما أنتَ أعْلمُ بِهِ مِني، أنت المقَدِّمُ، وأَنت المؤخِّرُ، لا إله إلا أنت، ولا إله غَيرُكَ »- وفي روايةٍ: «اللَّهمَّ لك الحمدُ، رَبَّ السمواتِ والأرضِ ومن فِيهنَّ». [جامع الأصول: ٤/ ٢٣٣].

وروى الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ: كان إذا قام في الصلاة قال: « وَجَّهْتُ وَجْهي لِلَّذي فَطرَ السَّماواتِ والأَرض حَنيفاً، ومَا أَنا مِنَ المُشْركينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَمَاتي لله رَبِّ العَالِمينَ، لا شَريكَ لَهُ، وَبِذلِكَ أَمِرْتُ، وأَنا مِنَ المُسْلِمينَ. اللَّهُمَّ أَنتَ المَلِكُ لا إِلهَ إلاَّ أَنتَ، أَنتَ رَبِّي وأَنا عَبْدُكَ، ظلمْتُ نَفْسي واعْتَرَفْتُ بِذَنْبي فَاغفِرْ لي ذُنُوبي جَميعاً، إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنتّ، واهِدني لأَحْسَنِ الأَخلاق لا يَهْدي لأَحسَنِها إلاَّ أَنتَ، واصْرف عَنِّي سَيِّئها لا يَصْرِف عَنِّي سَيِّئها إلا أَنتَ، آمَنْتُ بِكَ تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ، أَستَغفِرُكَ وأَتوبُ إليكَ ».[صحيح سنن الترمذي: ٣٦٦١].

ومما مجد الرسول ﷺ به ربه ما رواه مسلم عن عبد الله قال: كان النبي ﷺ إذا أمسى قال: « أَمسَيْنَا وأَمَسى المُلْكُ لله، والحَمْدُ لله لا إله إلاَّ الله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ- أَراهُ قال فيهنَّ-: لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيء قَديرٌ، ربِّ أَسأَلُكَ خَيْرَ مَا في هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، ربّ وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، ربّ وأعوذ بك من الكسل، وسوء الكِبَرِ، أَعوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ في النَّار وَعَذابٍ في القَبْرِ، وإذا أَصبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيضاً، أَصبَحْنا وأَصبَحَ المُلْكُ لله والحَمْدُ لله».[مسلم: ٢٧٢٣].



١- تعريف القدوس:

من أسماء الله - تبارك وتعالى- التي تعرف بها إلى عباده: القدوس قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]. وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

والقدوس: المبارك المطهر من النقائص والعيوب، المنزَّهُ عن الصاحبة والأولاد والأنداد، الممدوحُ بالفضائل والمحاسن، الموصوف بصفات الكمال.

« والقدس: الطهارة، ومنه سمي بيت المقدس، ومعناه بَيْتُ المكان الذي يُتَطهَّر فيه من الذنوب، وقيل للجنة: حظيرة القدس، لطهارتها من آفات الدنيا » [شأن الدعاء للخطابي: ص ٤٠].

وقيل للشريعة: حظيرة القدس، لأن القدس يستفاد منها. [عمدة الحفاظ: ٣/ ٣٣٣].

وسمي الله جبريل: روحَ القدس ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وذلك لأنه خلق من طهارة محضة، فهو ملك نوراني، ولأنه ينزل من الله بالقدس، أي بما يطهر نفوس عباده من القرآن والحكمة. [عمدة الحفاظ: ٣/ ٣٣٢] وفي تسمية الله

نفسه بالقدوس دعوة منه العباد إلى تقديسه.

٢- الكون كله معبد كل من فيه يقدس الله:

وتسبيح الله تبارك وتعالى من أعظم ما يعبد الله به، وهو عبادة أهل السماء من الملائكة، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وقال فيهم أيضاً: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾[الأعراف: ٢٠٦].

والكون كله معبد تتجاوب جنباته بالتسبيح لخالقه، فما من شيء في الكون إلا وهو يسبح خالقه، إلا كفرة الجن والإنس، ففي فاتحة كل من سورتي الحشر والصف جاء قوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الحشر:١، الصف:١].

وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

ومن الذين أخبرنا ربنا أنهم يسبحون الله الطيور، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١].

وأعلمنا سبحانه أنه سخر الطير والجبال يسبحن بحمد الله مع نبيه داود ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

٣- أحق المخلوقات بالتسبيح بنو آدم:

وأحق من يتوجه إلى ربه بالتسبيح بنو آدم الذين فطرهم ربهم على عبادته وتقديسه، ومعرفته، وهم عندما ينظرون إلى هذا الكون نظر معتبر متفكر، فيبصرون ما فيه من دلائل تدل على ربوبيته ووحدانيته تنطلق ألسنتهم بالتسبيح لله الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١] ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

٤- اوقات التسبيح:

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يكثروا من تسبيحه حين الشروق والغروب، وآناء الليل وأطراف النهار، ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[الروم: ١٧] وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

٥- كيف نسبح ربنا عند ركوبنا السيارة أو الطائرة أو الدابة:

وقد علمنا ربنا تبارك وتعالى أن نسبحه عندما نركب ما سخره لنا من الإبل والخيول والحمير والبغال والسفن، ويدخل في ذلك اليوم الطائرات والسيارات وكل وسائل النقل الحديثة ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ

﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

وكان الرسول ﷺ، إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قرأ الآية السابقة﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤] ثم دعا دعاء السفر. [مسلم: ١٣٤٢].

٦- تقدسيه وتسبيحه سبحانه عن الصاحبة والولد والشريك:

يستحق الله التسبيح لذاته، فهو المستحق للتسبيح لكمال ذاته وكمال صفاته، كما يستحقه تنزيهاً له وتقديساً عما ينسبه إليه الظالمون من صفات النقص، كدعوى من نسب إليه الولد والبنات والشريك.

وتسبيحه عما نسبه إليه المجرمون من التعب بعد خلقه السماوات والأرض، وعما نسبوه إليه من الفقر، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] أي: من الولد والشريك والصاحبة، والصفات التي لا تليق بالله، كما قال في موضع آخر: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] وقال: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [النساء: ١٧١]. وقال: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ [يونس: ٦٨]. وقال: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١]. وقال:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[النحل:١].

لقد نزه الحق نفسه عما يصفه به الظالمون، وسَلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه، وحمد نفسه لاستحقاقه الحمد: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

ويلهم أهل الجنة التسبيح كما يلهمون النفس، ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

٧- ضلال من قدس الله بنفي صفاته:

ومما ينبغي التفطن إليه، أنه ليس من التقديس والتعظيم والتنزيه لله أن ننفي عن الله ما أثبته لنفسه من الصفات والأفعال، كالسمع والبصر والحياة والوجه واليد والقدرة، فإننا نكون بذلك مكذبين لله ورسوله، الواجب أن نثبت لله ما أثبته لنفسه من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] فقد نفى عن نفسه الشبيه والمثيل، وأثبت لنفسه السمع والبصر من غير تمثيل ولا تشبيه.

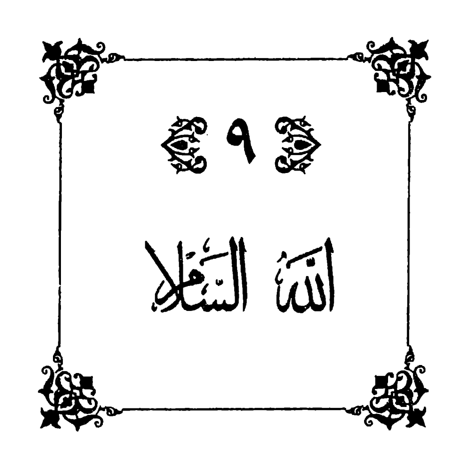
والعباد يقدسون أنفسهم بتقديسهم ربهم تبارك وتعالى، فالعباد الذين يؤمنون بالله ويوحدونه، ويسبحونه، ويقرؤون كتاب الله، يقدسون أنفسهم من الشرك والكفر والذنوب والمعاصي، ويزيلون ما يعلق بالقلوب من الران، وهذا هو الذي سماه القرآن بالتزكية، والذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩-١٠] وقد أقسم الله- سبحانه- في سورة الشمس سبعَة أقسام على هذه الحقيقة.

وقد بين الله لموسى عليه السلام الغاية من إرساله لفرعون، وهي أن يزكي نفسه بتقديس الله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧- ١٩].

والفلاح عند الله يتحقق للعباد بهذه التزكية الإيمانية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

إن العبد المؤمن بتقديسه ربه يجد للإيمان حلاوة في قلبه، ونوراً في صدره، وهذا هو النعيم الدنيوي الحقيقي الذي استصغر واجدوه كل نعيم دنيوي مهما عظم بجانبه.





١- معنى اسم السلام:

الله هو السلام، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[الحشر: ٢٣] وصح أن الرسول ﷺ كان إذا سلّم من صلاته قال: « اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[مسلم: ٥٩١].

والله- سبحانه وتعالى- السلام، لأنه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، السالم من النقائص والعيوب والآفات، ومن ذلك أنه سبحانه سَلِمَ أن يشبه أحدا من خلقه أو يشبهه، وأن يخلو من صفة من صفات الكمال، قال ابن القيم في نونيته:

وهـو السـلام علـى الحقيقـة سـالم مـن كـل تشـبيه ومـن نقصـان

والبشر لا يسلم أحد منهم من نقص، وكمال من كمل منهم كالرسل والأنبياء كمال نسبي، أي بالنسبة إلى غيرهم من البشر، أما النقص الذي يعرو البشر كلهم فهم غير سالمين منه، كحاجتهم إلى النوم والطعام والشراب، وقضائهم الحاجة ونحو ذلك.

والسلامة الحقيقة لا تكون لأحد من عباده إلا في الجنّة، إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وصحة بلا سقم، كما قال سبحانه: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام: ١٢٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس: ٢٥].

٢- الله- سبحانه - سلام من كل وجه:

ويرى ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله سبحانه هو السلام الحقّ من كل وجه، وبكل اعتبار، واستحقاق الله هذا الاسم أكملُ من استحقاق كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه الله به نفسه، ونزهه به رسوله ﷺ.

فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من الكفء والنظير، والسَّمِيِّ والمماثل، والسلام من الشريك، وإذا أنت نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالَها، فحياته سلام من الموت ومن السِّنَةِ والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم، فكلماته تمت صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه، وكل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو شافع عنده بدون إذنه.

وإلاهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه.

وكذلك عذاب الله وانتقامه وشدة بطشه، وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء في مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته وعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به.

وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب، وعطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض، ومنعه عدل محض، وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش، وعن حملته، وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة به إلى عرش، ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه، ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد.

وكماله- سبحانه- سلام من كل ما يتوهم من معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله، وغناه، وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبّه أو يتقوله معطل.

وموالاته- سبحانه- لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه، أو تملق أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. [بدائع الفوائد: ١/ ١٨٨ بشيء من الاختصار . طبعة دار الخير].

٣- كيف يحقق العباد السلام لأنفسهم:

أخبرنا رسولنا ﷺ أن السلام من الله سبحانه « اللهم أنت السلام، ومنك

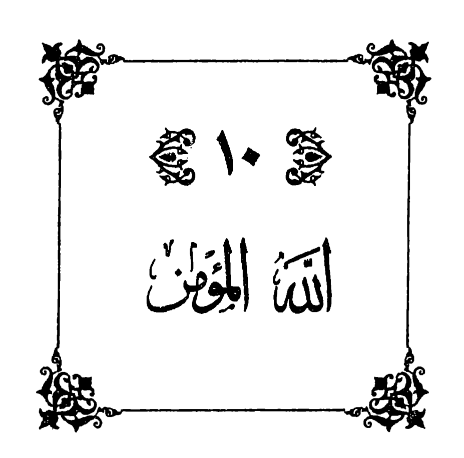
السلام »، فعلى العباد إذا أرادوا السلام أن يطلبوه من رب العباد.

أما الآخرة فالأمر واضح ليس فيه لبس، فلا سلام لكافر ولا مشرك، ولن يدخل دار السلام إلا مؤمن، وإذا دخل المؤمنون الجنة جاءهم السلام من عند الله ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

كما يأتيهم من الملائكة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

أما الدنيا، فإنها ليست بدار سلام، ولكنها دار ابتلاء واختبار، فنعيمها مشوب بالكدر، وراحتها مشوبة بالنكد، ولا يحصِّل العبد خيراتها إلا بالكد والعناء، ولكن المؤمن المهتدي العارف بربه المتبع منهجه ينال فيها نعيماً من نوع آخر، إذ يطمئن قلبه بذكر الله، ويجد للإيمان في قلبه حلاوة، ولمناجاة ربّه لذة، وقد كان الذين حققوا العبودية لله ربهم يظنون أنهم في نعيم مثل نعيم أهل الجنة، ويظنون أن الملوك لو علموا بما هم فيه من نعيم لقاتلوهم عليه بالسيوف.

وقد طالب الله عباده المؤمنين إقامة مجتمع إسلامي، يحكَّم فيه شرعه، وتقام فيه حدوده، يحكمه خليفة مسلم، يؤَمن فيه الناس على أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأعراضهم، إذا هم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا رمضان وحجوا البيت، ولم يرتكبوا شيئاً من حدود الله، وكلما كان المسلمون أكثر تطبيقاً لحكم الله كانوا أكثر تحصيلاً للسلام، ولكنهم لن يحصلوا ذلك إلا إذا أعدوا القوة لقمع أعدائهم وإرهابهم، وإلا حرموهم من السلام وأذلوهم وأهانوهم وسلبوهم إياه.



معنى المؤمن في لغة العرب:

عرفنا ربنا- تبارك وتعالى- وهو يحدثنا عن نفسه بأنّه المؤمن في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] والمؤمن مرجعه في لغة العرب إلى أحد معنيين:

المعنى الأول: المؤمن من الأمان:

« هذا هو المعنى الأول أن يكون من الأمان، كما تقول: آمَنَ فلان فلاناً، أي أعطاه أماناً ليسكن إليه، ويأمن، فكذلك أيضاً يقال: « الله المؤمن »، أي: يؤمن عباده المؤمنين، فلا يأمن إلا مَنْ آمنه » [اشتقاق أسماء الله للزجاجي: ٣٨٥].

والأمن ضد الخوف، فالأمن والخوف متضادان متقابلان أحدهما مطلوب مرغوب، والثاني مهروب منه متباعد عنه، كما قال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤] .

والإنسان في أصل خلقته وفطرته ضعيف، يحتاج إلى غيره ليجلب له الأمن، فهو يحتاج إلى من يؤمن له غذاءَه، ويجلب له دواءَه، ويحميه إذا أراده أعداؤُه وخصومه، وقد يكون الأعداء من الإنس أو الجان، وقد يكونون من السباع

المفترسة، وقد يخيفه الليل بظلامه، كما يخيفه طغيان الماء إذا جاءَت السيول، وفاضت الأنهار، واضطربت البحار، وقد تهب عليه الأعاصير، وتزلزل الزلازل بنيانه، وقد تخسف به الأرض، وقد ترجمه السماء بالشهب، وقد تأتيه الصواعق فتحرق زرعه، وتدمر بيته.

والناس فرادى وجماعات يسعون لتحصيل الأمن بمختلف الطرق، فيزرعون لتأمين الطعام، ويبنون القوة الحربية والعسكرية، ويقيمون القلاع والحصون، ليأمنوا شرّ أعدائهم، ويرهبونهم إذا ما أرادوا شرّاً بهم، ويقيمون المشافي ويصنعون العلاج ليأمنوا الأمراض، ويقيمون السدود لمواجهة طغيان الماء وفيضان الأنهار.

والضعفاء من الأفراد والدول قد يلجؤون إلى الأقوياء طلباً للأمن، وقد ينجحون في تحقيق الأمن أحياناً وقد يفشلون، فبعضهم في حال الفشل يرحلون من الديار، ويهجرون الأوطان لأن أرضهم أجدبت، أو غار ماؤها، أو احتلها الأعداء، أو توالت عليها الزلازل أو الأعاصير والفيضانات.

وتبقى مساحات واسعة لا يستطيع البشر مواجهتها بقدراتهم، قد يلجأ العباد فيها إلى الآلهة الباطلة من الأصنام والأوثان والنيران، فلا تغني تلك الآلهة عن العباد شيئا، فواهب الأمن في الحقيقة هو الله رب العالمين، وقد قال إبراهيم لقومه مخاطبا لهم في آلهتهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٢-٨٢].

هذا هو الله رب العالمين المؤمن، أي: واهب الأمن لعباده، فهو خالق الإنسان، وخالق الخلق، وخالق الكون، وهو المهيمن على كل شيء، ونواصي العباد بيده، بذكره تبارك وتعالى تطمئن القلوب ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

وهو القادر على أن يؤمنك إن آمنت وعملت الصالحات، واتبعت الرسول ﷺ مما توعد به المشركين من ألوان الهلاك، فالعذاب قد يأخذ المكذبين بياتاً وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

إن عذاب الله إذا وقع بقوم فلا يوجد من يؤمنهم منه، إذ لا طاقة للبشر أن يوجدوا وسائل الحماية ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦- ١٧].

إن الأمن الدنيوي بشتى أنواعه هو بيد الله وحده، واهب النعم، ودافع النقم، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهناك لون آخر من ألوان الأمن لا مطمع للإنسان بحال أن يحصله إلا إذا مَنَّ الله به عليه، ويكون عندما ينتهي من الإنسان عمره، ويحين أجله، وتأتيه ملائكة ربه تقبض روحه، وهذه الحال أشدّ ما يكون الإنسان محتاجا إلى الأمن فيها، ولذلك امتن الله على عبده ونبيه يحيى بالأمن في المواقف العظيمة التي يحتاج فيها إلى السلام، ومنها عند الموت ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] .

وكذلك الحال مع عيسى عليه السلام ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

ويؤمن الله عباده المؤمنين الصالحين في هذا الموقف، فينزل عليهم ملائكة تؤمنهم وتطمئن قلوبهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[فصلت: ٣٠-٣١] .

بخلاف الكفرة المجرمين الذين تتلقاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ليذوقوا العذاب والنكال.

والله المؤمن هو الذي يؤمن عباده في الموقف العظيم ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:١-٢].

ومن تأمين الله المؤمنين عند قيام الناس لرب العالمين أن يبعث ملائكته تستقبلهم ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٣].

ويُعطى المؤمنون من الأمن بمقدار إيمانهم وتوحيدهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢] والظلم الذي لم يلبسوا إيمانهم به الشرك كما صح تفسيره في الحديث الصحيح.

فالذي يؤمنه المؤمن سبحانه هو الموحد ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[النمل: ٨٩] وقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وقارن حال المؤمن بحال الكافر الذي حرم أمان ربه ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠].

المعنى الثاني: المصدق:

والمعنى الثاني للمؤمن- كما يقول الزجاجي- هو التصديق، فالإيمان في جميع

تعريفاته غير خارج عن معنى التصديق، وما قاربه، وتعلق به. [اشتقاق أسماء الله الحسنى: ٣٨٧-٣٨٨].

وتصديق الله على وجوه:

الأول: أنه يصدق نفسه بتوحيده وصفاته، كما قال عزّ من قائل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨] .

فقد شهد- سبحانه- لنفسه بالوحدانية، وهذه الشهادة أعظم شهادة، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾[الأنعام: ١٩] فليس فوق شهادة الله شهادة، فهي أعظم من شهادة ملائكته ورسله وأنبيائه ومخلوقاته له بالشهادة.

الثاني: تصديق الله رسله وأنبياءَه وأتباعهم، فمن ذلك ما أنزله الله من الآيات البينات التي دلت على صدقهم، ومن ذلك ما يظهره على أيدي المؤمنين، ومنها ما يريه أعداءَه من نصره المؤمنين، فقد يرى الكفرة الملائكة تقاتل مع المؤمنين، ومنها أن الكفرة قد يدعون الله أن ينصر الحق، فينصر الله المؤمنين، وغير ذلك مما يصدق به رسله وأتباعهم.

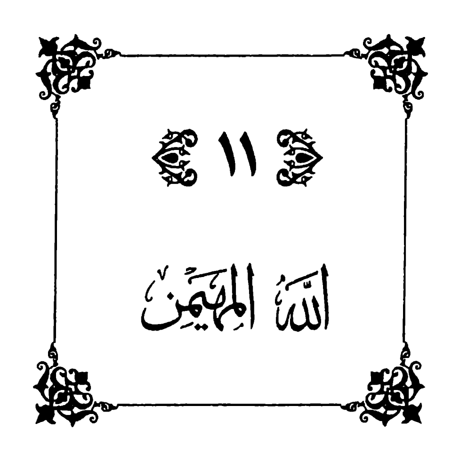
ومن ذلك إيقاع العذاب بالمجرمين والطغاة أعداء الرسل، فإن وقوع العذاب بهم تصديق من الله للرسل.

الثالث: تصديق الله عباده المؤمنين في يوم الدين، فالله يسأل الناس في يوم القيامة، ويصدق المؤمنين بإيمانهم، ويكذب الكفرة والمجرمين، فيُشْهِد عليهم أعضاءَهم، فتشهد.

قال القرطبي: « إن الله المصدق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب» ويقول ابن القيم: « المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون

بالدلائل التي دلّ بها على صدقهم، وقيل: إن المؤمن معناه المصدق، فهو المصدق لنفسه بكلامه، أي: علمه بأنه صادق، فالتصديق هنا هو العلم، وتصديقه لعباده هو علمه بأنهم صادقون، وهو أيضاً يصدق وعده، أي يحقق وعده كما وعده، وقد علمنا أن الإيمان معناه التصديق » [موسوعة الأسماء الحسنى: ١/ ٦٣].





عرفنا ربنا- تبارك وتعالى- وهو يحدثنا عن نفسه أنه المهيمن قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] .

ومعنى المهيمن القائم على خلقه في كل أمورهم وشؤونهم، فهو المطلع عليهم العالم بهم، الذي لا يخفى عليه أمر من أمورهم، ولا شأن من شؤونهم، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

ونقل ابن كثير عن ابن عباس وغير واحد من أهل العلم « أن المهيمن هو الشاهد على خلقه بأعمالهم، فهو بمعنى الرقيب عليهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] .

وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] [تفسير ابن كثير: ٨/ ٣٨٤٩].

وفسر الخطابي المهيمن: « بالشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل، وقيل: المهيمن: الرقيب على كل شيء، والحافظ له » [شأن الدعاء: ٤٦].

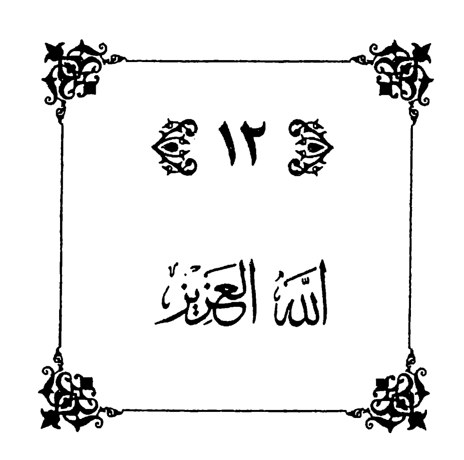
وأحسن من فسر المهيمن فيما اطلعت عليه الغزالي، وفيه يقول: « معناه في

حقّ الله عزّ وجلّ، أنّه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وإنّما قيامه عليهم باطّلاعه واستيلائه وحفظه، وكل مشرف على كنه الأمر مستولٍ عليه حافظ له، فهو مهيمن عليه، والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل. فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن. ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلاّ لله، عزّ وجلّ [المقصد الأسنى: ص ٥٥].

وقد وصف الله – تبارك وتعالى- كتابه وهو القرآن بأنه مهيمن على الكتب السابقة، قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالقرآن حاكم على الكتب من قبله، فقد جاء بأحسن ما فيها، ونسخ منها ما نسخه، وقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، فأظهر تحريفهم، وأظهر الحق الذي تضمنته الكتب السابقة.





أخبرنا الله تبارك وتعالى معرفاً بنفسه أنه العزيز، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٩] وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وأمرنا سبحانه أن نعلم ذلك ونستيقنه فقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٠٩]. وقال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

١-التعريف بالعزيز:

العزيز اسم من أسماء الله- تبارك وتعالى- يدلُّ على القوة والغلبة والرفعة والامتناع، كما قال الشاعر:

أنت العزيز ولا عزيز سواكا ... كل الخلائق يطلبون رضاكا

وقال ابن القيم [في نونيته: ٢/٢١٨]:

وهو العزيز فلن يرام جنابُه ... أنى يرامُ جنابُ ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

٢- العزة لله ولرسوله وللمؤمنون:

والعزة من صفات الله تبارك وتعالى، وقد دعا الله كل من يريد العزة أن يطلبها منه وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وإنما ينال العبد العزة بالإيمان بالله، والخضوع له، والاحتماء به، والتوكل عليه، ولذا فقد حكم تبارك وتعالى أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والذين يعتزون بغير الله جاهلون، فإنهم اعتزوا بسلطان زائل، وقوة فانية، ومَن الذي يقوم في وجه الله، ويصارعه، ويغالبه، لقد اعتز أقوام بالفراعنة والأكاسرة والقياصرة، كما قال السحرة حال كفرهم حين إلقاءِ عصيهم وحبالهم: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] فلم يغن عنهم فرعون من الله شيئاً، ولم يحقق لهم النصر والغلب، فقد غلبهم موسى في ميدان النزال، وقهرهم عندما لقفت عصاه عصيهم والحبال ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[الشعراء: ٤٥].

هنالك أعلنوا خضوعهم لرب العالمين، غير مبالين بفرعون، وكانوا به قبل لحظات معتزين ، ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء: ٤٦-٤٧].

وتحول اعتزاز السحرة من الاعتزاز بفرعون إلى الاعتزاز بالله غير هيابين ولا وجلين، وهكذا المؤمن عندما يملأ الإيمان قلبه، ويوقن بعزة الله وقوته، لا يرهبه تهديد البشر ووعيدهم، فعندما قال لهم فرعون متهدداً متوعداً ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. أجابوا بثبات الواثق المطمئن المعتز بالله وعظمته وقوته ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥٠-٥١].

٣- الذين يوالون أعداء الله لن ينالوا العزة:

وقد نبه الله المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين على ضلال موقفهم، ذلك أن العزة كلَّها لله، وهم بتوليهم لهم لن ينالوا العزة والرفعة والمنعة التي يطلبونها ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٣٨-١٣٩].

إن المنافقين قوم ادعوا الإيمان في الظاهر، ولكن قلوبهم تأبى الإيمان وترفضه، ومن هنا يقع التناقض بين باطن كافر، وظاهر يزعم الإيمان، وهؤلاء أدعياء الإيمان يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وكيف ينسجم ادعاؤهم الإيمان وهم يوالون أعداء الله وأعداء رسوله، ولا شكَّ أن هؤلاء لم يقدروا الله حق قدره، ولم يعرفوه حق معرفته، وإلا لهان في نفوسهم هؤلاء الذين يوالونهم، فإنهم مهما بلغت قوتهم، وكثر أتباعهم، ليسوا بشيء بجانب عزة الله وقوته وجبروته وقهره، إن الذي يعلم ذلك حق العلم يجد هؤلاء الزعماء والقيادات الضالة ذليلة حقيرة، فابتغاء العزة عندها ينبئ عن خطل في الرأي، وضعف في العقل: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٣٩].

وعلى القيادات والزعامات في عالمنا الإسلامي التي تبهرها قوة الكفر اليوم أن تفيء إلى الله مصدر العزة والقوة والغلب، حتى نخلص أمتنا من هذا الذل الذي نرزح تحته، فبسبب اعتزازنا بغير الله، وموالاة الكفار أدال الله علينا أهل الكفر.

٤- لا تحزن إن الله معنا:

وعلى المسلم أن لا يهون في ميدان الصراع، فالكفرة الأعداء يحاولون إذلال المسلم بكل ألوان الإذلال، ومن ذلك التهديد والوعيد، والشتم والسباب، والهمز واللمز، وعلى المسلم أن لا يحزنه ذلك كلُّه، ويعلم يقيناً أن الله الذي يلجأ إليه،

ويتوكل عليه قادر على إذلالهم وقهرهم، فالعزة له وحده سبحانه، قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ، مواسياً له، فيما يسمعه إياه الكفار من فاحش القول والتهديد والوعيد: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

وإيمان العبد بعزة الله تبارك وتعالى يثبّت في قلبه أن النصر والغلبة من عند الله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠] وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣] وقد حقق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده.

٥- اقتران عزة الله بحكمته ورحمته:

وقد اقترن اسم العزيز في كتاب الله باسم الحكيم كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وقال مخاطبا موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[النمل: ٩]. والنصوص في ذلك كثيرة، وإنما قرن الحق بينهما للدَّلالة على أن عزته- تبارك وتعالى- وقوته وامتناعه محكومةٌ بحكمته وعدله.

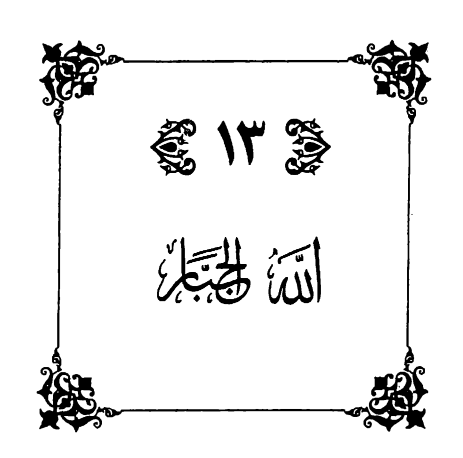
وقرن الحق تبارك وتعالى عزته برحمته في بعض المواضع، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

وقد ورد هذا النص في ثمانية مواضع في سورة الشعراء، وورد الاقتران أيضاً في قوله: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]. وقال: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥].

وإنما قرن بينهما ليدلنا على أنه سبحانه رحيم في عزته، وإلا فلو خلت عزته من الرحمة لكان ذلك نقصاً.

وفي الختام أقول كما علمنا الله أن نقول مسبحين له ومقدسين: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].





الجبار اسم من الأسماء الحسنى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

١- الجبار الجابر:

والجبار قد يكون من جبر، « وأصل جبر في الكلام إنما وضع للنماء والعلو، يقال: جبر الله العظم: إذا نماه ». [تفسير أسماء الله الحسنى: ٣٤]، وعلى ذلك فالله تبارك وتعالى جابر كسر الضعفاء والفقراء والمظلومين والمكروبين والمرضى، يُغْني الفقراء، ويفتح لهم أبواب الرزق، ويرفع الظلم عن المظلومين، والكرب عن المكروبين، ويشفي المرضى، ويزيل بلاءَهم ومصائبهم.

٢- الجبار الذي دانت له الخلائق:

وقد يكون الجبار من « الإجبار »، وهو القهر والإكراه »[لسان العرب: ١/ ٣٩٥] « فالله عزّ وجل الجبار ذو الجبريّة والكبرياء والعظمة » [اشتقاق أسماء الله: ٢٤٠].

وعرف الغزالي الجبار بقوله: « هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنفذ فيه مشيئه أحد ، الذي لا يخرج أحد من قبضته، وتقصر الأيدي

دون حمى حضرته، فالجبار المطلق هو الله سبحانه وتعالى، فإنه يجبر كل أحد، ولا يجبره أحد » [المقصد الأسنى: ٥٧].

وبجبروته سبحانه دانت له الخلائق، فأمره الكوني يُكوِّنُ الأشياء على ما أراد، فإذا أمر الأمر كان كما أراد ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقد دانت له – سبحانه وتعالى- الخلائق، واستسلمت له السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

٣- دلالة الله العباد على طريق الإيمان والكفر:

هذا الإجبار الذي سبق ذكره في أمر الله الكوني القدري، أما في أمره الشرعي الديني، فقد شرع لهم ما رضيه لهم، ولم يجبرهم على فعله، بل أمرهم ونهاهم، فمن أطاع فله الجنّة، ومن أبى فله النار: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٧- ١٠].

٤- تمجيد الرسول — صلى الله عليه وسلم - ذا الجبروت:

وقد كان الرسول ﷺ يثنى على ربه في ركوعه في الصلاة بقوله: « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » [صحيح سنن أبي داود: ٨٧٣].

وذو الجبروت: هو الجبار، صاحب الجبروت، على النحو الذي تحدثنا عنه فيما سبق.

٥- الجبار العالي على خلقه:

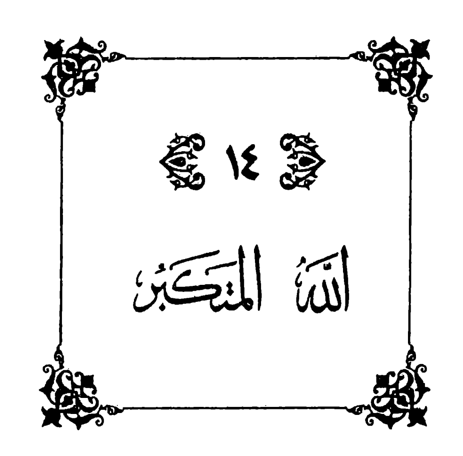
ويأتي الجبار في لغة العرب « بمعنى العلو، يقال: نخلة جبارة، إذا فاتت اليد، وفواتها اليد علو وزيادة، والله تعالى عال على خلقه بصفاته، وآياته القاهرة، وهو المستحق للعلو والجبروت تعالى » [تفسير أسماء الله الحسنى: ٣٥].

وقد جاءت النصوص كثيرة وافرة دالة على علو الله على خلقه، فهو سبحانه مستو على عرشه بائن من خلقه، فهو علو الذات وعلو الصفات، وفي أسمائه تبارك وتعالى: العلي الأعلى المتعالي، والقلوب فطرت على الإقرار بهذه الصفة.

وقد أشار ابن القيم في نونيته إلى المعاني الثلاثة التي حواها اسمه الجبار فقال:

وكـــذلك الجـــبر مـــن أوصـــافه ... والجـــبر في أوصـــافه قســـمان
جبر الضعيف وكـل قلـب قـد غـدا ... ذا كســـرة فـــالجبر منـــه دان
والثـاني جـبر القهـر بـالعز الـذي ... لا ينبغـــي لســـواه مـــن إنســـان
ولـــه مســـمى ثالـــث وهـــو العلـــو ... فلـــيس يـــدنو منـــه مـــن إنســـان
مـــن قـــولهم جبـــارة للنخلـــة الـــ ... ـــعليا الـــتي فاتـــت لكـــل بنـــان





١٤
الله المتكبر

عرفنا الله تبارك وتعالى أنه المتكبر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والمتكبر العظيم ذو الكبرياء المتعالي عن صفات خلقه، المتكبر على عتاتهم، والكبرياء العظمة والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات، وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله. [لسان العرب: ٣/ ٢١٠].

وقال أبو سليمان الخطابي: « المتكبر: المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فيقصمهم، والتاء في المتكبر تاء التفرد، والتخصص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف » [شأن الدعاء: ٤٨].

ويفقه مما سبق أن اسم الله « المتكبر » يعني ما يأتي:

أولا: الله- سبحانه وتعالى- هو الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، لذا فإنه يستحق وحده الاتصاف بصفة الكبر والعظمة، ولذلك كان واحداً لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص] ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[الإسراء: ١١١].

ومن أجل ذلك استحق سبحانه الكبرياء، وهي العظمة في السموات والأرض، وليس لأحد أن يتصف بهذه الصفة، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

ثانياً: صفاته تعالى لا تشبه صفات خلقه، إذ هي صفات كمال وجلال، ولا بدَّ أن يتصف خلقه بصفات نقص مهما عظمت صفاتهم، ولذا فإن الله يتكبر ويتعالى ويتقدس سبحانه عن الاتصاف، بالعجز والقصور والنقص التي اتصف بها الخلق كالجهل والعجز والضعف والنوم والفقر والتعب ونحوها من الصفات التي يتصف العباد بها، ومن هنا وجب على العبد أن يستحضر دائماً وأبداً أن صفات الله التي وصف الله نفسه بها صفات كمال، ولا يقذر عقله وقلبه بأن صفاته توهم التشبيه فيبادر إلى نفيها، ليخلص من قذر التشبيه، بل عليه أن ينفي التشبيه بمجرد ذكر صفاته، ويعتقد أن صفاته تناسب كماله وجلاله، فكما أنه سبحانه كامل في ذاته ووجوده، فكذلك هو كامل في صفاته سبحانه.

ثالثا: لا يجوز لغير الله أن يكون متكبراً، لأن الله وحده هو الذي يصح أن يتصف بصفة الكبر، ويتسمى باسم المتكبر، فلا يجوز لغيره من المخلوقات الاتصاف بهذه الصفة، ولا التسمي بهذا الاسم، لأمور:

١- نهى الله عباده عن ذلك، ففي الحديث القُدْسي، يقول الله عزَّ وجل: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما أدخلته النار».

وقد أعلمنا الله في كتابه أن مثوى المتكبرين النار: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] وبئس المثوى مثواهم، وبئس المصير مصيرهم: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] ويوم القيامة يقول الحق سبحانه للمتكبرين: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٢- هذه الأسماء مختصة به دون غيره كما دل على ذلك الحديث السابق، وكما دل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

ووجه اختصاصه بهذه الصفات أنه وحده مالك الملك، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، وهو وحده الذي له الخلق والأمر، لا راد لقضائه، ولا مبطل لحكمه وقضائه، أما العباد فهم مربوبون مقهورون، وملكهم عرض زائل، وعارية مسترجعة.

٣- دل على أنها صفات ذم تنزيه الله عباده الصالحين عن الاتصاف بالكبر والجبروت، فمن ذلك تنزيهه نبيه يحيى وعيسى عليهما السلام عن الاتصاف بصفة الجبروت، فقال في حق يحيى ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] وقال عيسى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وذم الله أقواما ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]. وحَكَمَ الله على الجبارين بالخيبة والخسران ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

٤-الكبر والجبروت والقهر تفسد نفوس العباد وتدسيها، فيزول عن هؤلاء الصلاح والعدل والخير والمعروف، ولذلك فإن الله يطبع على قلوب الجبارين، فيغشّيها الران ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر: ٣٥].

أما الله فإنه مع جبروته وكبريائه وقهره، متصف بالرحمة والعدل والعفو والغفران.

وقد أخبرنا الحق- تبارك وتعالى- بآثار الكبر الذي اتصف به أراذل الخلق، فقد صدهم الكبر عن اتباع الحق، والإيمان برب العالمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه بكبريائه:

صح أن الرسول ﷺ كان يمجد ربه في ركوعه في الصلاة قائلا: « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » [النسائي: ١٠٤٩. وإسناده صحيح].





١-أسماء الله الدالة على الخلق والإيجاد:

حدثنا الله كثيراً في كتابه أنه هو الذي أوجد المخلوقات من عدم، فإنه خلقها وفطرها على غير مثال سابق، وقد سمّى نفسه- تبارك وتعالى- بعدة أسماء تدل على هذا المعنى، منها: الخالق البارئ، الخلاق، أحسن الخالقين، الفاطر، بديع السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

٢- معنى الخالق البارئ:

الخالق البارئ الموجد لمخلوقاته من العدم على غير مثال سابق، إلا أن للبارئ « اختصاص بخلق الحيوان، وقلما يستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النَّسْمه، وخلق السموات والأرض » [جامع الأصول: ٤/ ١٧٧].

وقال تعالى مخاطباً عَبَدَة العجل من بني إسرائيل: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

٣- تعريف الخلاق:

والخّلاق: صيغة مبالغة تدل على كثرة خلق الله وإيجاده ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وسيأتي الحديث عن اسمه البديع، الذي أبدع الخلق من العدم، على غير مثال سبق.

٤-تعريف الفاطر:

والفاطر: الخالق، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]. وقال: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، أي: خلقهن.

٥- حديث الله عن مخلوقاته:

الله هو خالق السموات والأرض، وقد ورد النص على هذا كثيراً في كتاب الله كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[الأعراف: ٥٤].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. والآيات الناصة على ذلك كثيرة.

وحدثنا ربنا عن خلقه مخلوقاتٍ بعينها، فمن ذلك خلقُه الملائكة ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] ومنه خلقه الجن ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر: ٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومنه خلقه الليل والنهار، والشمس والقمر ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن

﴿كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ومن ذلك خلقهُ الدواب والأنعام ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] وقد دلنا الله على أنه خلق الخلق أزواجاً ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] وقال: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

وخَلَقَ اللهُ الموت والحياة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقد أكثر القرآن الحديث عن خلق الله للإنسان، وفصَّل في ذلك تفصيلاً كثيراً، ففي مطلع سورة الرحمن امتدح الله نفسه، وأثنى عليها بخلقه الإنسان، وتعليمه البيان ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن: ١-٤].

وقد أعلمنا ربنا أنه خلقنا بخلق أبينا آدم من تراب ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]. ثم أصبح التراب طيناً، فصح أن يقال: إنه خلقنا من طين ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]. ثم تحول الطين إلى صلصال، فصح أن يقال: إنه خلقنا من صلصال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] والصلصال: التراب اليابس الذي يشبه الفخار ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] .

والحمأ المسنون: الطين المنتن الأملس الصقيل.

ثم شَكَّلَه الله تبارك وتعالى على الصفة التي خلقه عليها، ثمَّ نفخ فيه من روحه فَسَرتْ فيه الحياة، فأصبح حيّاً سميعاً بصيراً ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ

ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧-٩].

وخلق من آدم عليه السلام زوجه حواء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [النساء: ١] ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [الزمر: ٦].

وخلق بقية الخلق من آدم وحواء ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ﴾ [الزمر: ٦].

وقد خلقنا ربنا في بطون أمهاتنا أطواراً ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ [نوح: ١٣-١٤] والأطوار تَكُونُ في داخل الرحم، وتكون بعد الخروج منه، فأطوار الرحم هي المذكورة في قوله: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ * ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

أما الأطوار التي يمر بها الإنسان بعد خروجه من الرحم فهي المذكورة في قوله: ﴿ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

وقد خلقنا الله في بداية الخلق ضعفاء، ثم تتنامى قوانا حتى نصبح أشدّاء، ثم نصيرُ إلى الضعف والاضمحلال والفناء ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

ويخرجنا الله إلى هذه الحياة لا نعلم شيئاً، ثم بوساطة ما وهبنا خالقنا من السمع والأبصار والعقول نكتسب العلوم، ونعرف المجهول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ

بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد خلقنا الله في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

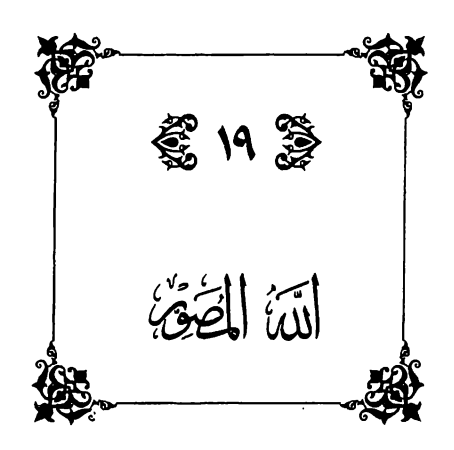
وصورنا ربنا فأحسن صورنا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

٦- الحكمة من الخلق والإيجاد:

وهذا الكون الذي خلقه الله معبد كبير تتجاوب أرجاؤه بالتسبيح لخالقه ومبدعه، وإذا نظر فيه العباد نظر معتبر متفكر متدبر امتلأت قلوبهم إيمانا ويقينا، وأخلصوا دينهم لمولاهم الحق، لأنهم بذلك يعلمون أن الله خلق هذا الخلق لغاية عظيمة، وهي أن يكون داراً لبني آدم، وسخَّره لهم كي يعبدوه وحده لا شريك له.

وتأمل في هذه الآيات العظيمة التي أفاضت في ذكر الخلق، وتوضيح الغاية منه، والدلالة على الحكمة من خلق ما تموج به الأرض من أحياء، والغاية من إنزال الماء من السماء، والحكمة من وراء خلق الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وتسخير البحار، والسفن التي تجري في جنباتها... كل ذلك وغيره مما حدثنا الله به خلقه وسخَّره من أجلنا كي نتعرَّف من خلاله على ربنا، وبه تصلح حياتنا، ونستعين به على عبادة الإله الواحد الأحد، وبه ندرك نعمة الله فنشكره، ونحمده، ونثني عليه، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ

وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ * وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ * أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ * وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ * أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ * إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل: ٣-٢٣].



عرفنا ربنا وهو يحدثنا عن نفسه أنه المصور، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

١- معنى المصور:

« والمصور اسم الفاعل من صور يصور، فهو المصور، إذا فعل الصورة، والمصدر التصوير، والصورة شخص الشيء وهيئته من طول وعرض، وكبر وصغر، وما اتصل بذلك وتعلق به مما يكمله، فيرى مصوَّراً، فالله عز وجل مصدر الصورة وخالقها » [اشتقاق أسماء الله الحسنى: ٤٢٤].

وقال كل من الخطابي وابن الأثير: « المصور الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها، ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل » [شأن الدعاء: ٥١ وجامع الأصول: ٤/ ١٧٧].

وقال الشيخ حافظ حكمي: « المصور الممثل للمخلوقات بالعلامات التي تتميز بعضها عن بعض، أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها » [معارج القبول: ١/ ١٣٢].

٢- منة الله على عباده بحسن صورهم:

وقد امتنَّ الله علينا بأنه صورنا فأحسن صورنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

وتصويرنا الذي امتن الله علينا به يتمُّ على وجهين، الأول: تصوير أبينا آدم عليه السلام، فقد خلقه الله تبارك وتعالى بيده، وصوره، ثم نفخ فيه الروح، وأسجد له ملائكته ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ﴾[الأعراف: ١١].

والتصوير الثاني لبني آدم، وهو الذي يتم في الأرحام ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١١].

٣- تصوير الله خلقه إبداع وإعجاز:

وتصوير الله خلقه إعجاز وأي إعجاز، فلو نظرت إلى نوع واحد من أنواع المخلوقات وهو الإنسان فضلاً عن الجان والملائكة وأنواع الحيوان وغيرها لوجدت كل إنسان يمتاز بصورة لا يشابهه فيها غيره، فعلى الأرض اليوم ما يزيد على خمسة مليارات من البشر، كل واحد منهم تغاير صورته صورة غيره في الملامح والسمات، وفي الألوان والهيئات، وكم من البشر ولدوا فوق هذه الأرض فيما مضى، وكم سيخلق من البشر فيما سيأتي إلى يوم الدين، كل إنسان له صورته التي خلقه الله عليها، وعند التدقيق في الخلق والتكوين تتضح الفوارق أكثر وأكثر، فهي تختلف في بصمة الأصبع، وفي الجينات الوراثية، وما الله به عليم، إنه سبحانه الخالق البارئ المبدع المصور فتبارك الله رب العالمين.

٤- أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون:

وصفة التصوير كصفة الجبروت والعظمة لا يجوز للبشر أن يتصفوا بها، ويعتدوا عليها، وقد حذر الرسول ﷺ من ذلك في أحاديث كثيرة منها:

« إن أشدَّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون » [البخاري: ٥٩٥، ومسلم: ٢١٠٩] وفي الحديث الآخر: « إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم » [البخاري ٧٥٥٨ ، مسلم: ٢١٠٨].

والممنوع هو تصوير الأحياء من الإنسان والحيوان، أما النبات والجماد فلا بأس بتصويره إن لم يشغل عن طاعة الله ».





١-أسماء الله التي تتعلق بالمغفرة:

أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- أنه غافر الذنوب وغفارها وغفورها ، كما قال عزّ وجل: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]. وقال فيما حكاه عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح: ١٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

٢- معنى المغفرة:

والغفران: ستر الذنوب وإزالتها، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]. أي: استرْها وأزلْها وامحها، وقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾[نوح: ١٠] أي: اطْلبوا غفرانه وعفوه.

والغَفّار: أبلغ من الغافر، والغفور أبلغ من الغفَّار، والغفار والغفور: التامُّ المغفرة الكثير الغفران.

٣- الرهبان لا يملكون غفران الذنوب:

والله وحده هو مالك الغفران، فلا يملك أحد غيره غفران الذنوب ﴿وَمَن

يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقد ضل الذين نصبوا رهبانهم نوّاباً عن الله يغفرون الذنوب، ويغسلون الخطايا والزلات.

إن غفران الذنوب لله وحده، يغفر لمن يشاء من عباده، ويعذب من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [الفتح: ١٤].

٤-الذنب الذي لا يغفره الله:

والله لا يستعظمه غفران ذنب مهما كبر، فهو يغفر الذنوب جميعاً، ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

والذنب الوحيد غيرُ القابل للغفران هو الشرك والكفر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾ [النساء: ١٣٧].

وقد أيأس الله رسولَه من غفران ذنوب المنافقين ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠] وقال فيهم أيضا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ [المنافقون: ٦].

٥- طرائق غفران الذنوب:

والعباد ينالون عفو ربهم وغفرانه، باستغفاره وطلب عفوه ورحمته ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. ولكن ليس غفران الذنوب قصراً على الدعاء، فالله يغفر ذنوب الداخلين في الإيمان ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾[طه: ٧٣] ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١] ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[الأحقاف: ٣١].

وكما يغفر الذنوب بالإيمان، فإنه يغفرها بالأعمال الصالحة، كما قال سبحانه وتعالى في المتصدقين: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وقد دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بعد هجرته، فقال له: ابسط يمينك، فَلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: « مالك يا عمرو ؟» قلت: أردت أن اشترط.

قال: « تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي.

قال: « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما قبله » [مسلم: ١٢١].

فأخبر الرسول ﷺ أن الإسلام يغفر الله به ما سبقه من الذنوب، وكذلك الهجرة والحج، وأخبرنا رسولنا أن ذلك التائبَ المهاجرَ الذي قتل مائة نفس قد غفر له- بتوبته وهجرته [رواه البخاري: ٣٤٧٠].

كما أخبرنا الرسول ﷺ أن من قُتِلَ في سبيل الله وهو صابر محتسب مقبلٌ غير مدبر تكفر عنه خطاياه كلها إلا الدين. [البخاري: ١٨٨٥].

واستغفار الابن لوالديه، والقريب لقريبه، والمؤمن لأخيه المؤمن قد يفتح باب التوبة للمستغفَر له إذا كان حياً، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[نوح: ٢٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٤١] وقال موسى

عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وأخبرنا ربنا أن المؤمنين الذي جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار يدعون بالمغفرة لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأول من يدخل في الدعاء المهاجرون والأنصار، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد عكس أقوام ينسبون إلى الإسلام القضية، فاتخذوا من سَبِّ صحابة رسول الله ﷺ ديدناً لهم، وقربة يتقربون بها إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد دلنا ربنا على مشروعية طلب الاستغفار من الآخرين، خاصّة إذا كانوا صالحين وكانوا من الأحياء، وفي مقدمة هؤلاء الرسول ﷺ في حياته ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٦٤].

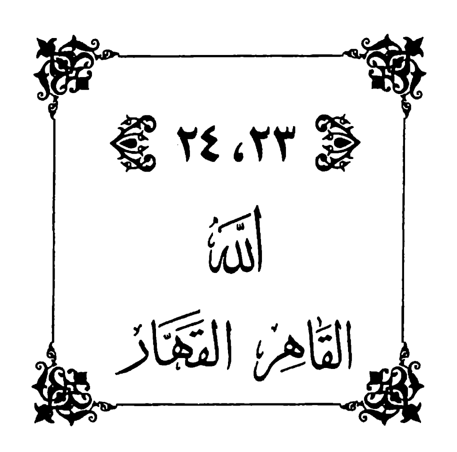
ولما ظهر لنبي الله يعقوب كيدُ أبنائه بيوسف، طلبوا منه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩٧-٩٨].

وأعلمنا ربنا سبحانه أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشورى: ٥] وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

إن المستقيمين على أمر الله من الأولين والآخرين من أتباع الرسل أمةٌ واحدةٌ، يحب بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم لبعض، وتجمعهم الجنّة في يوم القيامة، أحبّة متآلفين، على سرر متقابلين، قال تعالى مقررا وحدة الأمم المتبعة للرسل جميعا ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢].

وقال: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[المؤمنين: ٥٢].





من أسماء الله الحسنى التي نتعرف إلى الله بها: القاهر، والقهار، وقد ورد القاهر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

وورد اسم القهار في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

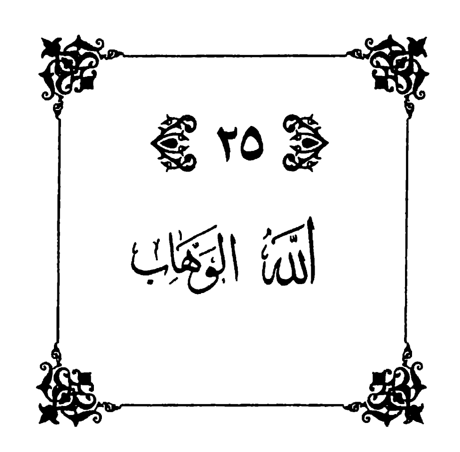
والقهار أبلغ من القاهر، والقهار هو كثير القهر، وهو الذي قهر الخلق بسلطانه وقدرته، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته وكبريائه وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ».

وقال بعض العارفين: « القهار هو الذي لا يطاق انتقامه، مذل الجبابرة، قاصم ظهور الملوك والأكاسرة، وهو الذي أطاحت صولته صولةَ المخلوقين، وبادت عند سطوته قوة الخلائق أجمعين، إذا سلمنا له ما يريد كفانا من نريد، وإن لم نسلّم له ما يريد أتعبنا فيما نريد، ثمَّ لا يكون إلا ما يريد » [موسوعة: له الأسماء الحسنى: ١/ ١٠٧].

وقد حدثنا- تبارك وتعالى- عن قهره للجبابرة، وأخذه للعتاة أخذ عزيز مقتدر، فقد قهر فرعون وهامان وقارون ونمرود وأبي بن خلف، وقهر الجبابرة من قوم عاد وثمود، وأصبح هؤلاء قصة تروى، ورواية تحكى.

وقهر عباده كلَّهم بالموت، كما قال عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١].

والله الواحد القهار هو الذي يستحق العبادة دون سواه، فما سواه مقهور مربوب كما قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].



تعرف الله إلى خلقه بإعلامهم أنه الوهاب، فقال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] وقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

وقال حكاية عن نبيه سليمان في دعائه ربه: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

١- معنى الوهاب:

والوهاب: هو واهب العطايا الكثيرة التي لا يحدها حدود، ولا يقيدها قيود، فإنه مالك السموات والأرض، وله خزائن السموات والأرض، لا يستعظمه شيء أعطاه، ولا تُنْقصُ مواهبُه خزائنَ ملكه.

٢- مواهب الله عباده:

والله هو واهب الأحياء والحياة، وهو الذي وهبنا العقول والقلوب والأسماع والأبصار، كما وهبنا الطعام والشراب، والأزواج والذرية، وقد نوع الله هباتِه إلى عباده، ففي مجال الذرية: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩- ٥٠].

وقد امتنَّ الله على رسله وأنبيائه بما وهبهم إياه من الذرية الصالحة، فمنهم خليله إبراهيم عليه السلام، « فقد امتن عليه بهبته إياه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

ومن الذين امتن عليهم من أنبيائه داود، فقد وهب له سليمان عليهما السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

ووهب لنبيه زكريا يحيى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وابتلى الله أيوب عليه السلام في جسده، فذهب ماله، وفقد ولده، ثم رفَعَ عنه البلاءَ، ووهبه مثلي ما أخذ منه من الأهل والولد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وطلب نبي الله موسى عليه السلام من ربّه عندما أرسله، أن يرسل معه أخاه هارون، فاستجاب الله دعاءَه، وامتن عليه بذلك فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾[مريم: ٥٣].

وقد شرع الله أن نطلب منه مثل ما طلبه منه أنبياؤه ورسله من الذرية الصالحة، كما قال سبحانه في صفة عباد الرحمن ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٣- أعظم مواهب الله:

وأعظم مواهب الله- سبحانه- لعباده هو ما أعطاهم إياه من النبوة والكتاب والحكمة، والآيات البينات، فمن ذلك ما آتاه الله آل إبراهيم عليه السلام ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وآتى نبينا محمداً ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وآتى كليمه موسى عليه السلام الكتاب والفرقان ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وأعطى عيسى عليه السلام البينات وأيده بروح القدس ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقد طلب بعض رسل الله وأنبيائه أن يهبهم من خير الدنيا كما طلب ذلك نبي الله سليمان عليه السلام، فقد دعا ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

وقد شرع الله لعباده أن يطلبوا منه مواهبه، وأعظم مواهبه الهداية إلى الحق الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، كما علمنا أن نقول في كل ركعة من ركعات الصلاة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

والصراط المستقيم الذي نطلب من الله الهداية إليه دائما: الإيمان، والإسلام، وهو أيضا القرآن، ومتابعة الرسول ﷺ، ومن مواهبه العظيمة التي يتطلع الصالحون لنيلها العلم الإلهي النبوي، الذي جاءَنا من عند الله تبارك وتعالى، فقد امتن الله على نبييه داود وسليمان بما وهبهما إياه من العلم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النمل: ١٥].

وامتن الله على عبده لقمان عليه السلام بإعطائه الحكمة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

٤- استوهاب الله خيري الدنيا والآخرة:

ولا حرج على العباد في دعائهم الله أن يؤتيهم من خيرات الدنيا، ولكن لا

ينبغي أن يقتصر تطلعهم إلى الدنيا دون الآخرة، فقد ذم الله الذين يتطلعون إلى تحصيل ذلك وحده، ويقصرون هممهم عليه ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ومدح المؤمنين الذين يطلبون من الله خيري الدنيا والآخرة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقد أثنى الله على هذا النوع من الناس بقوله: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢].

ولا حرج على العباد أن يطلبوا من الله المال والجاه والعز، ولكن على الطالب أن يعزم على أن يقوم إذا وهبه الله ما طلبه بتحقيق أمر الله فيه، فيؤدي زكاة المال، وينفق مما آتاه الله في محاب الله، وإذا طلب العلم فوهبه الله إياه، فعليه أن يعلمه ابتغاء وجه الله، ويقضي بين الناس بالحق، وإذا وُهَب الملك أن يحكم شرع الله، ويحكم بالعدل ويصلح أحوال الرعية، ويحمي حمى الإسلام والمسلمين، ويعد ما استطاع من القوة وآلات القتال لإرهاب أعداء الله وأعداء دينه، فإن بعض الذين يهبهم الله ما يطلبون، ويعاهدون الله أن يكونوا كما أمرهم، ينقضون عهدهم، ويخلفون الله ما عاهدوه عليه، فيؤدي ذلك بهم إلى غضب الله ومقته ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۞ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٨].

٥- تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه باسمه الوهاب:

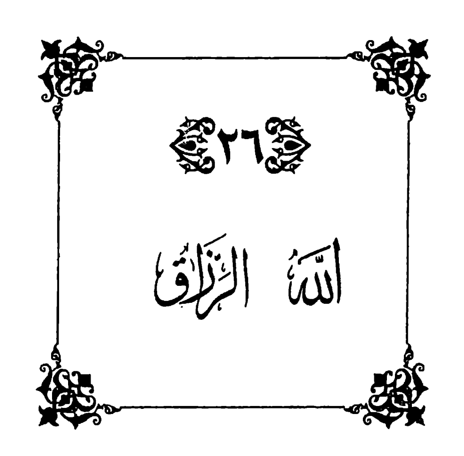
وقد كان الرسول ﷺ يقدس ربه ويسبحه باسمه الوهاب، ففي مسند أحمد عن سلمة بن الأكوع قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح دعاء إلا استفتحه بسبحان ربي الأعلى العلي الوهاب »[المسند: ١٦٥٤٨.والحاكم: ١/ ٤٩٨

وصححه ووافقه الذهبي].

وكان الرسول ﷺ يثني على ربه بعد رفع رأسه من الركوع في الصلاة بأنه لا مانع لما أعطى، ولا واهب لما منع فيقول: « ربنا لك الحمدُ، ملءُ السماوات والأرض، وملءُ ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ » [مسلم: ٤٧٧].

وفي الختام نقول كما علمنا الله أن نقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. ونقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].





عرفنا ربنا أنه الرزاق في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] وأعلمنا سبحانه أنه خير الرازقين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨] وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنين: ٧٢]. وقال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

١-الله الرزاق لعباده وهو غني عن رزقهم:

والرزاق هو الذي خلقنا، وتكفل برزقنا ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

وتكفل برزق جميع الأحياء ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والله- سبحانه - لا يحتاج إلينا لنرزقه ونطعمه ونسقيه، فهو غني عنا، ولا يحتاج إلينا، ونحن المحتاجون إليه في ذلك كله، وفي ذلك يقول: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧].

٢- الرزاق هو المستحق أن يعبد:

والله الرزاق هو الذي يستحق أن يعبده العباد، ويخضعوا له، أما غيره مما يعبد من دونه، فإنهم لا يملكون الرزق، ولا يستطيعونه، ولذلك فإنهم لا يستحقون أن يعبدوا من دونه، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وقد تكرر السؤال للمشركين لتنبيههم على بطلان آلهتهم العاجزة عن الخلق والرزق ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٤] ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وإذا كان الجواب أن الله هو الرزّاق، فعليكم أن تعبدوه دون سواه، فالرزّاق هو المستحق للعبادة.

وإذا كان وحده هو الرزّاق، فإنه قادر على أن يمسك رزقه ويقبضَه ويذهبَ به ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

٣- طلب رزق الله في أرض الله:

وقد أمرنا الله بالسير في أرض الله الواسعة وطلب الرزق في أرجائها ﴿هُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وقد خلق الله لنا الأرض، وقدر فيها الأرزاق، وجعل فيها أصناف النبات والثمار، فقال ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت: ١٠].

وأنزل الله الماء من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الجاثية: ٥] وسمى الله المطر- في الآية- رزقا لأنه سبب الرزق كما قال: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٢].

٤- الاستعانة بالله على الرزق:

وإذا كان اللهُ وحدَه الرزّاق، فعلى العباد الاستعانة به في تحصيله، فإذا أمسكت السماء القطر استسقيناه، ليغيثنا، وينزل علينا بركات السماء، وإذا زرعنا، فنتوجه إليه كي يحفظه ويبارك فيه، وهذا هدي الصالحين، فإبراهيم عليه السلام دعا بالرزق لأهل البيت الحرام ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٦]. وعيسى قال في دعائه: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ﴾ [المائدة: ١١٤].

٥- شكر الله على ما انعم به من رزق والاستقامة على أمره:

وقد أرشدنا الله تبارك وتعالى إلى شكره على ما تفضل علينا به من رزقه، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٢].

كما عرفنا ربنا سبحانه بأن الاستقامة على أمره، واتباع شرعه، يفتح علينا به بركات السماء والأرض، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال في اليهود والنصارى:

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ [المائدة: ٦٦] وقد أمر نوح عليه السلام قومَه بالتوبة من الشرك، والأوبة إلى الله، ووعدهم على ذلك أن يفتح عليهم بركات السماء والأرض ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾ [نوح: ٩- ١٢].

وقال الحق- سبحانه- مقرراً صدق هذا الذي قررته الآيات السابقة: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾[الجن: ١٦]. وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق: ٢].

٦- من أعظم الذنوب تحليل وتحريم رزق الله بأهوائنا:

وقد أعلمنا ربنا أن من أعظم الذنوب التحليل والتحريم لما رزقنا الله بآرائنا، وقد عدّ الله اتباع المشرعين في ذلك عبادة لهم من دون الله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٩] وقد بين الرسول ﷺ أن اتخاذهم أرباباً كان بمتابعتهم فيما أحلوه وحرموه مناقضين حكم الله عزَّ وجل.

وقال رب العزة مبكّتاً هذا الصنفَ من البشر ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]. وقال: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ ﴾ [النحل: ١١٦].

٧- حكمة الله في تضييق الرزق وتوسعته:

وقد علمنا ربنا أنه يوسع على بعض عباده في الرزق في الدنيا، ويضيق على بعضهم ابتلاء واختباراً، لا محبة وبغضاً، ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ [الرعد: ٢٦] ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [النحل: ٧١]. ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ١٢].

لقد وسع الله في الرزق على الأخيار أمثال نبييه داود وسليمان، ووسعه على الأشرار من خلقه أمثال فرعون وهامان وقارون، وضيق على الأخيار والأشرار من خلقه، ذلك أنه لا يعبأ بالدنيا، فهي هينة عليه، ولو كانت تساوي عنده جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء، ولذا يخطئ الذين يظنون أنه ما وسع عليهم إلا لفضلهم وعلو مكانتهم، فتراهم يفرحون بما آتاهم الله فرحاً يقودهم إلى الكبر والاستعلاء وظلم عباد الله، ويخطئ الذين يعظم في نفوسهم الأثرياء المستكبرون المختالون في الأرض، لقد آتى الله قارون ﴿ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦] فقال له حكماء قومه: ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦- ٧٧].

فكان جوابه جواب الأشر البطر المستكبر الذي لا يعترف لله بنعمة، ولا يؤدي حقها بالشكر ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ [القصص: ٧٨].

وقد عقب الله على مقالة هامان بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

وعندما خرج هامان على قومه في أبهته وعظمته وزينته، كبر في أعين من عظمت الدنيا في قلوبهم، فقالوا :﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩]. فتصدى لهم أهل العلم والصلاح مصححين لهم سوء فهمهم وتقديرهم رادين خطأ رأيهم قائلين: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد أخذ الله قارون أخذ عزيز مقتدر ، فخسف به وبداره الأرض، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ

ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[القصص:٨١-٨٢].

لقد جعل الله من خبر هامان عبرة وعظة ودرساً تتفقه عليه البشرية في تاريخها المديد من بعده، لتعلم أن توسيع الله الرزق على بعض العباد ليس كرامة ولا مزية ولا فضيلة، وقد يكون سبباً للهلاك والدمار في الدنيا، إذا طغى أصحابها، وترفعوا على عباد الله، وكفروا بأنعم الله.

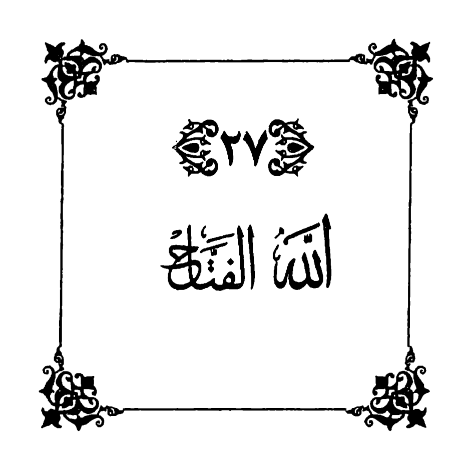
٨- سعة رزق الآخرة واختصاصه بالمؤمنين:

هذا عن رزق الله في الدنيا، أما رزق الله في الآخرة فقد خص الله به المؤمنين،وحرم منه الكافرين، وهو رزق عظيم واسع، لا يحده حد، ولا يقدر قدره إلا الله، فرزق أهل الجنة لا نفاد له ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[ص: ٥٤] وهو يرزقهم بغير حساب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]. ومن طالع صفة الجنة علم سعة رزق أهلها وكثرته وطيبه وتنوعه، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[الزخرف: ٧١].

أما أهل النار فهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٢- ٤٥] وعندما يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله يقولون إن الله حرمهما على الكافرين، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

٩- لا تبخل برزق الله على عباد الله:

على العباد أن يستشعروا في الدنيا أن ما في أيديهم هو رزق الله، فلا يجوز أن يبخلوا بإنفاقه فيما أمرهم الله أن ينفقوه فيه، فقبيح أن يُمنَعَ الله مما هو له ﴿ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ ﴾[البقرة: ٢٥٤]. ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [المنافقون: ١٠].



٢٧

الله الفتاح

١-معنى الفتاح:

عرفنا الله- تبارك وتعالى- بأنه الفتاح، والفتّاح- كما يقول الخطابي- هو الحاكم بين عباده [شأن الدعاء: ٥٦].

وقد أمر الله عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يقول للذين يجادلونه في الحق الذي جاءَهم به من عند الله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]. أي: يجمع بيننا في يوم القيامة، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيظهر المحق من المبطل، والصالح من الطالح، كما قال تبارك وتعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] والخصمان هما الكفار والمؤمنون، والله يقضي بينهم في يوم القيامة بالحق، فالله- تبارك وتعالى- هو الفتاح، أي: القاضي بين عباده، الذي لا حكم فوق حكمه، لأنّه عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه شيء من أمر الخصوم، ولا يحتاج إلى شهادة الشهود، ولا إلى دلائل الإثبات، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦] فقرن بين الفتاح والعليم، للدلالة على أنه يحكم بعلمه الذي وسع كل شيء، فهو عالم بحقائق الأمور وفق ما وقعت عليه.

٢- فتح الله بين المؤمنين والكافرين:

وقد دعا نبي الله شعيب عليه السلام، وهو يواجه قومه الذين أرادوا إخراجه من قريته إذا لم يرجع إلى ملتهم ملة الكفر والشرك، فقال لهم في هذا الموقف: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] والمعنى: افصل واحكم بيننا وبين قومنا الذين يريدون إكراهنا على الكفر، فإن لم نفعل طردونا من ديارنا بغير حق، ففتح الله بينه وبينهم، وذلك بتدميرهم وإهلاكهم،﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وحلول العذاب بقوم شعيب هو حكم وقضاء بينه وبينهم، فلم يكتف الفتاح سبحانه بالفصل بينهم بالقول، بل أهلكهم ودمرهم، فأي حكم أو قضاء فوق ذلك.

ونوح عليه السلام دعا ربه أن يفتح بينه وبين قومه ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨] ففتح الله بينه وبينهم، وأظهر تبارك وتعالى حكمه وقضاءه بإنجائه المؤمنين، وإهلاكه الكافرين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩- ١٢٠].

وقد أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- أن الكفار في عهد الرسول ﷺ كانوا يتساءلون عن اليوم الذي يحكم الله فيه للمؤمنين؛ بإهلاك الكافرين، فأمر رسوله ﷺ أن يخبر هؤلاء المستعجلين بالعذاب أنه لا ينفعهم إيمانهم في ذلك اليوم، ولا يمهلون، ذلك أن الإيمان لا يقبل إذا نزل العذاب، ولا عند حلول الموت وانكشاف الغطاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨- ٢٩].

وهكذا الحال عند الرسل وأتباعهم جميعاً في مواجهتهم للكفار والمشركين يتطاول الكفار على المؤمنين بسلطانهم وجبروتهم، ويتهددون المؤمنين بإخراجهم من ديارهم وأوطانهم، ما لم يرجعوا إلى ملتهم، فيوحي إليهم ربهم أنه سيهلك

الظالمين، ويسكن المؤمنين الأرض من بعدهم.

وفي مجال المداولة بين المؤمنين والكفار يستفتح الرسل بدعوتهم ربهم أن يحكم بينهم وبين قومهم، وذلك دعاء منهم لإهلاك قومهم، وأحيانا يكون الاستفتاح من الأقوام الكفرة، كما حدثنا ربنا أنهم قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

وقد وقع هذا من كفار قريش في معركة بدر عندما دعا المشركون، ومنهم أبو جهل أن يفتح الله بينهم وبين المؤمنين. فقالوا: « اللهمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فَأَحِنْه الغداة » أي: اهزمه، فهزمهم الله، وقضى لرسوله والمؤمنين، وأنزل الله قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] أي: إن تستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد فعل وحكم لهم عليكم. [راجع ابن كثير: ٤/ ١٥١٢].

وقد حدثنا ربنا أن هذا الحكم الذي يفصل الله فيه فصلاً معلناً ظاهراً، يعلم به القاصي والداني، يهلك به العتاة الظالمين، وينصر فيه الرسل وأتباعهم، ويظهر هذا الحكم بصورة أجلى في يوم الدين عندما يلقى بالكفار في النار، ويدخل المؤمنين جنات النعيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ * وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

٣- فاتح أبواب الرحمات لعباده:

وقد يكون معنى الفتاح: أيضاً- كما يقول الخطابي-: « الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم، ويفتح قلوبهم

وعيون بصائرهم ليبصروا الحق » [شأن الدعاء: ص ٥٦].

وهذا الذي ذكره الخطابي باب واسع من الفتح الرباني، أعظمه الرحماتُ التي يصيب الله بها عباده، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

ومن الرحمة التي يفتحها على عباده إدخال الإيمان في القلوب، وهداية من كتب الله له الهداية، وتوفيق من كتب الله له التوفيق إلى ما فيه الصلاح والسداد.

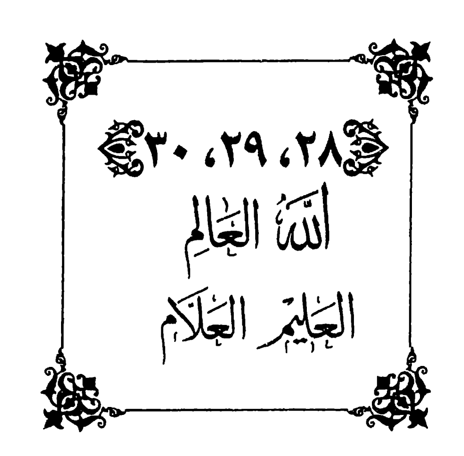
ومن ذلك تحبيب الله لمن اصطفاه من عباده الإيمان وطاعة الرحمن والأعمال الصالحة، وتزيين ذلك في قلوبهم، حتى يقوموا به في يسر وسهولة.

ومن ذلك ما يفتح الله على من يختارهم من أبواب العلم الذي يفقهون به كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، حتى تستضيء به صدورهم، وتنشرح به قلوبهم، ويهتدوا بما علَّمهم من دينه وشريعته إلى الحق مما اختلف فيه الناس.

وكثير من الذين اعتصموا بالله يلجؤون إلى الله، ويتوكلون عليه، ويلحون عليه بالدعاء والرجاء إذا ما أحاط بهم ظلم العباد، ومؤامراتهم، فيفتح الله عليهم، ويجعل لهم من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، ويزيل عنهم الكربات، ويهيِّئ لهم أسباب النجاة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فأطبقت على باب غارهم صخرة جرفها السيل، وكيف أنجاهم الله بتوسلهم إليه بما كان من كل منهم من عمل صالح اتقى فيه ربه، وأخلص له دينه، ففتح الله لهم بقدرته وقوته رحمة منه باب الغار، وكذلك ينجي الله المؤمنين.





أولاً: أسماء الله الدالة على صفة العلم:

إذا سأل سائل عن الله، صح أن تقول في الجواب كما قال الله معرفاً بنفسه: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وقال: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦].

ومن أسمائه- تبارك وتعالى- الدالة على علمه: العليم والعلام، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[التوبة: ٧٨] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨].

ثانياً: سعة علم الله وإحاطته بكل شيء:

وقد حدّث الله- سبحانه- عباده عن سعة علمه، وإحاطته بكل شيء ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد أخبرنا- تبارك وتعالى- عن علمه الواسع الذي أحاط بكل شيء، ومن ذلك إحاطته بنا في سرّنا وعلانيتنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[النحل: ١٩]

وعلمه بما بين أيدينا وما خلفنا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهو عليم بما تكنه صدورنا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران: ١١٩].

وقال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وهو شهيد على كل أعمالنا وأقوالنا، كما هو عالم بالكون من حولنا: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ولا فرق في علم الله بين من أسرّ القول ومن جهر به، ولا بين المستخفي في ظلمة الليل والمستعلن في ضوء النهار، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وهو سبحانه أعلم بنا من أنفسنا عندما خلقنا من تراب بخلق أبينا آدم عليه السلام، ثم بخلق ذريته من بعده أجنّة في الأرحام: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

وعِلْم الله في كل مكان، فلا يغيب عنه شيء، فإذا تناجى المتناجون فإنه معهم، قلّ أو كثر عددهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤].

والله يعلم كل حركة في البر أو البحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبة تندثر في الرمال أو نبتة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله بها محيط، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦].

وانظر إلى علم الله تعالى الذي لا تفلت منه ذرة في السموات ولا في الأرض ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

والله ربنا- تبارك وتعالى- يريد منا أن ننظر في الكون نظر معتبر لنعلم أن علمه قد أحاط بكل شيء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقد سأل الحقُّ تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ سؤال المقرر له بأنه عالم بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

وأمرنا- سبحانه وتعالى- بأن نعلم بأن الله يعلم ما في أنفسنا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وفي اسمه « العليم » يقول ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢١٥]:

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون ذاك الأمر ذا إمكان

ثالثاً: أثر الإيمان بعلم الله:

إن حديث الله- سبحانه وتعالى- عن علمه الواسع المحيط بهذه الكثرة والوفرة يُقْصد منه أمور:

١- أن يغرس الحق تبارك وتعالى في قلوب عباده خشيته ومراقبته:

فإذا آمن العبد بأن الله عالم به، مطلع عليه لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن الله يعلم سرّه ونجواه، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله، والبعد عن معصيته، وهذا هو الإحسان، فالإحسان كما قال الرسول ﷺ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقد ضرب أهل العلم مثلاً للعالم المستيقن بأن الله يعلمه ويراقبه، وينظر إليه، بالجالس في حضرة ملك جبار، يحيط به جنده وحرسه، وعن يمينه ويساره زوجته وبناته وقريباته، وبين يديه سيافه، فارشاً نطعه، شاهراً سيفه، هل يستطيع ذلك الرجل أن يعبث بحرمة الملك، ولله المثل الأعلى، فمن علم أن جبار السموات والأرض عالم به مراقب له، كان ذلك أعظم زاجرٍ عن ترك فرائضه، وارتكاب محظوراته ومحارمه.

٢- تثبيت المؤمنين في معركتهم المستمرة مع أعدائهم:

الله عليم بمكر أعدائه وما يدبرونه لأوليائه، وما يؤذونهم به من الأقوال

والأفعال، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين في ميدان الصراع والنزال، فإذا قصر علم البشر عن العلم بكيد المجرمين، ومكر الكافرين، فإن ربنا بهم عليم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، وهو عليهم قدير، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦- ٧٧] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤- ٤٥].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[الإسراء: ٤٦- ٤٧]﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ [هود: ٥] ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ﴾ [الأنعام: ٣٣] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[الحجر: ٩٧] ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[يس: ٧٦] ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾[التوبة: ١٠١] ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

إن علم الله بأعدائنا شامل محيط، مما يجعل المؤمن في مواجهة الخصوم يطمئن قلبه ويقوى ضعفه، فيقبل على الطعان والنزال غير هياب ولا وجل.

٣- اطمئنان المؤمن إلى تشريع ربنا مراعي فيه قدراتنا وإمكاناتنا:

أعلمنا ربنا أن تشريعه لنا قائم على علمه بنا، يخفف عنا حين يعلم أن فينا ضعفاً، ويكلفنا بما قد يشق علينا لأنّه يعلم أن في ذلك صلاحنا، ويأمرنا بما يخالف هوى نفوسنا.

﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ ﴾ [الأنفال: ٦٥] ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ [المزمل: ٢٠].

٤- ترهيب ضعفاء النفوس في المجتمع الإسلامي، الذين يتهربون من التكاليف:

أعلمنا ربنا أن علمه محيط بالذين يخالفون عن أمر الله، ويثبطون عن الاستجابة لما دعا إليه الله، ويقصدون الاحتيال على أحكام الله، إرضاء لأهواء النفوس؛ وتهربا من مشقة التكاليف.

﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨].

٥- تواضع العلماء لعلم الله، وعدم فرحهم بما أوتوه من العلم:

توصل البشر اليوم إلى إنجازات علمية هائلة، جعلت كثيراً من العلماء يختالون فرحاً بما أوتوا من العلم، لقد علم البشر من حقائق الحياة وأسرار الخلق كمّاً هائلاً، وتوصلوا إلى طرائق وآلات تعينهم على التعرف على أسرار الكون، ولكن نظرة عجلى في النصوص التي تتحدث عن علم الله وإحاطته بالخلق تجعلنا ندرك أن ما علمه البشر لا يساوى شيئاً، فعلمهم في علم الله قطرة من بحر، وذرة من كون، إن الناظر في نصوص الكتاب والسنة نظر متأمل متبصر لا يستطيع إلا أن يرفع عقيرته

مسبحاً لله ممجداً له، فإن ما يتصف به من علم أمر لا يستطيع أن يقدر قدره إلا العليم الحكيم نفسه.

إن علم الله علم كلي محيط ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، وقد وسع علمه كل شيء ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ما لا سبيل إلى معرفته والعلم به:

أخبرنا ربنا أن من علمه ما لا يعلمه إلا هو، فمن ذلك ما سماه القرآن بمفاتح الغيب ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في سورة لقمان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

ومما اختص الله بعلمه علم الغيب ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] .

ومما اختص الله بعلمه عدد جنوده في السموات وفي الأرض ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

واختص الله بعلم أنباء الغابرين وأحوالهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[إبراهيم: ٩].

٦- لا علم لنا إلا ما علمتنا:

أخبرنا ربنا أن عباده من الملائكة والإنس والجن لا يدركون من العلم إلا ما شاء الله أن يدركوه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وقالت الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وأخبرنا أنه تبارك وتعالى يعلم العباد ما لا يعلمون، ويعرفهم ما لم يكونوا يعرفونه، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣].

وقال لعيسى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:١١٠] وليس هذا وقفا على الرسل، بل كل علم حازه البشر فهو داخل في هذا، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٣-٥]. ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٢-٤].

وتأويل الرؤى التي يراها النائم في منامه هي من العلم الذي علمه الله بعض عباده، فيوسف عليه السلام يقول له والده ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦].

ويقول يوسف نفسه بعد تأويله للرؤيا ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾[يوسف: ٣٧].

ويقول الله فيه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف: ٢١] ويقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ويقول يوسف: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

ويقول في نبيه داود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ويدخل في العلوم التي علمها الله البشر ما أدركوه من أسرار الكون وما عرفوه من الصناعات، وما علموه من أحوال الإنسان والحيوان ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

٧- علم الله أعظم دليل على صدق ما جاءنا من عند الله:

أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

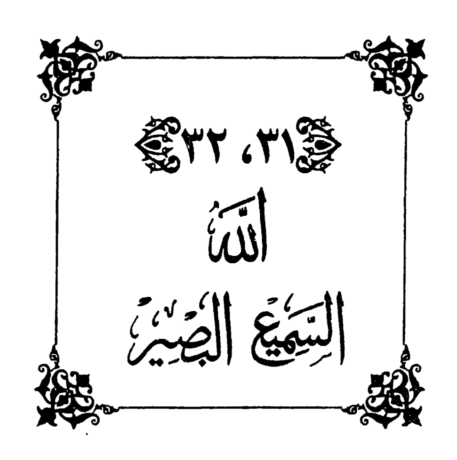
وآلهة المشركين باطلة ودليل بطلانها علم الله بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

وما أنزله الله على عبده ورسوله أنزله بعلمه ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦] والمرسلون إلى القرية التي حدثنا الله عنهم عندما كذبهم قومهم احتجوا على صدقهم بأنَّ الله يعلم أنه أرسلهم ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾[يس: ١٦].

وهذا دليل في غاية الظهور لمن فقهه إذ كيف يأتي من يقول: أنا رسول مبعوث من عند الله، وهذا الكتاب من الله، وآلهتهم باطلة، ثم يؤيده الله، وينصره ويعزه، ويهزم خصومه، ويعلي كلمته!!

لقد افترى أقوام على الله فزعموا أن الله أرسلهم، ففضحهم وأخزاهم، وأظهر كذبهم، وجعلهم عبرة لمن اعتبر.





١- معنى السميع والبصير:

السميع والبصير اسمان عظيمان جليلان من أسماء الله تعالى، يدلان على صفتين عظيمتين، هما سمع الله وبصره، قال البيهقي: « السميع: من له سمع يدرك به المسموعات، والسمع له صفة قائمة بذاته، والبصير: من له بصر يدرك به المرئيات، والبصر له صفة قائمة بذاته » [الاعتقاد: ٥٨].

ونقل ابن منظور عن الأزهري قوله: « والعجب من قوم فسروا السمع بمعنى المُسْمَع، فراراً من وصف الله بأن له سمعاً، وقد ذكر الله الفعل في موضع آخر، فهو سميع ذو سمع، بلا تكييف ولا تشبيه بالسمع من خلقه، ولا سمعه كسمع خلقه، ونحن نصف الله بما وصف الله به نفسه، بلا تحديد، ولا تكييف» [لسان العرب:٢/ ٢٠٣].

وقال ابن تيمية: « الرب سبحانه- لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، والله- سبحانه- في الدنيا يسمع دعاء الداعين، ويجيب السائلين مع اختلاف اللغات، وفنون الحاجات » [مجموع الفتاوى: ٥/ ٢٤٦].

وقد عقد البخاري- رحمه الله تعالى- في كتاب التوحيد باباً عنون له بقوله: «باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال الشارح ابن حجر: « قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال: « إن معنى « سميع بصير » عليم.

قال: ويلزم من ذلك أن يسوّيه بالأعمى الذي يعلم أن السماء زرقاء، ولا يراها، والأصم الذي يعلم في الناس أصواتا، ولا يسمعها، ولا شك أن سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر، فصح أن كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً، وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً، وبين كونه ذا سمع وبصر، قال: وهذا قول أهل السنة قاطبة » انتهى. [فتح الباري: ١٣/ ٤٥٦].

٢- فرض الله على عباده أن يعلموا أنه سميع بصير:

وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى أن نعلم أنه سميع بصير، فمن لم يعلم ذلك كان مقصراً في العلم بربه والتعرف إليه، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٤] وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٣- تمجيد الله والثناء عليه بكونه سميعاً بصيراً:

وقد امتدح الله نفسه كثيراً في كتابه بكونه سميعاً بصيراً فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾[الحج: ٧٥]. وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقد امتدح الأنبياءُ والصالحون ربَّهم وسبحوه بهاتين الصفتين، كما قال إبراهيم وإسماعيل في دعائهما وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧] وقال إبراهيم عليه السلام أيضاً في دعائه ربّه أن يهب له الصالح من الأولاد: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ومنه دعاء المرأة الصالحة امرأة عمران ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

٤- ارتياب المشركين في سماع الله لهم وعلمه بهم:

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى قال: « كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، قال: « أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً » [البخاري: ٧٣٨٦].

وفي الصحيح أيضا عن عروة أن عائشة رضي الله عنها حدثته، قال النبي ﷺ: « إن جبريل عليه السلام ناداني، قال: إن الله سمع قول قومك وما ردوا عليك » [البخاري: ٧٣٨٩].

لقد عرف الأنبياء والرسل والذين تابعوهم على بصيرة أن الله سميع بصير، لا شك عندهم في ذلك ولا ريب، أما الذين ارتابت قلوبهم، فإن معرفتهم بربهم مدخولة مخلوطة، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا، فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[فصلت: ٢٢] [البخاري: ٤٨١٧].

فهؤلاء الجهال بربهم لم يكونوا يستترون خشية أن تشهد عليهم جلودهم وأسماعهم وأبصارهم يوم القيامة، بل لأنهم ظنوا أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون.

٥- آلهة المشركين لا تستحق العبادة فهي لا تسمع وتبصر:

وقد ذم الله آلهة المشركين من الأصنام الأوثان، ودلل على عدم استحقاقها العبادة بأنها لا تسمع ولا تبصر، فقال للمشركين مبكتاً ومؤنباً: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: ١٤].

وقال في تلك الآلهة المدعاة مبيناً وجه عدم صلاحيتها للعبادة: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وقال إبراهيم عليه السلام لأبيه منكراً عليه عبادته ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عن عابديه شيئاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: ٤٢].

وقال لأبيه وقومه أيضاً منكراً عليهم ما يعبدون: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: ٧٢-٧٤].

٦- عظم بصر الله وسعة سمعه:

فإذا كان أعظم ما ذمت به الأصنام والأوثان أنها لا تسمع ولا تبصر، فإن من أعظم ما يمدح به الإله الحق تبارك وتعالى أنه يسمع ويبصر، بل هو عظيم السمع والبصر، ولذلك جاء وصفه بالسمع والبصر بصيغة المبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران ٣٥].وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال الحق تبارك وتعالى مثنياً على نفسه بعظم سمعه وبصره ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ [الكهف: ٢٦].

قال ابن جرير فيما نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية: « ذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل ما أبصره، وما أسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصره لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء » [ابن كثير: ٥/ ٢١٥٦] وبصر الله نافذ في جميع مخلوقاته، لا يغيب عنه شيء منهم، كما قال عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠].

ولا يحجبه سبحانه عن خلقه شيء، فهو يراهم كبيرهم وصغيرهم، في ظلمة الليل ووضح النهار، المختفي منهم في بطن الأرض، والظاهر فوقها، وسمع الله محيط بجميع الأصوات، ففي اللحظة الواحدة يسمع دعاء الداعين، وقراءَة القارئين، وأنين الشاكين، وبكاء الباكين، كما يسمع زقزقة الطيور، ونقيق الضفادع، وثغاء الأغنام، ورغاء الإبل، ويعار الشاء، وزئير الأسود، وخرير المياه، وعصف الرياح، وطنين الذباب، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وقد أخبرنا سبحانه شيئاً عن سعة سمعه، فقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت تجادل الرسول ﷺ في أمر زوجها الذي ظاهر منها، فلم تقض جدالها معه إلا وأنزل الله في شأنها قوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: « الحمد لله الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءَت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول: « فأنزل الله قوله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١] [عزاه ابن كثير إلى أحمد وغيره، ورواه البخاري مختصراً تعليقاً في ترجمة باب رقم ٩ من كتاب التوحيد: ٩٧].

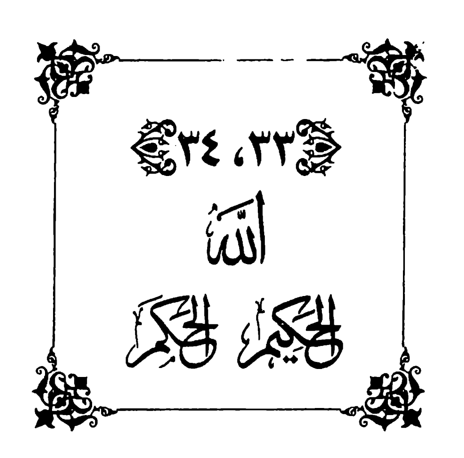
وفي تمجيد ابن القيم لربّه في [نونيته: ٢/ ٢١٥] باسميه: السميع والبصير، يقول:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا يخفى عليه بعيدها والداني
وهو البصير يرى دبيب النملة الـ ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى عروق بياضها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذاك تقلب الأجفان

و إذا أيقن العباد أن بصر الله يحيط بهم، و أنه سامع لأقوالهم صلحت أعمالهم واستقامت أمورهم، و بلغوا درجة الإحسان في الأعمال، و عظم توكلهم على ربهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] ، فربنا بصير بما نقع فيه من الكربات و المصائب، هو سامع لنا إذا دعوناه، وفي المواجهة مع الأعداء علينا أن نستحضر قوله لموسى وأخيه هارون عندما أرسلهما إلى فرعون عندما خافا أن يؤذيهما، فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والله سامع لافتراءات الأعداء عليه ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وفي يوم القيامة سيجزيهم بكفرهم وظلمهم. وعلى المسلم أن يثبت لله السمع والبصر على النحو الذي أثبت لنفسه من غير تشبيه، ولا يجوز له نفيهما عنه بدعوى أن إثباتهما يقتضي التشبيه، فالله ليس كمثله شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].





من أسماء الله تبارك وتعالى التي عرف نفسه بها اسم الحكيم والحكم، قال تعالى في اسمه الحكيم: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨] وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ٦٢]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

وجاء الحكم في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وفي سنن النسائي عن هانئ أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ سمعه وهم يكنون هانئاً أبا الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: « إن الله هو الحكم، وإليه الحكم، فلم تكنى أبا الحكم ». فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، قال: « ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟ » قال: لي شريح، وعبد الله، ومسلم، قال: فما أكبرهم؟ قال: شريح؟ قال: « فأنت أبو شريح » [صحيح النسائي: ٤٩٨٠. صحيح أبي داود: ٤٩٥٥ وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بالصحة].

وجاء أحكم الحاكمين في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

والحكيم له معنيان:

الأول: الذي أحكم الأشياء واتقنها:

والله تبارك وتعالى حكيم، لأنه أحكم أقواله وأفعاله، فأقواله وأفعاله صواب كلها، بلغت غاية الإتقان، ومن الإتقان فيها الذي هو غاية الحكمة وضعُه كلَّ شيء في موضعه، فقد دبَّر خلقه أحسن التدبير، وصنع مخلوقاته أحسن الصنع، فلا يدخل في تدبيره وتقديره خلل، ولا يعرو صُنعه نقص أو قصور، ولا يقع في أفعاله زلل ولا خطأ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أمرنا سبحانه بالنظر في كونه، لندرك تمام خلقه، وكماله، وخلوه من القصور ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك: ٢-٣].

وكما أحكم الحق -تبارك وتعالى- خلقه، أحكم آيات كتابه وهو القرآن كما قال: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

ولإحكامه- تبارك وتعالى- آياتِ كتابه إحكاماً ما فوقه إحكام وصف كتابه بأنه حكيم، كما قال سبحانه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحج:٥٢] ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].وقال: ﴿يسٓ * وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢].

وحكمة الله تقتضي أن يكون القرآن محكماً حكيماً في كل شيء في أسلوبه وتشريعه وأحكامه، وإيضاحه وبيانه، وأمره ونهيه، لأنه منزل من الحكيم العليم

سبحانه، فكيف يكون فيه عيب أو نقص أو قصور !!.

ومن تشريعه الحكيم حكمُ الله بقطع يد السارق ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] ومن تشريعاته الحكيمة أنه أجاز لنا الرجوعَ عن مقتضى اليمين، وشرع لنا أن نكفِّر عن المرجوع عنه، من الإيمان ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] وكل أحكامه متصفة بالحكمة سبحانه.

والمعنى الثاني للحكيم: أنه تبارك الحكم والحاكم بين عباده:

الله سبحانه هو الحكم والحاكم بين عباده، أي: الذي يقضي بينهم، ويفصل بينهم بشرعه، وقد اختص نفسه بالحكم، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على ما اختص نفسه به، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام: ٦٢] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

وإذا اتخذ العباد من دون الله حكَما فقد اتخذوهم آلهة من دون الله، والله لا يرضى أن يشرك في حكمه أحداً ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

واتخاذ الله حاكماً وحكماً يكون بتحكيم كتابه وسنة رسوله ﷺ في أعمال العباد وأقوالهم وتصرفاتهم، وفيما اختلفوا فيه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]. ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

والله هو المستحق لأن يكون حكماً بين عباده، لأنه ربهم وخالقهم ومعبودهم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

والله وحده المستحق لأن يكون حكماً وحاكماً، لأنه خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين، فهو العالم بكل شيء، والذي يعطي كل مسألة الحُكْمَ الذي يناسبها ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

ويصح أن يكون القرآن حكيماً بمعنى حاكماً، لأنه يفصل بين العباد ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

موقف البشر من تحكيم شرع الله:

إن من أعظم البلاء الذي وقع فيه البشر عبر تاريخهم المديد رفضُهم تحكيم شرع الله المحكم الحكيم المنزل من الله العزيز الحكيم، واتباعهم للشرائع التي يخترعها البشر، وقد وقعت الأمة الإسلامية اليوم فيما وقعت فيه الأمم البائدة من قبلها، فأعرضت عن تشريع الله، واتبعت شرائع البشر، وقد أقسم رب العزة أن الذين يدَّعون الإيمان لا يؤمنون حتى يحكموا الرسول ﷺ فيما تنازعوا فيه، ويرضوا بذلك تمام الرضا، ويسلموا لذلك تسليماً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

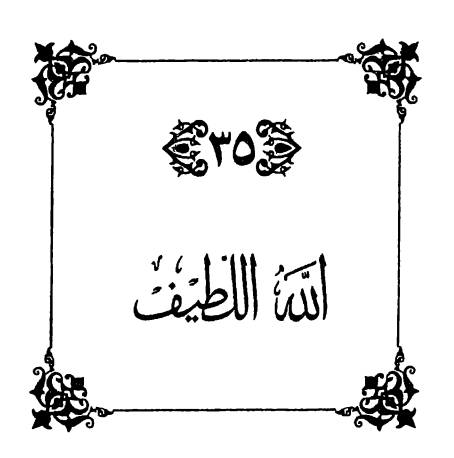
وقد حذر الله هذه الأمة أن تقع في مثل ما وقعت فيه الأمم من قبلنا من التحاكم إلى الطاغوت، وبذلك يتبعون الشيطان، ويضلون ضلالا بعيدا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن

يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾ [النساء: ٦٠- ٦١].

وقد تواترت أقوال أهل العلم في القديم والحديث على مناداة الحكام وأهل الرأي الذين يسوسون الأمة الإسلامية يطالبونهم بتحكيم شرع الله، الممثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم وابن كثير، ومفتي الديار السعودية العلامة محمد بن إبراهيم، والشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والشيخ محمد الشنقيطي، والشيخ أحمد شاكر وغيرهم من علماء الإسلام، وهم ناطقون بما نطق به الكتاب والسنة، وسار عليه أهل العلم على مدار التاريخ الإسلامي.

اللهم هيئ لأمة الإسلام من يقيم شرعك، ويُحكِّم كتابك، ويقيم راية الجهاد.





عرفنا ربنا- سبحانه- أن من أسمائه اللطيف، ومن ذلك قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

واللطيف: الرفيق، فهو من الأسماء الجميلة اللفظ والمعنى، التي يلذها السمع والقلب، ويتملاها الفكر والعقل، « وهو- كما يقول ابنُ الأعرابي- الذي يوصل إليك أربك- أي غرضك- في رفق، ومن هذا قولهم: لطف الله، أي: أوصل إليك ما تحب في رفق » [نقله عنه الخطابي في شأن الدعاء: ص ٦٢].

والله- تبارك وتعالى- لطيف بعباده، كما قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

واللطيف بالعباد- كما يقول الخطابي- هو: « الذي يلطف لهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون » [شأن الدعاء: ص ٦٢].

ويقول الغزالي: « إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل، واللطف في العلم، تمَّ معنى اللطف، ولا يتصور ذلك

في العلم والفعل إلا لله تعالى ». [نقله عنه محمد بن حمد في النهج الأسنى: ١/ ٢٤٦].

وإذا شئت أن تعرف شيئاً من لطفه في خلقه، فانظر إلى ما حدثنا عنه الله في خلقه الأجنّة في الأرحام، حيث خلقنا خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وكيف جعل الرحم قراراً مكيناً، يحفظ الجنين ويحوطه ويحميه، وكيف يمده الرحم بالغذاء الجاهز بوساطة الحبل السري، وكيف يتنامى الجنين في الرحم شيئاً فشيئاً، وكيف تتشكل أجهزته: الجهاز الهضمي، والدورة الدموية، والأعصاب وغيرها، وتأمل في الدورة الدموية، كيف تنتشر في الجسد كله، وكيف ترتبط بالقلب، فيضخّ الدماء إلى جميع أجزاء الجسد.

وانظر إلى لطف الله في تبخير الماء من البحار، وكيف تثيره الرياح إلى طبقات الجو، وكيف يتكثف، ويتألف هناك، ليصبح سحاباً، ثم تسوقه الرياح المرسلة إلى جنبات الأرض، ثم كيف تتساقط قطرات المطر، فتسقط برقة ومقدار، فلا تؤذي الإنسان ولا الحيوان والنبات، وكيف تتشربه الأرض، وتسقى به النباتات والأشجار، ويرزق به الإنسان والحيوان، ويسري في طبقات الأرض، فيعظم مخزونها، وتتفجر عيونها وتزيد أنهارها.

وانظر إلى كيفية حصول البشر على الماء الذي يحتاجون إليه بوساطة الجمال والحمير والسيارات والسفن، والأنابيب، وقارن هذا بصنع الله الماء، وكيف ينقله السحاب، فيحيي به العباد والبلاد لنعلم مدى لطف الله في خلقه.

وانظر إلى لطف الله بعباده في حاجتهم إلى الأكسجين الذي في الهواء، وكيف جعل النبات معامل تُصفي هواء الأرض، حيث تحول ثاني أكسيد الكربون الذي ينفثه الإنسان والحيوان إلى أكسجين يتنفسه الإنسان والحيوان، ولولا ذلك لهلك الأحياء فوق ظهر هذه الأرض.

وانظر كيف مزج الله قدراً ضئيلاً من الهواء في الماء، وهو مقدار كاف كي تتنفسه حيوانات البحر، فيفي بإمدادها بما تحتاج إليه من الهواء، وصدق الله إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقال: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وتأمل فيما حكاه عن نبيه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد جاءَت هذه المقالة من هذا النبي الكريم في ختام ما ذكره الله من قصته، وقد كان في قصته كثير من اللطف والتدبير لمن أحسن التدبر والتفكير، فالله أراد أن ينقل إسرائيل وبنيه من الأرض المقدسة إلى مصر، فهيأ لذلك الأسباب في يسر وسهولة، ولكن بتقدير فيه الكثير من الابتلاء والاختبار.

لقد ثارت الغيرة في قلوب إخوة يوسف لمزيد محبة أبيهم لأخيهم، وقد أدى هذا إلى تآمر إخوته عليه، وبذلك خرج من بلده، وهيأ له من يحمله إلى أرض مصر، وقدر سبحانه أن يحل في منزل رجل صاحب مقام، ليختبر ويبتلى ويتعرف عليه أهل مصر وملك مصر.

وقد حلَّ عند الملك بالمحل الأرفع، لما ثبت من صدقه ووفائه وعفته، وقد أهله ذلك ليتبوأ منصباً من أعلى المناصب، بحيث استطاع أن يأتي بأهله من أرض فلسطين إلى أرض مصر، ومن تأمل لطف الله في تقديره وتدبيره في يوسف وأبيه وإخوته، علم كيف يتحقق رفق الله في خلقه سبحانه، إنه سبحانه- كما قال يوسف عليه السلام ﴿لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف: ١٠٠] إذا شاء شيئا، حققه- تبارك وتعالى- برفق يبلغ الغاية، ويحقق المقصود.

وقد حدثنا ربنا- تبارك وتعالى- عن لطفه في تقديره وتدبيره عندما أراد أن يخلص بني إسرائيل من طغيان فرعون وملئه، ويورثهم الأرض المقدسة، ويري فرعون وملأه منهم ما كانوا يحذرون، ويهلك فرعون وملأه وما كانوا يعرشون،

وقد حدثنا في كتابه عن أمره أم موسى بإرضاعه، وإلقائه في النهر الذي حمله وألقاه في بركة في قصر فرعون، وكيف أدخل محبته في قلب زوجته الملكة، فحفظه الله من القتل بطلبها من فرعون استبقاءَه، فنجا من القتل، كما أعلمنا كيف منعه من الرضاعة، فكان ذلك سبباً لإرجاعه إلى أمه، فتربى في قصر الملك على العزة، وتربى عند أمه على الحنان، ومن نشأ على هذا النمط من الحياة نشأ عزيزاً كريماً صالحاً للقيادة والمواجهة، لا يرهبه تهديد الطغاة ووعيدهم.

ثم أخبرنا ربنا كيف ساق موسى إلى مدين بعيداً عن أهله بسبب قتله المصري، وكيف بقي بعيداً عنهم تلك المدة الطويلة، وقد تكاملت فيها شخصيته، وتنامت فيها قدراته الجسدية والعقلية، لقد تحققت مشيئة الله- وإرادته من خلال لطف الله في تقديره ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦] ارجع إلى سورة القصص، وتأمل اللطف الذي أخبرنا عنه في تقدير الله تعلم كيف تحقق تقدير الله وتدبيره سبحانه.

وانظر إلى لطف الله في هداية خلقه إلى الإيمان، فمنهم من ينظر في بعض آيات الله في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس... والماء المنزل من السماء، فيتفتح قلبه للإيمان، ويسلم وجهه للرحمن.

ومنهم من يطرق سمعه آية قرآنية تتحدث عن الله كقوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ * أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]. فلا تزال تعمل في نفسه، وتسري في كيانه حتى تزيل ظلمات الكفر والجهل، وتغرس فيه الإسلام والإيمان.

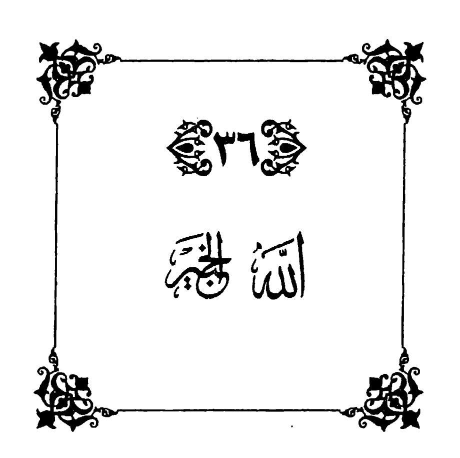
وبعض الناس من الذين غرقوا في ملذات الدنيا وشهواتها، فصرفتهم عن طاعة الله وعبادته، يموت لهم قريب أو صديق أو حبيب، فيفيق مما كان فيه من

الغفلة، فيتصور أنه غداً سيكون هو الميت الذي تنزع منه الروح، ويسجى في الأكفان، ويسلمه الأهل والخلان إلى مصيره المحتوم، ويهيلون عليه التراب، فينكشف عنه الغطاء بلطف الله وتدبيره وتقديره.

وقد قرن الله سبحانه لطفه أو عقب عليه بخبرته، أو علمه وحكمته، أو قوته وعزته، وهذا يدل على أن لطف الله يحتاج إلى ذلك كله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[الشورى: ١٩].

وأنى يكون اللطف لعادم الخبرة، الجاهل، الفاقد الحكمة، الضعيف، ذي الذلة، إن الله اللطيف ينفذ إلى ما يحقق به لطفه في عباده وخلقه ورزقه وهدايته وغير ذلك بعلمه وخبرته، وحكمته، وقوته، وعزته.



أعلمنا ربنا معرفاً بنفسه أنه خبير في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] وقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

والخبرة نوع من العلم، يقول الخطابي: « الخبير: العالم بكنه الشيء، المطلعُ على حقيقته » [شأن الدعاء: ص ٦٣] والدليل على أن الخبير نوع خاص من العلم جَمْعُهُ- سبحانه- بين العليم والخبير في موضع واحد، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان:٣٤] وقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣]. وقوله: ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣].

فلا يصلح في هذه المواضع الثلاثة أن يفسر الخبير بالعليم، لاقترانه به، ولا يقال: إن وصف الله بالخبرة، على معنى أنه يعلم حقائق الأمور لأنه يوحى بالنقص، أي أنه غير عالم بالظاهر، لأن المؤمن عندما يثبت هذا المعنى لربه، يكون مستيقناً بعلمه بظواهر الأمور، فهو مثبت لعلمه بكل شيء، كما نثبت له الظاهر والباطن، ولكن المراد هنا إثبات المعنى الدقيق لاسمه الخبير، ومن فسره بالعلم فهو

على التوسع في المعنى.

وعلى المؤمن أن يؤمن بأن الله- تبارك وتعالى- خبير بعباده جميعهم من الملائكة والجن والإنس لا يخفى عليه خافية منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر:٣١].

وكما هو خبير بعباده، فهو خبير بأعمالهم كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

والله خبير بهم في حال استقامتهم وإحسانهم، وفي حال انحرافهم والتوائهم، قال سبحانه: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٢٨] وقال: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ١٣٥].

ومَنْ عَلِمَ أن الله- سبحانه- خبير، وآمن به إيماناً لا ريب فيه، راقب ربه، وارتدع عن ذنبه ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] فعلمنا بأنه مطلع على ما نصنع يدفعنا إلى غض أبصارنا، وحفظ فروجنا.

كما يدفعنا إيماننا بذلك إلى الالتزام بطاعة الله ورسوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

كما يمنعنا من مقارفة الذنوب، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا * وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦-١٧].

إن حكمه سبحانه بإهلاك المجرمين مبني على خبرته بهم، وبما ارتكبوه من الذنوب والآثام والمعاصي ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١٧].

ولا فرق عنده بين إسرارنا القول أو جهرنا به، فهو عليم بذات الصدور، لأنه الخالق، والخالق لا يجهل خلقه، كما هو بهم لطيف خبير ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ❁ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

وقد أمرنا بالعدل، معللاً أن العدل أقرب للتقوى، ثم أمر باتقائه معقباً على ذلك بأنه خبير بأعمالنا، ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] فالعالم بأن الله خبير بعمله يدفعه علمه إلى تحقيق العدل.

ويأتي الخبير بمعنى المخبر بالأسرار والأحوال الخفية الباطنة، فهو سبحانه العليم بدقائق الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]. نزلت هذه الآية في تمالؤ بعض زوجات الرسول ﷺ عليه، فأطلع الله رسوله على تآمرهما عليه، وعرّفه بما أسرتاه، فلما عرف الرسول ﷺ إحداهما بما كان من سرهما، قالت: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ﴾ قال: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]:

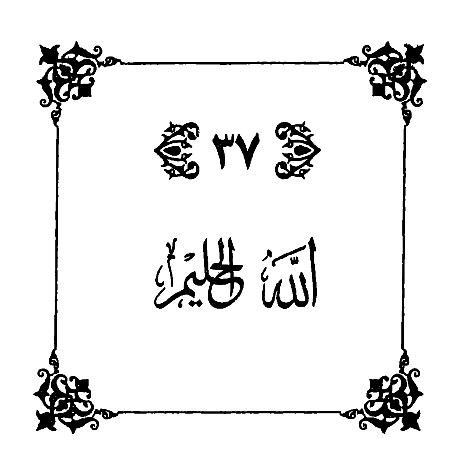
قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]: «العليم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم التي لا يخفى عنه شيء».

وقال: « خبير بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيِّئ، حافظ ذلك ليجازيهم على ذلك كله ».

وقال الغزالي: « الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة، ولا تسكن، ولا تضطرب نفس، ولا تطمئن، إلا وعنده خبره، وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سُمْيَ خِبْرة، وسمي صاحبها خبيراً » [انظر هذه النقول في: المنهج الأسمى: ٢٥٠- ٢٥١].

ومما امتدح الرب به نفسه سبحانه خبرته بنفسه، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] عنى بقول- (فاسأل به خبيراً) في القول الأظهر من أقوال المفسرين- نفسه، فإنه لا أحد أخبر بالله من الله تبارك وتعالى.





عرفنا ربنا سبحانه بأنه حليم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

وأمرنا سبحانه أن نعلم ذلك ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فمن جهل أن الله حليم كان مقصراً وعاصياً.

١- بيان معنى الحليم:

« والحليم- كما يقول الخطابي- هو ذو الصفح والأناة، الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاص » [شأن الدعاء: ص ٦٣].

وقد نبه الخطابي إلى أن « الصافح لا يستحق اسم الحلم مع العجز، إنما الحليم هو الصفوح مع القدرة » [المصدر السابق].

٢- مدى حلم الله عزّ وجل:

ولولا حلم الله وعفوه ورحمته لأهلك الأحياء فوق ظهر الأرض كلِّهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾[الكهف: ٥٨].

ويبلغ السفه والاستهتار بالمشركين والكفرة إلى حد طلب العذاب لأنفسهم، ومع ذلك فإن الحليم سبحانه يحلم ويصفح إلى أجل هم بالغوه ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[العنكبوت: ٥٣] وقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] والقط: الحساب والجزاء.

ويظهر حلم الله في صبره على المشركين والكفار، والعصاة وأهل الذنوب، فترى الضالين يتخذون من دون الله أندادا، ويحادون الله ورسوله، ويجيشون الجيوش لمصارعة رسول الإسلام، وأصحابه وأتباعه، ومع قدرته على إهلاكهم وتدميرهم، تراه يتأنى بهم، ويصفح عنهم، بل يرزقهم ويطعمهم، ويسقيهم، وينزل عليهم كتبه، ويرسل إليهم رسله، ويقيم عليهم الحجة، وينتظر توبتهم وأوبتهم إلى الإيمان والإسلام، كما قال ابن القيم في: [نونيته: ٢/ ٢٢٧]:

وهـو الحلـيم فـلا يعاجـل عبـده بعقوبـة ليتـوب مـن عصـيان

قال ابن كثير: في قوله: (حليم غفور): « يرى عباده وهم يكفرون به، ويعصونه، وهو يَحْكم، فيؤخر، وينظر، ويؤجل، ولا يعجل، ويستر، ويغفر ».

وفي حديث أبي موسى الأشعري الذي يرويه عن رسول الله ﷺ قال: « ليس أحد أصبر، أو: ليس شيء أصبرَ على أذى سمعه مِن الله، إنهم ليدعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم » [البخاري: ٦٠٩٩] وفي رواية عند مسلم: « ما أحد أصبرَ على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له ندا، ويجعلون له ولدا، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافيهم، ويعطيهم » [مسلم: ٢٨٠٤].

٣- اتق غضبه الحليم:

ولكن الحليم سبحانه إذا غضب لا يقوم له شيء ، وغضب الحليم شديد، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عما فعله بالكفرة الظالمين من الأقوام البائدة.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] وقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١] وقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[الفرقان:٣٧- ٤٠].

٤- غضب الحليم على الكفار في الآخرة:

وإذا كان الله حليماً في الدنيا، يتأنى بالكفرة والمشركين، ويرزقهم إلى أجل هم بالغوه، فإنه في الآخرة لا يتأنى بهم، ولا يصفح عنهم، وتسوقهم ملائكة الرحمن إلى النار، فتحيط بهم، فلا يقبل رجاؤهم، ولا يخفف عذابهم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا * وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٢] ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

٥- وجه اقتران الحليم بالغفور والغني والعليم:

وقد قرن الحق- تبارك وتعالى- صفة الحلم بالمغفرة كما قرنها بكل واحدة من صفتي الغنى والعلم، أما المغفرة ففي قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٣٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر: ٤١] ذلك أن الغفور لا بدَّ أن يكون حليماً، فبين الصفتين صلة ونسب.

وأما الغنى ففي قوله: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٣] وإنما قرن بينهما للدلالة على أن حلمه لم يكن عن

حاجة، فهو مع حلمه على عباده غني عنهم غير محتاج إليهم.

وأما العلم ففي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩].

وإنما قرن بين العلم والحلم ليدل على أن حلمه ليس بجهل ما يفعله الضالون، فهو عليم بعباده، لا يخفى عليه من أمرهم شيء، وهو مع علمه بكفرهم وشركهم وضلالهم، وشتمهم له، وتكذيبهم إياه، فإنه يتأنى بهم، ويرزقهم، ويحلم عليهم، أما الذي يحلم على من يكيد له لعدم علمه به، فهذا ليس من باب الحلم، فقد يكون من باب الجهل.

٦- محبة الله للحلماء من عباده المؤمنين:

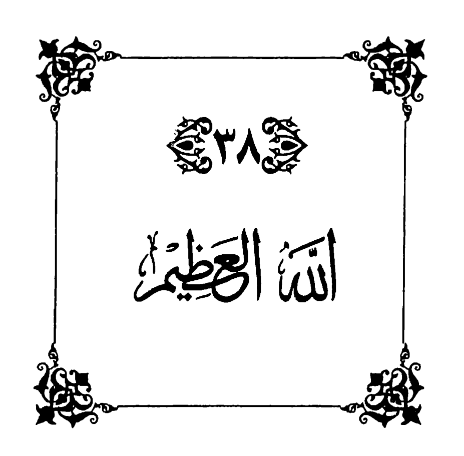
والله يحب أن يتحلى عباده بصفة الحلم، فقد قال الرسول ﷺ لأحد أصحابه عندما ورد عليه أول مرة: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة »[مسلم: ١٨].

وقد أثنى الله على نبيه إبراهيم عليه السلام لاتصافه بصفة الحلم ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] والحلم من صفات الصالحين، فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يهب له من الصالحين ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. فأعلمنا ربنا أنه بشره بغلام حليم ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. مما يدل على أن الحلم من صفات الصالحين.

والحليم محبوب إلى عباد الله كما هو محبب إلى الله، فإن الحليم بعيد عن الغضب، يتسم بالهدوء والرزانة والتأني، يكثر الصفح عن زلات من يسيء إليه، ويستر عيوبهم، ويحفظ الود، ويصون العهد، ولا يستخفه السفهاء، ولا يسارع إلى الانتقام مع قدرته عليه.

وكان رسولنا ﷺ سيد الحلماء، آذاه قومه، ورموه بالكفر والسحر والجنون، كما رموه بالحجارة، وقاتلوه، وحاربوه، فكان يدعو لهم بالهداية، ويقول: « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » فلما قدر عليهم، قال لهم قولة الحليم: « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».





عرفنا ربنا- تبارك وتعالى- بأنه العظيم، قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ بالبقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[الشورى: ٤] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤].

١-التعريف بمعنى العظيم:

والله هو العظيم، لأنه يتصف بصفة العظمة والجلال والكمال والكبرياء، فلا شيء أعظم منه، وهو عظيم في كل شيء، عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في جبروته وكبريائه، عظيم في هبته وعطائه، عظيم في علوه ورفعته، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في مغفرته ورأفته وبره، عظيم في إبداعه وإيجاده وخلقه، عظيم في عزته وعدله وثنائه، فهو العظيم المطلق، فلا أحد يساويه، ولا عظيم يدانيه.

٢- ضلال من نفى عظمة الله بحجة أنه يعظمه بذلك:

ومن نفى عنه عظمته بدعوى أن إثباتها يوهم تشبيهه بالمخلوقين فقد ضل ضلالاً بعيداً، فعظمته سبحانه تخصه، لا يشابهه فيها أحد، وعظمة المخلوقات تتناسب مع عجزها وقصورها، فالفرق بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق كالفرق

بين ذات الخالق، وذات المخلوق.

٣- تمجيد الله وتقديسه والثناء عليه باسمه العظيم:

وقد أمر الله سبحانه بتقديسه باسمه العظيم، كما قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه لما نزلت هذه الآية أن يجعلوها في ركوعهم، ولذلك فإن المصلين على امتداد العصور وفي شتى البقاع يقولون وهم راكعون: « سبحان ربي العظيم ».

وكان الرسول ﷺ يمجد ربه ويقدسه باسمه العظيم عندما يصيبه كرب، أو يَجْزِبُه أمر، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ يدعو عند الكرب يقول: « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش الكريم » وفي رواية: « لا إله إلا الله العظيم الحليم،، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » [البخاري: ٦٣٤٥، ٦٣٤٦. ومسلم: ٢٧٣٠].

ومن تعظيم الله سبحانه الإكثار من ذكره، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[آل عمران: ٤١].

٤- تعظيم الله بتعظيم شعائره وحرماته:

ومن تعظيم الله سبحانه تعظيم شعائره، كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ومن شعائر الله الصفا والمروة وتعظيمهما يكون بالسعي بينهما في الحج والعمرة، ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[البقرة: ١٥٨].

والبدن - وهي الجمال - جعلها الله لنا من شعائره، نتقرب بها إليه، وذلك بنحرها في الأعياد أضاحي، وفي الحج هدياً ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٢] وذكر الله عليها المأمور به في الآية، هو قول: باسم الله، وصواف: قائمة معقولة إحدى اليدين، فتذبح قائمة على ثلاث.

ومن تعظيم الله، تعظيم حرماته، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] وتعظيم حرمات الله تكون باجتناب ما حرمه الله من الربا والزنا وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والسرقة والقتل، وغير ذلك مما حرّمه، فمن اجتنب ذلك كله معظما لله كان له الأجر والثواب العظيم.

ومن تعظيم الله تعظيم كتابه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. وتعظيم كتاب الله يكون بالإيمان به، وتلاوته، وتعلمه وتعليمه، والعمل به، والتخلق بأخلاقه وتحكيم شريعته.

ومن تعظيم الله تبارك عدم التقدم بين يدي الله ورسوله المنهي عنه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

نهى الله عباده المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله، فالذي يقدم قوله أو أقوال العباد من الفلاسفة والمنظرين وعلماء الاجتماع وغيرهم على ما جاءنا به الله ورسوله فإنه يعظم هؤلاء أكثر من تعظيمه لربه، قال ابن عباس رضي الله عنه- في تفسير الآية: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ». [نقله عنه ابن كثير].

وقال ابن جرير: « لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله فيه ورسوله، فتقضوا خلاف أمر الله وأمر رسوله، تقول العرب: فلان يقدم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر دونه » [ابن جرير: ٢٦/ ١١٦].

لقد أكثر المسلمون اليوم من التقديم بين يدي الله ورسوله في الاعتقاد

والإيمان، والأحكام والتشريع، والاجتماع والأخلاق، وغير ذلك، ومقتضى تعظيم الله أن يقدموا ما جاءَهم من عند الله على ما سواه.

٥- من تعظيم الله توقير رسوله — صلى الله عليه وسلم -:

ومن تعظيم الله تعظيم رسوله ﷺ، الذي شهد له ربّه بأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وتعظيم رسوله ﷺ يكون بمحبته وتوقيره، ومتابعته، والأخذ بسنته والاهتداء بهديه، والصلاة عليه، وذكر مناقبه، والتعرف إلى سيرته.

وعلى المؤمن أن يثبت لربّه كل أنواع التعظيم الخالية من النقص كما قال ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢١٤]:

وهو العظيم بكل معنى يوجب التعـ ـــظيم لا يحصـــيه مـــن إنســـان

٦- من تعظيم الله إثبات صفاته من غير تشبيه:

ومن تعظيم الله عدم تشبيهه بخلقه، لأنه- سبحانه- لا شبيه له، ولا مثيل ولا نظير، وعدم نفي صفاته التي وصف بها نفسه بدعوى أن إثباتها يؤدي إلى تشبيه الله بخلقه، فالمؤمن الحق يثبت لله تبارك وتعالى عظمته وعلمه وقدرته واستواءَه ووجهه وغير ذلك من صفاته نافياً عنه المشابهة بخلقه على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] .

فهو يثبت لله السمع والبصر إثباتاً لا يشابه صفات خلقه، كما يثبت له ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين.

ومن تعظيم الله سبحانه أن ننفي عنه الشركاء والأنداد، لأنه المستحق تبارك وتعالى لأن يكون الإله المعبود، والربّ المتفرد بالخلق والإيجاد والتقدير والتدبير.



أعلمنا ربنا- تبارك وتعالى- معرفاً بنفسه أنه شاكر، شكور، وشكور أبلغ من شاكر، « فشاكر اسم فاعل، من شكر يشكر فهو شاكر » [اشتقاق أسماء الله: ١٨٣]. وشكور صيغة مبالغة، أي: عظيم الشكر.

« والشكور: الذي يشكر اليسير من الطاعة، فيثيب عليه الكثير من الثواب، ويعطي الجزيل من النعمة، فيرضى باليسير من الشكر » [شأن الدعاء: ٦٥].

ودلالة الشكر من الله أن يقبل من شكر له عمله، ويثيبه عليه، فالذي يؤدي الحج والعمرة، ويسعى بين الصفا والمروة، ويكثر من التطوع في التعبد يشكر الله ذلك له، ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال تبارك وتعالى في موضع آخر: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]. أي: شاكراً لما جئتم به من الطاعات التي يرضاها الله.

ومن الأعمال التي يشكر الله عليها تلاوة كتاب الله، وإقام الصلاة، والإنفاق سرّاً وعلانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٠].

وفي موضع آخر من كتابة أخبرنا أن الذي يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له ويغفر له، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

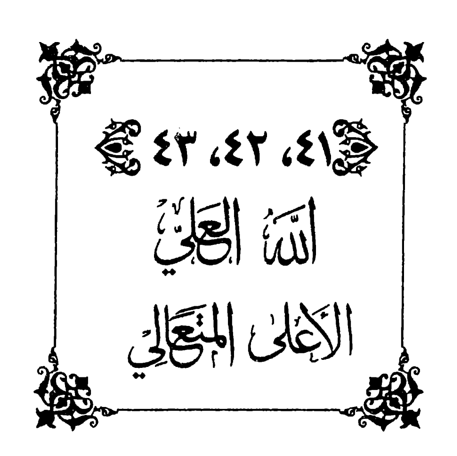
وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الذي يفعل الحسنات يزيد له في حسناته، وعقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]. قال: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

وفي يوم القيامة عندما يدخل الله المؤمنين جنات عدن يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ويلبسهم الله فيها حريراً، يرفع المؤمنون أصواتهم مثنين على ربهم حامدين له، واصفيه بأنه غفور شكور، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٣- ٣٤].

وجماع الأعمال التي يشكرها الله تبارك وتعالى ما شرعه الله من الأقوال والأعمال في حال كون العبد مخلصاً دينه لله تبارك وتعالى.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن رجلين فعل كل منهما فعلاً رضيه الله، فشكر لكل منهما، وغفر له، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثمَّ رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له » [البخاري: ٢٣٦٣. ومسلم: ٢٢٤٤: واللفظ للبخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره، فشكر الله له فغفر له » [البخاري: ٦٥٢. ومسلم: ١٩١٤].



أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه العلي الأعلى المتعالي في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] وقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١] وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد:٩].

فالله- تبارك وتعالى- مدح نفسه، وأثنى عليها بأنه هو العلي، الأعلى، المتعالي.

« والعلي: فعيل من العلو والعلاء، والعلاء: الرفعة، والسناء، والجلال،تقول العرب: فلان عليٌّ ذو علاء، إذا كان جليلاً عظيم الشأن والقدر ».

قال ابن منظور في هذه الأسماء: « واللهُ عز وجل هو العَليّ المتُعَالي العالي الأَعْلَى، ذو العُلا والعَلاء والمعَالي، تَعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً، وهو الأَعْلى سبحانه بمعنى العالي، وتفسير تعالى: جلَّ ونَبَا عن كلِّ ثناء فهو أعظم وأَجلُّ وأَعْلى مما يُثنى عليه، لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ قال الأَزهري: وتفسير هذه الصفات لله سبحانه يَقْربُ بعضُها من بعض، فالعلي: الشريف فَعِيل من عَلا يَعْلُو، وهو بمعنى العالي، وهو الذي ليس فوقه شيء.

ويقال: هو الذي علا الخلقَ فَقَهَرهم بقدرته.

وأَما المتُعَالي: فهو الذي جَلَّ عن إفْكِ المُفْتَرِين، وتَنَزَّه عن وساوس المتحيِّرين،

وقد يكون المُتَعالي بمعنى العالي. والأَعْلى: هو الله الذي هو أَعْلى من كل عالٍ واسمه الأَعْلى، أَي: صفته أَعْلى الصفات، والعَلاءُ: الشرف، وذو العُلا: صاحبُ الصفات العُلا، والعُلا: جمع العُليا، أَي: جَمْعَ الصفة العليا، والكلمة العليا، ويكون العلى جمع الاسم الأعلى، وصفه الله العليا شهادة أن لا إله إلا الله، فهذه أعلى الصفات، ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له، ولم يزل الله عليّاً عالياً متعالياً، تعالى الله عن إلحاد الملحدين، وهو العلي العظيم »[لسان العرب: ٢/ ٨٧٤].

وقال الخطابي: « هُوَ العَالِي القاهر، فَعِيْلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، كالقَدِيْرِ وَالقَادِرِ والعَلِيْمِ والعَالِمِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ العُلُوِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ: عَلاَ، يَعْلُو، فَهُوَ عَالٍ. كَقَوْلِهِ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

ويكون ذلك من علاء المجد والشرف. يقال منه : عَلِي يعلى من علاء . وَيَكُونُ: الَّذي عَلاَ وجلَّ أَنْ تَلْحَقَهُ صِفَاتُ الخَلْقِ، أَوْ تُكَيِّفَهُ أَوْهَامُهُمْ » [شأن الدعاء: ٦٦].

والله- تبارك وتعالى- له جميع أنواع العلو، ومن أنكر شيئاً منها، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وقد جاءَت النصوص بإثبات أنواع العلو لله، وهي:

١-علو الذات، فالله تبارك وتعالى مستو على عرشه، وعرشه فوق مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يونس: ٣].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الرعد: ٢] وقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

والله مستو على عرشه فوق عباده، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد أنكر بعض الذين لم يعرفوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ استواء الله على عرشه، وعلوه على مخلوقاته، وزعموا أن إثبات ذلك يوهم التشبيه، ولو أبصروا لعلموا أن استواءَه يليق بجلاله، ولا يشبه استواء خلقه، أفيلق بعاقل يدعي الإسلام أن يمدح الله نفسه باستوائه على عرشه، وأنه فوق مخلوقاته، فيزعم أن هذه صفة ذم لا مدح، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومن الذين نفوا علو الله على خلقه الذين زعموا- كاذبين- أن الله حَالٌّ في خلقه، فإن مقالتهم تقضي تلبس الله بخلقه، وليس بعال عليهم.

وفي إثبات علو الذات الإلهية يقول [ابن القيم في نونيته: ٢/ ٢١٣]:

فهـو العلـي بذاتـه سـبحانه ... إذ يسـتحيل خـلاف ذا ببيـان
وهو الذي حَقّاً على العرش استوى ... قـد قـام بالتـدبير للأكـوان

٢- علو القهر والغلب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[الزمر: ٤]. فلا ينازعه منازع، ولا يغلبه غالب، وكل مخلوقاته تحت قهره وسلطانه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد وصف الحق- تبارك وتعالى- نفسه بصفات كثيرة تدل على علو القهر والغلب كالعزيز والقوي والقدير والقاهر والغالب ونحو ذلك.

٣- علو المكانة والقدر، وهو الذي أطلق عليه القرآن: « المثل الأعلى » كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] وقوله:﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

فالمثل الأعلى الصفات العليا التي لا يستحقها غيره، فالله هو الإله الواحد الأحد، وهو متعال عن الشريك والمثيل والند والنظير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

وهو حي قيوم ولتمام حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

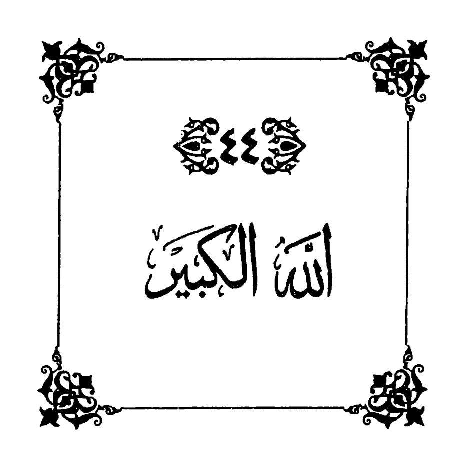
وهو القادر التام القدرة، ولتَمام قدرته لا يصيبه تعب ولا إرهاق ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨].

وهكذا فإن الله له المثل الأعلى، أي: الصفات الكاملة التي لا يخالطها نقص ولا يشوبها باطل بحال من الأحوال.

وفي إثبات كل أنواع العلو للعلي العظيم يقول ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢١٤]:

وهـو العلـي فكـل أنـواع العلـو ... لـه فثباتـه بـلا نكـران





٤٤
الله الكبير

حدثنا الله- تبارك وتعالى- معرفاً بنفسه أنه الكبير، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] وقال: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا تأملت النصوص التي أوردتها، وجدت أن النصوص التي ورد فيها اسم الكبير اقترنت بالعلي أو المتعالي، فالله تبارك وتعالى الكبير الذي ذلت لكبريائه الكائنات، وسجدت لعلوه المخلوقات، من تكبر قصم الله ظهره، ومن تعاظم خفض الله قدره وذكره.

والله تعالى كبير الذات وكبير القدر، فكل شيء بالنسبة لله مهما عظم فهو صغير، وهذا ما يوحي به قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

« والكبير- كما يقول الزجاجي- العظيم الجليل، يقال: فلان كبير بني فلان،

أي: رئيسهم وعظيمهم، ومنه قوله: ﴿ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾[الأحزاب: ٦٧] أي: عظماءَنا ورؤساءَنا. وكبرياء الله: عظمته وجلاله، ومنه قيل: كبرت كبيراً، وعظمت عظيماً، أي: وصفته بالكبرياء والعظمة » [اشتقاق أسماء الله: ٢٦٨].

وقال الخطابي: « الكَبِيْرُ: هُوَ المَوصُوفُ بِالجَلاَلِ، وَكِبَرِ الشَّأْنِ، فَصَغُرَ دُوْنَ جَلاَلِهِ كُلُّ كَبِيْر، وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي كَبُر عَنْ شَبَهِ المَخْلُوقِيْنَ » [شأن الدعاء: ٦٦].

وقد أمر الله- سبحانه- رسوله وأمته أن يكبروا الله بقلوبهم وألسنتهم، وتكبير الله بالقلوب تعظيمه بصفاته وأسمائه، بحيث تستشعر القلوب عظم قدره، وعظيم ملكوته وسلطانه، وتكبيره باللسان بقول: الله أكبر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ١-٣].

وقال: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ١١١].

والذي يعيش في ديار الإسلام يجد التكبير أنشودة المسلمين في صباحهم ومسائهم، فتجد المؤذنين عند انبلاج الفجر في كل يوم يصدحون بالتكبير في سماء المدن والقرى الإسلامية، ثم يتوالى رفع الأذان في الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وفي الأعياد الإسلامية تنطلق الحناجر مكبرة الله تبارك وتعالى في المنازل والطرقات والمتاجر وبعد الصلوات ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويفتتح المصلون صلواتهم بالتكبير، ويصحب التكبير انتقال المصلين إلى الركوع والسجود والرفع منه، ويرفع المضحُّون أصواتهم بالتكبير على ما رزقهم ربهم من بهيمة الأنعام ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ [الحج: ٣٦] وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: ٣٧].

إن التكبير عند المسلمين شعيرة من شعائر الله، يذكرون به الله ويكبرونه، وينادون به إلى الصلاة، ويواجهون به الأعداء في الحروب، فنداءَات التكبير كانت ولا تزال تزلزل قلوب الأعداء، وتثبت قلوب المؤمنين، وبالتكبير يفتتحون صلواتهم، وينحرون ذبائحهم، ولذا فإن أمة الإسلام أمة التكبير، كما جاء وصفها في الكتب السابقة: « **يكبرون الله على كل شرف** ».





أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه حافظ وحفيظ، فالحافظ في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٦٤]. وقال: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٢].

وورد اسم الحفيظ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [سبأ: ٢١]. وقال: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [هود: ٥٧].

وورد الحفيظ في موضع ثالث من كتاب الله، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦].

« والحفيظ: اسم من أسماء الله تعالى، والحفظ معناه صون الشيء من الزوال،ومادة الحفيظ في كل ما تصرف منها ترجع إلى الرعاية والصيانة، والحفيظ مبالغة من حافظ » [موسوعة: وله الأسماء الحسنى : ١/ ٢١٠].

وقال ابن منظور: « الحفيظ من صفات الله عزَّ وجل، لا يَعزُب عن حفظه الأشياءَ كلِّها مثقالُ ذرة في السموات والأرض، وقد حفظ الله على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر، وقد حفظ الله السموات والأرض بقدرته ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والحافظ والحفيظ الموكل بالشيء يحفظه، يقال: فلان حفيظنا عليكم وحافظنا، والحفظة الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها على بني آدم من الملائكة، وهم الحافظون، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الانفطار: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] قال الزجاج: حفظه الله من الوقوع على الأرض إلا بإذنه، وقيل: محفوظاً بالكواكب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[الصافات: ٦-٧] [لسان العرب: ١/ ٦٧٣].

ومن التأمل في النصوص يظهر لنا أن حفظ الله له ثلاثة معاني:

الأول: حفظه للمخلوقات من الزوال والاندثار، فالله بعلمه وقدرته وتدبيره يحفظ الكائنات من الزوال والاندثار حتى يأتي الوقت الذي أذن فيه بزوالها واندثارها، فهو يحفظ السموات والأرض، ولا يثقله ذلك ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] وقال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وهو حافظ كتابه من التغيير والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال الخطابي: « الحفيظ كالقدير والعليم، يحفظ الله السموات والأرض وما فيهما، لتبقى مدة بقائها، فلا تزول ولا تندثر، كقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾[البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] أي: حفظنا حفظاً.

وهو الذي يحفظ عبده من المهالك والمعاطب، ويقيه مصارع السوء، كقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمره». [شأن الدعاء: ٦٧].

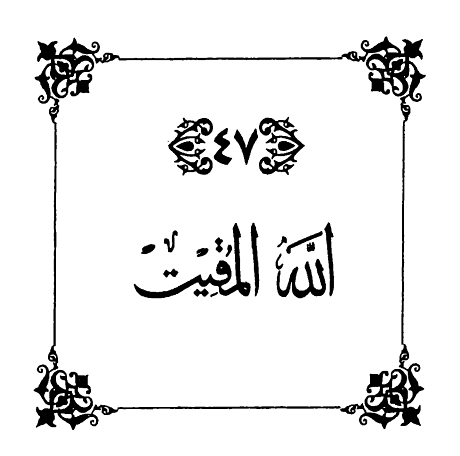
والثاني: حفظ أعمال العباد، بمعنى إحصائها وكتابتها، ومحاسبتهم عليها، فعلم الله محيط بهم، وهو يحصي عليهم أعمالهم، وقد وكل بهم ملائكة يحفظون عليهم أعمالهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢].

وقال الخطابي في هذا النوع: « ويحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم أقوالهم، ويعلم نياتهم، وما تكن صدورهم، ولا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه خافية ». [شأن الدعاء: ٦٨].

والثالث: حفظ أوليائه من الضلال والزيغ، وعصمتهم من الوقوع في الخطايا والذنوب، وحفظهم من أعدائهم، ونصرتهم عليهم، وكل هذا واقع في مدار قوله ﷺ: « احفظ الله يحفظك ».

وهذا النوع هو الذي قال فيه الخطابي: « ويحفظ أولياؤه، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم من مكايدة الشيطان، ليسلموا من شرّه وفتنته»[شأن الدعاء: ٦٨].





من أسماء الله التي عرفنا الله بها المقيت، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

والمقيت: الذي يعطي أقوات الخلائق، وهو من أَقاته يقيته إذا أعطاه قوته، والقوت ما يمسك الرمق من الرزق، وفي الصحاح: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام، وفي الحديث: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) [مسلم ١٠٥٥].

وقال أبو إسحاق الزجاج: « إن المقيت بمعنى الحافظ والحفيظ، لأنه مشتق من القوت: أي مأخوذ من قولهم: قُتُّ الرجل أقوته، إذا حفظت نفسه بما يقوته والقوت اسم الشيء الذي يحفظ نفسه، قال: فمعنى المقيت على هذا: الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ» [لسان العرب: بتصرف واختصار: ٣/ ١٨٣- ١٨٤].

وإليك بعض ما عرف به أهل العلم المقيت:

١- قال الغزالي: « المقيت خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان، وهي الأطعمة، وإلى القلوب، وهي المعرفة » [المقصد الأسنى: ٩٣].

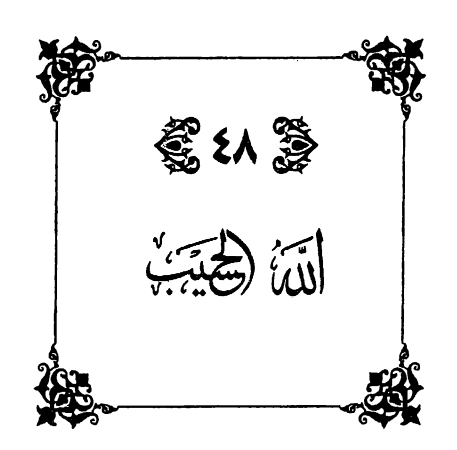
٢- قال القرطبي: «المقيت الذي يعطي كل إنسان وحيوان قوته على ممر الأوقات شيئاً بعد شيء، فهو يمدها في كل وقت بما جعله قواماً لها، إلى أن يريد إبطال شيء منها، فيحبس عنه ما جعله الله مادة لبقائه، فيهلك » [نقلاً عن النهج الأسنى لمحمد حمد: ١/ ٣٤٠].

٣- وقال الخطابي: « والمقيت أيضاً معطى القوت » [شأن الدعاء: ٦٩].

٤- وقال ابن العربي: « المقيت: القادر الذي لا يعجزه شيء، المؤتي لكل شيء قوته » [أحكام القرآن: ٢/ ٧٩٩].

٥- وقال عبد الرحمن السعدي: « المقيت: الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها، وصرفها كيف يشاء، بحكمته وبحمده » [تيسير الكريم المنان: ٥/ ٣٠٢].





من أسماء الله الحسنى التي نتعرف بها إلى ربنا الحسيب وأسرع الحاسبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦]. وقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦].

والحسيب يأتي في اللغة العربية على معنيين: المحاسب، والكافي.

يقول أبو إسحاق الزجاج: « يجوز أن يكون الحسيب من حسبت الحساب، ويجوز أن يكون أحسبني الشيء إذا كفاني » [تفسير أسماء الله الحسنى: ٤٩].

وقال أبو القاسم الزجاجي: « الحسيب: المحاسب على الشيء الموافق عليه، فالله عزَّ وجلَّ حسيب عباده، أي: محاسبهم على أعمالهم ومجازيهم عليها، والحسيب: الكفي، يقال: هذا حسيب فلان، أي: كفيه، ويقال: حسبك كذا، أي: يكفيك، ومنه قوله عزَّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: يكفيك الله، ومن اتبعك من المؤمنين »: [اشتقاق أسماء الله: ٢١٧].

والمعنى الأول مبين في كتاب الله، فالله خلق العباد لعبادته وطاعته، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وسيعيدهم إليه، ويحاسبهم على ما قدموه من خير أو شرّ، والله أحصى على العباد أعمالهم في الدنيا، ودوَّن ذلك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيخرج الله لهم في الآخرة كتب أعمالهم،

ويقال لكل منهم: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وحديث الله عن حسابه عبيده في يوم القيامة حديث طويل ومفصل، ليستعد العباد لذلك اليوم، وليعرفوا كيف ينجون في يوم الحساب.

والذين نسوا يوم الحساب ولم يعملوا له وعاشوا دنياهم غير ناظرين لآخرتهم هؤلاء أهلكوا أنفسهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

والذين لا يؤمنون بيوم الحساب خطرون على الناس والحياة والأحياء ،لأنهم لا يستقيمون على أمر الله ،ويفسدون الحياة بكبرهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وفي يوم الحساب يبعث الله الأولين والآخرين، ويجمعهم على صعيد واحد ،لا يتخلف منهم أحد ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وكما جمعهم بقدرته ،فإنه يحاسبهم تعالى بعلمه ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وحساب الله دقيق، يحاسب على الصغير والكبير، فلا يضيع على العبد عند الله ذرة، ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

وموازين الخالق في يوم القيامة تزن الناس وأعمالهم ،فلا ينقص من أعمال العباد شيء، فالله يحاسب العباد بعدله المطلق، وعلمه المطلق ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

سرعة حسابه سبحانه عباده:

ومع كثرة العباد في يوم المعاد ،فإن الله لا يشقّ عليه حسابهم ،ولا يعجزه ذلك، ويحاسب الله جميع خلقه في ساعة واحدة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

والله يحاسب عباده ،وينشر عليهم صحف الأعمال التي تحوي سجلاً كاملاً لما عملوه في دنياهم ،ويقال لكل منهم: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

والمعنى الثاني للحسيب الكافي: فهو سبحانه بقوته وقدرته وعزته وجبروته ورعايته ونصرته كاف عباده المؤمنين في وجه الكفرة الملحدين الذين يتهددونهم، ويتوعدونهم، ويريدون قهرهم والتغلب عليهم، وما لم تمتلئ قلوب المؤمنين بأن الله حسبهم، وهو كافيهم، لا يستطيعون مواجهة الأعداء والخصوم.

لقد بغى قوم إبراهيم وطغوا عندما حطم أصنامهم، فألقوه في النار، فكان آخر كلامه قبل إلقائه في النار : « حسبي الله ونعم الوكيل » [البخاري عن ابن عباس: ٤٥٦٤].

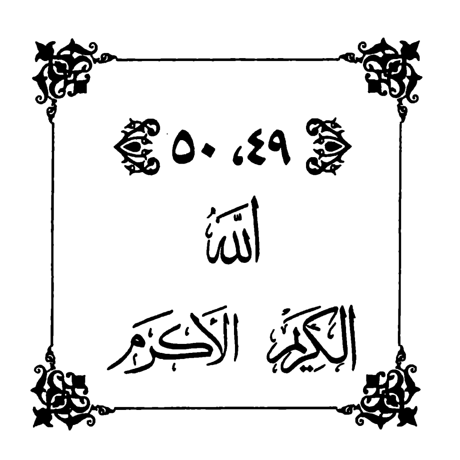
« وعن ابن عباس أيضا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣] قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له ولأصحابه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].[البخاري: ٤٥٦٣].

وقد علمنا الله أن نلجأ إليه، ونعتمد عليه في مواجهة أعداء الله ورسوله ﴿وَإِن

يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأنفال: ٦٢] وقال ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٣٦].

لقد اتجه كثير من أصحاب السلطان في هذا الزمان من الذين يحكمون ديار المسلمين إلى الاعتماد على هيئة الأمم ومجلس الأمن والدول الكبرى، طالبين منهم النصر والتأييد، بل إن كثيرا من المسلمين علقوا قلوبهم بالذين من دون الله، فذلوا وهانوا، ولو توجهنا إلى الله وحده دون سواه، واعتمدنا عليه وحده، لوجدنا عنده النصر والتأييد، ولكان حسبنا ونعم الوكيل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].





من أسماء الله الحسنى التي تعرف الله بها إلى عباده الكريم والأكرم، قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

وكما أن الله تبارك وتعالى هو الكريم، فهو أيضاً الأكرم الذي لا أكرم منه ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤].

وهو سبحانه: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وكما هو- سبحانه الكريم الأكرم ذو الجلال والإكرام، فإن عرشه كريم ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وكتابه المنزل على رسوله وهو القرآن كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] ورسوله جبريل الذي حمل الكتاب إلى محمد ﷺ رسول كريم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٠].

ورسوله محمد ﷺ رسول كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٤١].

« والكريم- كما يقول أبو القاسم الزجاجي-: الجواد، والكريم: العزيز،

والكريم: الصفوح، هذه ثلاثة أوجه للكريم في كلام العرب، كلها جائز وصف الله- عز وجل- بها » [اشتقاق أسماء الله: ٣٠٢].

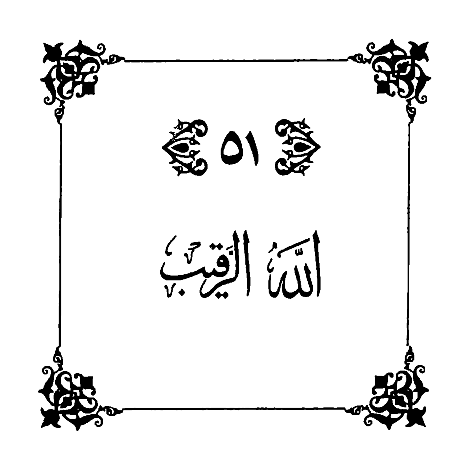
وكرمه تبارك وتعالى ليس له حدود، وجوده فوق كل جود، يسأل فيعطي، كما يعطي من غير سؤال، ومن كرمه- كما يقول أبو سليمان الخطابي-« أنه يبدأ بالنعمة قبل الاستحقاق، ويتبرع بالإحسان من غير استثابة، ويغفر الذنب، ويعفو عن المسيء، ويقول الداعي في دعائه: يا كريم العفو، فقيل: إن من كرم عفوه، أن العبد إذا تاب عن السيئة، محاها عنه، وكتب له مكانها حسنة » [شأن الدعاء: ٧١].

وقال الغزالي- رحمه الله- في اسم الله الكريم: « الكريم الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب، وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف، فهو الكريم المطلق، وذلك لله سبحانه وتعالى فقط » [المقصد الأسنى: ٩٦].

والله- تبارك وتعالى- الكريم تفضل علينا معشر بني آدم، فكرَّمنا على كثير من خلقه ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولكن أكثر بني آدم غرَّهم كرم الله، فلم يقوموا بحق التكريم، وكان حقه أن يعبدوه ويطيعوه، فإذا هم يعصونه ويكفرون به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ٦-١١].





عرفنا ربنا أن من أسمائه الحسنى الرقيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[الأحزاب: ٥٢].

وقال حاكياً قول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال أبو القاسم الزجاجي: « الرقيب: الحافظ، وهو مما جاء على فعيل بمعنى فاعل، بمنزلة شهيد بمعنى شاهد، وعليم بمعنى عالم، وسميع بمعنى سامع، وكفيل بمعنى كافل، وكذلك حفيظ بمعنى حافظ ». [اشتقاق أسماء الله: ٢١٦].

وقال أبو سليمان الخطابي: « قال الزجاج: الرقيب: الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

والرقيب في حق الله تعالى هو الذي أحاط علمه بعباده، لا تخفى عليه خافية منهم، ظاهرهم وباطنهم لديه سواء، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال:﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

هو يحصي على عباده أعمالهم وأقوالهم وأنفاسهم، لا يخفى عنه مثقال ذرة من أعمالهم، سواء عملت في باطن الأرض، أو في أجواز الفضاء، في ظلمة الليل، أو في وضح النهار، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

قال ابن القيم: [النونية: ٢/٢٢٨]

وهو الرقيب على الخواطر واللوا　　حظ كيف بالأفعال بالأركان

وإذا تحقق معنى الرقيب في قلب العبد، وملك عليه زمام نفسه، أورثه ذلك التقوى، وراقب نفسه، أن لا يراها حيث نهاها، ولا يفتقدها حيث أمرها، وتأتيه المغريات والشهوات التي تدير الرؤوس، يسوقها شياطين الجن والإنس، كي يدخلوا العباد في متاهات الباطل، وظلمات الفساد، فتأتي رقابة الله التي استقرت في قلب العبد، فكانت حماية ووقاية، علم العبد أن الله رقيب عليه، عالم به، وعلم أن الملائكة الكرام الكاتبين الذين يرقبون أعماله وأقواله، يطلعون عليه، ويدونون كل ما يصدر عنه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

لقد أدخلت وسائل الإعلام الفساد- اليوم- إلى المنازل والمخادع من غير أن يستطيع أحد منعها، وأعظم ما يقي شرّها هو غرس رقابة الله في النفوس، حتى تكون حائلا بين العبد ومعصية الله.

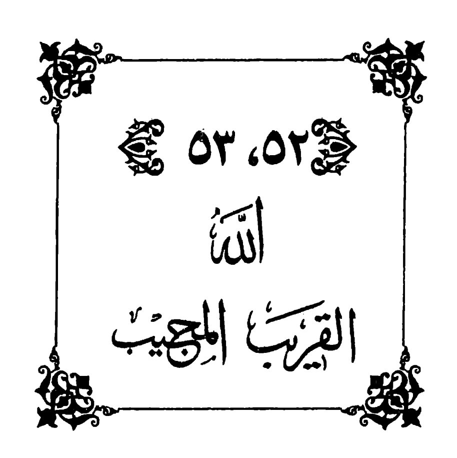
إن غرس الرقابة في النفوس عبر تعريف العباد بصفات الله، هي الضمان لبناء النفسية الإسلامية الأصيلة التي تخاف الله وتخشاه، فلا تمتد اليد إلى الحرام، ولا تنظر العين إلى الحرام، وإذا دخل المال الحرام جيب التقيّ رآه كالثعبان الذي أدخله في جيب قميصه، لا يهدأ له بال حتى يتخلص منه، وقد يزيد عليه كفارة لذنبه.

ومتى راقب العبد ربّه أحسن قوله وعمله، فبلغ درجة الإحسان للملك

الديان، وما أحسن قول الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأنَّ غداً للناظرين قريب





من أسماء الله الحسنى الطيبة المباركة التي تعرف العباد بربهم وتدلهم عليه: القريب والمجيب، وقد ورد هذان الاسمان متجاورين في كتاب الله فيما حكاه الله عن نبيه ورسوله هود عليه السلام في دعوته لقومه أن يستغفروه ويتوبوا إليه من شركهم وكفرهم ومعاصيهم معلماً إياهم أنه قريب يسمع دعاءَهم واستغفارهم، ويقبل رجاء من دعاه ويجيبه ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وقد أعلمنا تبارك وتعالى عن نبيه نوح أنه استجاب دعاءه ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

ونلحظ من خلال النصوص أن هناك صلة بين قرب الله من عباده وإجابته لهم، فالقرب يدل دلالة واضحة على أنه سميع دعاءَهم، لا يخفى عليه خافية مما يدعونه ويطلبونه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

١- معنى القريب والمجيب:

« والقريب الذي ليس ببعيد، فالله عز وجل قريب ليس ببعيد، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].أي أنا قريب الإجابة » [اشتقاق أسماء الله: ٢٥٠].

وقال الخطابي: « القريب: معناه أنه قريب بعلمه من خلقه، قريب ممن يدعوه بالإجابة » [شأن الدعاء: ١٠٢].

وهذا الذي ذكره الزجاجي والخطابي من لوازم قربه سبحانه، وإلا فإن الله قريب من عباده حقيقة، ويمكنك أن تدرك ذلك إذا استحضرت معنى الأثر القائل «ما السموات السبع، والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم».

« والمجيب – كما يقول الزجاجي- اسم الفاعل من أجاب يجيب فهو مجيب، فالله- عزَّ وجل- مجيب دعاء عباده إذا دعوه، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فالإجابة والاستجابة سواء ». [اشتقاق أسماء الله: ٢٥٤].

وقال أبو سليمان الخطابي: « هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ويقال: أجاب واستجاب بمعنى واحد [شأن الدعاء: ٧٢].

والقريب والمجيب اسمان حبيبان إلى النفوس، غنيان بالمعاني الرائعة والدلالات النيرة، ولفظهما يشف عن معناهما كما يشف الكأس الصافي الرائق عما فيه من الماء الزلال.

إن الله الواحد الأحد القريب عليم بكل شيء، سميع لكل شيء، يبصر كل شيء، وقد أحاط علمه وسمعه وبصره بالداعين ودعائهم، والسائلين وسؤالهم، والمظلومين وندائهم، والملهوفين واستغاثتهم، وقد وعدهم جميعاً إذا دعو بدعوى ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم أن يجيبهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إن الله يأمرنا بالدعاء (ادعوني) ووعدنا بالإجابة (أستجب لكم) والدعاء

هو العبادة، ومن يرفض أن يعبد ربه فإن مصيره إلى النار ذليلاً حقيراً صاغراً ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]..

وإذا وعد بالإجابة فإنه لا يخلف وعده، وسينجزه حتماً، وقد بين لنا رسولنا ﷺ أن الإجابة تكون بواحدة من ثلاث، إما أن يؤتى سؤله، أو يدفع عنه من البلاء مثله، أو يدخر له أجر الدعاء إلى يوم القيامة.

وقال سبحانه محدثاً عن نفسه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]

وقد ضَمَّن ابن القيم شيئاً من معنى هذه الآية في قوله:

وهو المجيب يقول من يدعو أجـ ـــبه أنا المجيب لكل من ناداني

إن الآية تقطر رقة ونداوة، والله يحدثنا فيها عن نفسه مجيباً عمن سأل عنه، وقد قال الصحابة للرسول ﷺ: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فأخبر أنه قريب، يسمع الدعاء والنداء، ودعاهم للاستجابة إليه بالإيمان والعبادة والطاعة، وسؤاله أن يهديهم إليه، ويدلهم عليه، وطلبهم منه خير الدنيا والآخرة.

أي فتوحات إلهية ربانية تحويها الآية الكريمة التي يعرفنا فيها ربنا أنه إله عظيم كبير سبحانه، ليس كآلهة المشركين من الأصنام والأوثان والنيران ونحوها.

٢- آلهة المشركين لا تسمع الدعاء ولا تجيب الرجاء:

إن تلك المعبودات لا تصلح للعبادة، وهي آلهة باطلة، لا تسمع من دعاها، ولا تبصره، ولا تعلم به، ولا تجيب دعاءه، ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وعندما يدعوها عبّادها في يوم القيامة فإنها لا تجيب

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢]. ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤].

لقد ضل من عبد غير الله ضلالاً كبيراً، لقد دعوا غير الله فلم ينفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

٣- مجيب المضطر إذا دعاه:

وأعظم ما تكون إجابة الرب لعباده حال الافتقار إليه بصدق وإخلاص، وأكثر ما يكون ذلك عندما تنقطع أسباب الخلائق، ولا يبقى إلا الله الواحد الأحد، كالذين ثار عليهم البحر وماج، وأرغى وأزبد، وقذفت بهم موجة، حتى إذا كانوا عليها في الذروة انحطت بهم إلى واد سحيق، وفي كل مرة يظنون أن تلك آخرتهم، وأنه لم يبق لهم إلى الحياة من سبيل، عند ذلك يتوجهون بالدعاء لله مخلصين له الدين،لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وهذا هو الذي يسميه القرآن دعاء المضطر الذي أثنى سبحانه على نفسه بأنه يجيب دعاءَه ويحقق رجاءَه، كقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [النمل: ٦٢].

قال ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢٢٩]:

وهــو المجيــب لــدعوة المضــطر إذ   يــــدعوه في ســــر وفي إعــــلان

وقد تحدث القدامى والمحدثون عن قصص المضطرين الذين أحاط بهم أعداؤهم بعيداً عن الأنصار والأعوان، أو سقطوا في جب لا يصل إليهم فيه أحد، أو أطبق على فم غار أووا إليه صخرةٌ أغلقته، أو أصاب طائرتهم خلل فأخذت تتأرجح بهم في الفضاء، أو وقعوا في غابة أحاطت بهم فيها وحوشها من الأسود أو النمور أو الأفاعي، فلم يجدوا من سبيل إلى النجاة إلا أن يدعو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فينجيه وما ظن أنه سينجو، ويؤوب سالماً بعد أن يئس من الحياة، إنه الله القريب المجيب الذي لا تخفى عليه خافية من أمر خلقه، القادر على كل شيء، الذي له جنود السموات والأرض.

٤- أما آن لنا نستنصر بالله:

لقد بحت أصوات كثير من الذين ينتسبون إلى الإسلام وقد أحاطت بهم الخطوب، وألمت بهم المصائب، فأذلت رجالهم، وسُفِكَت دماؤهم، وانتهكت حرماتهم، وذبح أطفالهم، وانتهبت أموالهم وخيراتهم، بحت أصواتهم وهم يدعون هيئة الأمم ومجلس الأمن والدول الكبرى، فلم يؤبوا إلا بما آب به عابد الشيطان ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

ولو أصلحوا حالهم مع ربهم، وكانوا مسلمين كما أرادهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، ورفعوا أصواتهم بالدعاء إلى ربهم، مخلصين له الدين، لنصرهم وأعزهم، ورفع عنهم الذلة والمهانة، نسأل الله الواحد الأحد أن يجعل للمسلمين فيئة إليه، تغسل عن المسلمين أدرانهم، وتعيدهم إلى ربهم، نابذين أعداء الله، متولين أولياء الله، إنه نعم المولى، ونعم المجيب.

٥- الذين استجاب الله دعاءَهم:

وقد حدثنا- ربنا تبارك وتعالى- في كتابه عن بعض من دعاه من خلقه

فاستجاب له، لقد دعا نوح ربّه على قومه، فاستجاب الله دعاءَه وحقق رجاءه، وأهلك القوم الظالمين، وأنجى القوم المؤمنين ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥] ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦- ٧٧].

وحطم إبراهيم أصنام قومه، فألقوه في نار عظيمة مستعرة شديد حرها، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فأنجاه الله من النار، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩- ٧٠].

ونبي الله أيوب عليه السلام مكث به بلاؤه صابراً محتسباً ثماني عشرة سنة، فلما تشكك صاحباه اللذان بقيا على مودته ومحبته في حاله، شكى إلى ربه، فما أسرع أن أجاب الله دعاءَه، فكشف ضره، وأعطاه ما سلبه منه ومثله معه ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٤].

ونبي الله يونس ذهب مغاضباً، فكان من أمره أن ألقي في البحر، فابتلعه حوت عظيم: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقد طلب أنبياء الله إبراهيم وزكريا وغيرهم من ربهم الذرية الصالحة فوهب لهم ما طلبوه، واستغاثت الجيوش المسلمة حين المواجهة مع الأعداء الكفرة ، فأمدهم الله بجند من عنده، وأنزل عليهم نصره، وهزم أعداءَهم.

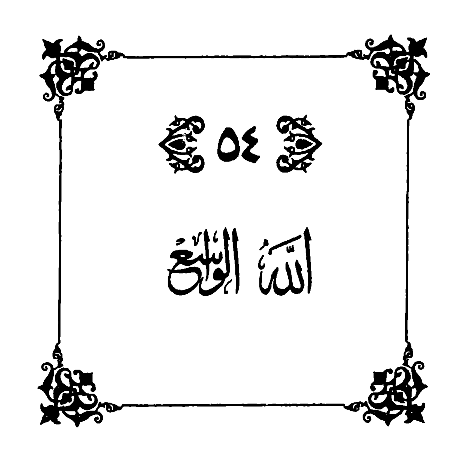
والدارس لسيرة الرسول ﷺ يعلم كيف كان الله يجيب دعاءَه، ويحقق رجاءَه،

فبدعوته كانت السماء ترسل ماءَها، وعندما يؤذي المطر الناس يدعو ربه فيتوقف المطر، وتصحو السماء، وكان يدعو الله بالنصر، فينزل نصره عليه، وكان يدعو بالبركة في الطعام أو الماء فيبارك فيه، حتى يكفي القليل الجمع الكثير، ويدعو للمريض فيبرأ، ويدعو بالهداية للرجل أو المرأة أو القوم فما أسرع أن يجيب الله دعاءه، فيؤمنوا ويهتدوا.

وليست إجابة الدعاء قصراً على الرسل، فلا يزال الداعون يدعون هذا الرب العظيم الكريم الحليم، فيجود، وهو الجواد، ويجيب وهو المجيب، سبحانه واهب العطايا، منزل الخيرات، الذي لا يغيض عطاؤه، ولا تنفد خزائنه، ولا يتبرم بدعاء الداعين، وسؤال السائلين، اللهم هب لنا إيماناً صحيحاً راسخاً، ويقيناً لا ريب فيه، واجعلنا من عبادك الصالحين، ونجنا من أهوال الدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين.

مجيبَ السائلين حملتُ ذنبي ... وسرت على الطريق إلى حماكا
ورحت أدق بابك مستجيراً ... ومعتذراً ومنتظراً رضاكا
دعوتك يا مفرج كل كرب ... ولست ترد مكروباً دعاكا
وتبت إليك توبة من تراه ... غريقاً في الدموع ولا يراكا





عرَّفنا ربنا- تبارك وتعالى- أنه الواسع في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].وقوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

١- معنى الواسع:

« والواسع- كما يقول ابن منظور- هو الذي وسع رزقه جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر. وقال ابن الأنباري: الواسع من أسماء الله الكثير العطايا، الذي يسع لما يسأل، ويقال: الواسع المحيط بكل شيء، من قوله:﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾[الأعراف: ٨٩]. والسعة نقيض الضيق». [لسان العرب:٣/ ٩٢٥].

ويرى الخطابي -رحمه الله تعالى- أن الواسع «هو الغني الذي وسع غناه مَفَاقِرَ عباده، ووسع رزقه جميع خلقه، والسعة في كلام العرب الغنى، ويقال: الله يعطي عن سعة، أي عن غنى » [شأن الدعاء: ٧٢].

وليست السعة قصراً على غنى الله وجوده وإحسانه فحسب، كما يقول الخطابي، بل هي أوسع من ذلك وأعظم، فهو واسع في علمه، كما هو واسع في رحمته، وتشريعه، وحكمته، ومغفرته، وغير ذلك من صفاته الجليله كما سبق نقله عن ابن منظور.

٢-سعة جود الله وكرمه:

أما سعة جود الله وكرمه، وإحسانه وبسط نعمه فباب كبير، يلحظه العباد فيما ينزله الله من السماء من ماء، وما تجري به الأنهار، في جنبات الأرض مشرقه ومغربه، وما يخرجه الله من نبات الأرض وأشجارها وثمارها، وما تموج به البحار من خيرات مما لا يعلمه ولا يحصيه إلا رب العباد، ومنه ما يوسع الله به على بعض خلقه دون بعض، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

٣- سعة علم الله:

وعلم الله أيضاً واسع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]. وقال:﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ﴾ [الأعراف:٨٩].

ولسعة علم الله فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا من الجماد، ولا من الحيوان، ولا النبات، سواءً كان صغيراً أو كبيراً، ظاهراً أو خفياً.

وقد ضرب الله لنا الأمثال لنتعرف على سعة علمه تبارك وتعالى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقد أخبرنا ربنا عن سعة علمه في الآيتين السابقتين بمثل ضربه، كي يفقهه أولو الألباب، ضرب الله مثلا لكلماته التي خلق بها الخلق، وأوجد بها الكون، بأن أشجار الأرض كلها لو تحولت إلى أقلام يكتب بها، وتحولت البحار إلى مداد،

وفنيت بحار الأرض كلها، وجيء بقدر هذه البحار سبع مرات، لفني هذا كله، وبقيت كلمات الله لم تنفد.

٤-سعة رحمة الله ومغفرته:

والله واسع في رحمته، كما قال سبحانه: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال حملة العرش في دعائهم ربهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

وسعة رحمة الله تظهر فيما أنزله الله على عباده من الكتب، وفيمن أرسله من الرسل لهدايتنا إلى الصراط المستقيم، كما تظهر في خلقنا وإيجادنا ورزقنا وإطعامنا، وهذا باب كبير، حيثما نظر العبد في كون الله الواسع شاهده ظاهراً مشهوداً.

والله واسع في مغفرته وعفوه فمهما عظمت ذنوب العباد، فإن عفو الله ومغفرته أوسع وأعظم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ النجم: ٣٢].

وقد دلنا ربنا على سعة مغفرته بقوله: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

وحدثنا عن حملة العرش أنهم يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٥- سعة خلق الله وإيجاده:

والله واسع في خلقه وإيجاده، فهذه الأرض سهولها وجبالها وبحارها وأنهارها واسعة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرعد: ٣].

وتلك السماء واسعة في بنائها ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

ومع سعة الأرض والسماء وما فيهما وما بينهما، فإن الله خلق خلقاً أوسع من ذلك ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦- سعة شريعة الله:

والله واسع في تشريعه وحكمته، ومن هنا فإن الشريعة التي أنزلها الله تفي بكل حاجات العباد، وهو يوسع عليهم في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، قال تعالى في توجه العباد في صلاتهم عندما لا يستطيعون استقبال البيت الحرام: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

٧- لا حدود لهذه الصفة:

والله واسع في غير ذلك من الصفات، فهو واسع في قدرته، واسع في حلمه، والواسع هو الذي لا نهاية لسلطانه وإحسانه وغناه وعطاياه وحلمه ورحمته، ولا يتصف بهذه الصفة على هذا النحو إلا الله تبارك وتعالى، فرحمة العباد وإحسانهم وغناهم وحلمهم مهما عظمت، فإن لها حدوداً تتناهى إليها.

وتتجلى هذه الصفة في الدار الآخرة في حق المؤمنين في جنات النعيم، حيث يعطيهم عطاء بغير حساب، ويقول لهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[ص: ٥٤].

٨- هذه الصفة تفتح باب الأمل:

وهذه الصفة (الواسع) تفتح للعباد باباً واسعاً عندما تواجههم العقبات والصعاب، ويأتي الشيطان يوسوس في صدورهم بالشر، ليصرفهم عن طاعة الرحمن، فالشيطان يوسوس للعباد داعياً إياهم إلى البخل وعدم إنفاق المال في محاب الله، خشية الفقر، فيأتي علم العبد بسعة رزق الله ليبعد وساوس الشيطان ويزيل

آثارها ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وعندما يأتي أهل الضلال يخوفون المؤمنين بما يملكونه من ثروة وغنى يحضرنا قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣].

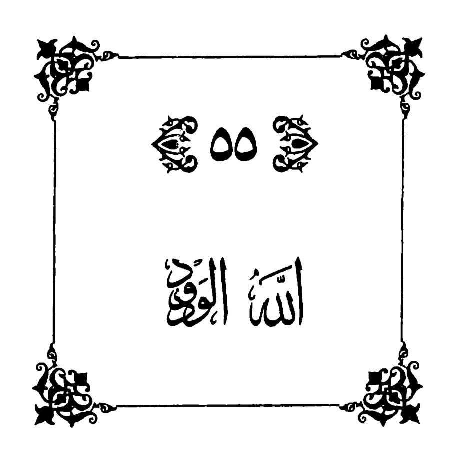
وعندما يطلب الفقير الزواج، يأتي الوعد من الله بتوسيع الرزق على من يريد إعفاف نفسه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. وعندما لا يكون مجال لحل النزاع بين الزوجين، ويخشى كل منهما أن تضيق به الحال بعد الطلاق، فلا يجد ما يحتاج إليه في معاشه يأتي وعد الله سبحانه بالتوسيع على كل منهما: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

وعندما يسوم الظالمون عباد الله الصالحين الخسف، فعليهم أن يعلموا أن أرض الله واسعة، فيها مراغماً كثيراً وسعة، فعلى المسلم أن ينشد المكان الآمن الذي يستطيع فيه عبادة ربه ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] وقال: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ [النساء: ١٠٠].

وأما الذين يسامون الخسف؛ ولا يبحثون عن المراح الآمن الذي يمكنهم اللجوء إليه، ويرضون بالقعود في ديارهم، فهؤلاء ظلموا أنفسهم، وتخاطبهم الملائكة قائلين لهم عندما ينزل الموت بساحتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٧- ٩٨].

وإذا زلت بالعبد قدمه، وعصى ربَّه، فعليه أن يعلم أن رحمة الله واسعة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وإن ضاقت به الحال، وكره ذلَّ السؤال، فليتوجه إلى من يحب السؤال، ذي السعة والفضل والإنعام: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٣] ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[النور: ٣٢].



من أسماء الله الحسنى التي يلذها السمع، ويهتز لها القلب « الودود »، قال تعالى حاكيا مقالة نبيه ورسوله شعيب لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

« والودود – كما يقول الزجاجي-: فعول بمعنى فاعل، كقولك: غفور بمعنى غافر، وصبور بمعنى صابر، وشكور بمعنى شاكر، فيكون الودود في صفات الله – عزَّ وجل- على هذا المذهب أنه يود عباده الصالحين ويحبهم، والود والموادة والمحبة في المعنى سواء، فالله عز وجل ودود لأوليائه والصالحين من عباده، وهو محب لهم » [اشتقاق أسماء الله: ٢٦٢].

والودود المتحبب إلى عباده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، الدالة على جلاله وكماله، فالله أرسل الرسل، وأنزل الكتب ليعرف العباد ربهم، وكان أعظم ما تحبب الله به إلى عباده، تلك الصفات التي وصف بها نفسه، حتى إذا لا مست القلوب رأت ربّاً رحيماً عظيماً كريماً قوياً قادراً، له الجلال والكمال والعزة والسلطان، فعند ذلك تفيء إليه، وتقبل عليه، وتتخذه إلهاً معبوداً، وبذلك تتخلص من العبودية للطواغيت والآلهة الباطلة، فتنال سعادة الدنيا والآخرة.

والله يتودد إلى عباده بما أسبغ عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي

الكون من حولهم، فقد كرم الله بني آدم، وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلاً، ومن ذلك أنه خلقهم في أحسن تقويم، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنزل عليهم بركات من السماء، وأخرج لهم خيرات الأرض.

ومن نعمه التي يتودد بها إلى عباده ما أرسل إليهم من الرسل، وما أنزل إليهم من الكتب، وما علمهم إياه من العلم الإلهي النبوي الذي أنقذهم به من الضلالة، وبصرهم به من العمى.

وتودد الله إلى العصاة من عباده، فعرفهم بسعة رحمته، وعظيم مغفرته، ودعاهم إلى الفيئة والرجوع إليه، ووعدهم على ذلك أن يقبل توبتهم، ويبدل سيئاتهم حسنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

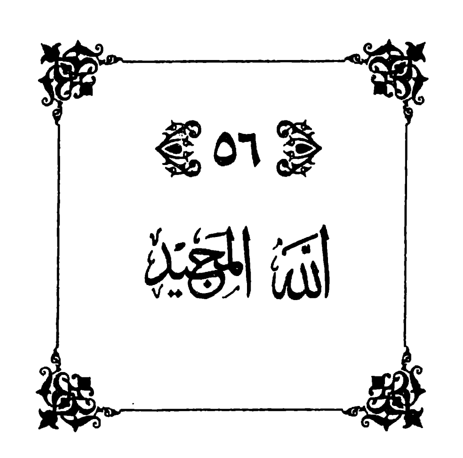
ويتودد الله إلى رسله وأنبيائه وأتباعهم من المؤمنين، هؤلاء هم القوم الذين لهم ود الله ومحبته، وهداياه إليهم دائمة متصلة، أنوار في النفوس، وطمأنينة في القلوب، وحياة طيبة في الدنيا، تغشيها السكينة، وفي الآخرة يحل الله عليهم رضوانه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أكلها دائم وظلها.

ويأتي الودود بمعنى المودود، أي الذي يحبه المؤمنون به حباً يملك عليهم نفوسهم وقلوبهم، وذلك أعظم ما عبده به العابدون، وتقرب إليه المتقربون: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

فالله يتودد إلى عباده، ويوده عباده، وفي ذلك يقول ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢٣٠]:

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان





من أسماء الله الحسنى التي عظم بها نفسه، وتعرف بها إلى خلقه: المجيد، قال تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٣].

ووصف الحق تبارك وتعالى كتابه بالمجيد في موضعين، قال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[ق: ١] وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢] ووصف الله عرشه بأنه مجيد في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٥].

« والمجيد- كما يقول الخطابي- الواسع الكرم، وأصل المجد في كلامهم السعة يقال: رجل ماجد إذا كان سخياً واسع العطاء ». [شأن الدعاء: ٧٤].

وقال ابن منظور: « المجد في اللغة المروءة والسخاء، والمجد الكرم والشرف، والمجد الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي، ورجل ماجد: مفضال كثير الخير شريف، والمجيد فعيل للمبالغة، وفعيل أبلغ من فاعل، فكأنه يجمع معنى الجليل والوهاب والكريم » [لسان العرب بشيء من الاختصار: ٣/ ٤٤٠].

وقال ابن القيم [في نونيته: ٢/ ٢١٥] في إثبات المجيد للرحمن الرحيم:

وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ... ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

والله المجيد الذي لا مجد يشابهه أو يدانيه، فله المجد الأعلى، والشرف التام، ولذلك استحق سبحانه التمجيد والتعظيم والتسبيح والتنزيه، وخير ما يمجد به ويعظَم ما اصطفاه لنفسه من التعظيم، وقد علمنا سبحانه أنواع التعظيم والتمجيد، كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك هو بيان للكيفية التي نمجده بها، فكل أسمائه وصفاته، هي من باب التمجيد لله رب العالمين، فقولنا: هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، العزيز الوهاب، مالك الملك، المعزّ، المذل، الخافض الرافع، الكريم الحميد، السميع البصير- كل هذا من باب التمجيد لله الواحد الأحد، وقد صح في الحديث، أن العبد إذا قرأ في صلاته: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال الرب: « حمدني عبدي » فإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال الرب: « أثني علي عبدي » فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال: « مجدني عبدي».

ووصف الحق- تبارك وتعالى- كتابه بالمجيد، لأنّه أشرف كتاب وأعظم كتاب، وهو كلام الله تبارك وتعالى، وقد بلغ غاية الكمال والتمام في الفصاحة والبلاغة، كما بلغ الغاية فيما حواه من العلوم، خاصة العلوم المعرفة بالله والدالة عليه.

ووصف عرشه الذي استوى عليه بالمجيد، فالله لا يختار لنفسه إلا الأفضل والأتم والأكمل، والأنظف، والألطف، ولذلك حق أن يكون مجيداً.





أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- وهو يعرفنا بنفسه بأنه شهيد على خلقه قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

١-تعريفات أهل العلم لاسمه الشهيد:

« والشهيد في اللغة- كما يقول أبو القاسم الزجاجي- بمعنى الشاهد، كما أن العليم بمعنى العالم، والرحيم بمعنى الراحم، والشاهد خلاف الغائب، تقول العرب: « فلان كان شاهداً لهذا الأمر » أي لم يغب عنه، فالله عز وجل لما كانت الأشياء لا تخفى عليه كان شهيداً لها، وشاهدا لها، أي عالماً بها وبحقائقها علم المشاهد لها، لأنه لا تخفى عليه خافية.

والشهيد أيضاً في اللغة: الشاهد الذي يشهد بما عاين وحضر، كما يقال: «فلان شاهد فلان وشهيده » كما قال عز وجل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] أي شاهداً ».

وقال ابن الأثير: « الشهيد: الذي لا يغيب عنه شيء، يقال: شاهد وشهيد، كعالم وعليم، أي أنه حاضر يشاهد الأشياء ويراها » [جامع الأصول: لابن الأثير: ١/ ١٧٩].

وقال ابن العربي: « الشهيد الحاضر مع كل موجود بالقدرة والعلم والسمع والبصر » [أحكام القرآن: ٢ / ٨٠٠].

وقال ابن القيم: « من أسمائه الشهيد، الذي لايغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله » [التفسير القيم: ١٩١].

٢- أثر الإيمان باسمه الشهيد:

للإيمان باسم الله الشهيد أثر كبير في صلاح العبد وقوة إيمانه ويقينه، ومن آثار الإيمان الطيبة بهذا الاسم ما يأتي:

١-إذا أيقن العبد أن الله شهيد عليه دائماً وأبداً في كل أحواله، لا يغيب عنه من أمره شيء لا في أقواله ولا أفعاله، فإنه يديم مراقبة ربّه تبارك وتعالى، فهو يعلم أن علم الله محيط به، ومحيط بكل ما في الكون صغيرة وكبيرة ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] .

إن رقابة العباد وشهادتهم محدودة بأوقات، ولا بدَّ لرقابة العباد أن تتوقف شيئاً ما، فالعبد قد ينام، وقد يغفل، وقد يضعف، وأخيراً لابد أن يموت، أما الله فرقابته دائمة تامة، فإنه حي لا يموت، وفي ذلك يقول عيسى عليه السلام فيما حكاه الله عنه في يوم القيامة: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقد قرر الحق- تبارك وتعالى- هذه الحقيقة في موضع آخر فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

٢- شهادة الله أعظم شهادة، فالله- سبحانه- هو الأعظم والأعلى والأجل والأرفع، وشهادته شهادة حضور ومعانيه، وهو لا يخفى عليه شيء من جوانب الحقيقة كما يحدث للبشر، فمن شهد الله له فهو حسبه، ولا يحتاج إلى شهادة غيره، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركين الذين ينازعونه في التوحيد وفي صدق ما جاء به: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: « تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود»[التفسير القيم: ١٧٤].

٣- ولم يكتف رب العزة بإخبارنا بشهادته على وحدانيَّته، بل أعلمنا بشهادته على الحق في قضايا النزاع الكبرى بيننا وبين الكفرة المشركين، وكل ذلك فيه أعظم التثبيت لقلوبنا في مجال الحجاج والنزاع والخصام، فلا نضل ولا نزيغ، ولا نرتاب، ولا نتلجلج، فالقرآن من عند الله بشهادة الله وشهادة الملائكة: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٦٦] ألا تكفي هذه الشهادة من رب العالمين على أن هذا الكتاب منزل من عنده، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا، وحسبنا بذلك دليلاً وبرهاناً.

وكما شهد الله لكتابه، فقد شهد لرسوله ﷺ بالرسالة والنبوة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[الفتح: ٢٨] وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

٤- لشهادة الله لنفسه بالوحدانية، ولعبده محمد ﷺ بالرسالة، أثر كبير في شهادة الأكوان بذلك، وهداية الخلق إلى الإقرار بذلك، فالله لما شهد بذلك هدى

الخلق إليه، وأنطقهم به، فالكون معبد واسع تتجاوب جنباته بالتسبيح لخالقه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء: ٤٤].

وقد ثبت في السنة أنَّ حجراً بمكة كان يسلم على الرسول ﷺ قبل بعثته بالرسالة، وشهدت شجرة للرسول ﷺ بالنبوة، والإنسان نفسه مفطور على توحيد الله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] ولولا إضلال الشياطين العباد وتحريف فطرتهم لنشأ الناس جميعاً حنفاء.

يقول ابن القيم رحمه الله: « من شهادته سبحانه ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه » [التفسير القيم: ١٩٦].

٥- إن هذه الشهادة التي شهدها الله من أعظم ما نواجه به باطل الخصوم، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفرة الذين ينكرون رسالته كفى بالله شهيداً بيني وبينكم: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]. وقال أيضاً آمراً رسوله أن يقول: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

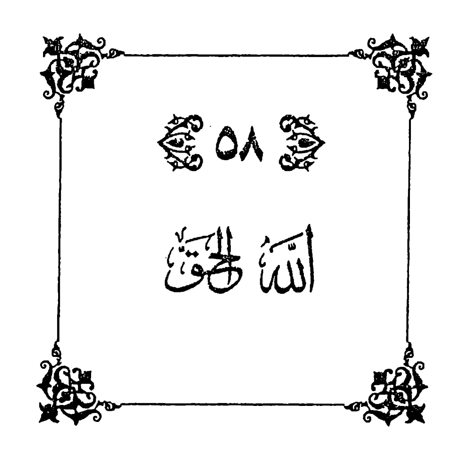
نعم كفى به شهيداً، فهو رب العزة الخبير البصير، وهو العالم بكل شيء، فشهادته مبنية على علم لا يداخله جهل بخلاف شهادة الكفرة أهل الباطل، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

٦- عندما يقدم العباد على الله في يوم القيامة يحاسبهم حساب العالم بهم، المطلع على خفاياهم، المحصي لأقوالهم وأعمالهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

فالمؤمن يعلم أن الله عالم بأعماله، فلا يخشى أن يضيع من عمله شيء: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ: ٤٧].

ولا يضيع من عمل الكفار شيء، فإنهم وإن نسوه فالله قد أحصاه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦] ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤].





الحق اسم من أسماء الله الحسنى، وقد أعلمنا الله بذلك في كتابه، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج:٦] وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢] وقال: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس:٣٢].

وإذا تأمل العالم بالله وجه كونه تبارك وتعالى حقاً، ظهر له أن أحقيته من عدة وجوه:

الأول: وجوده تبارك وتعالى وأسماؤه وصفاته، فله تبارك وتعالى الوجود الحق، فالله لايزول ولا يحول، بخلاف غيره، فالخلق كلهم يزولون ويحولون، وحياته سبحانه الحياة الأزلية، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، ووجوده كامل فلا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يأخذه مرض ولا تعب، فهذا هو الحق في وجوده تبارك وتعالى.

وأسماؤه تبارك وتعالى كلها حق، وكذلك صفاته، فليس في شيء منها شيء من الباطل، لا في علمه ولا قدرته ولا عزته، فهو الواحد الأحد، الجليل الكبير العظيم سبحانه.

قال أبو سليمان الخطابي: « الحَقُّ: هُوَ المُتَحَقِّقُ كَوْنُهُ وَوُجُوْدُهُ، وكُلُّ شَيْءٍ صَحَّ وُجُودُهُ وَكَوْنُهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُ الله – سُبْحَانَهُ-: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٢] مَعْنَاهُ: – والله أعلم- الكَائِنَةُ حَقّاً لا شَكَّ في كَوْنِهَا، وَلا مَدْفَعَ لِوُقُوعِهَا، وَيُقَالُ: الجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ. يُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ كَائِنَةٌ لا مَحَالَةَ. والعَرَبُ تَقُولُ: إن فُلانَاً الرَّجُلُ حَقَّ الرَّجُلِ. والشُّجَاعُ حَقَّ الشُّجَاعِ، وحاقَّ الشُّجَاعِ، وَحَاقَّةَ الشُّجَاعِ، إذَا أَثْبَتُوا لَهُ الشَّجَاعَةَ وَحَقِيْقَتَهَا » [شأن الدعاء ٧٦].

الثاني: هو الحق في ربوبيته وألوهيته وتدبيره وتصريفه الأمور، فهو- تعالى- رب كل شيء، ومليكه وخالقه ومدبره ومصرف أموره ورازقه، وغيره مألوه مربوب مملوك مصرف مدبر.

وهو- تبارك وتعالى- إله كل شيء، والبشر وإن ألهوا الشجر والحجر، والشمس والقمر، والبشر والبقر، وغيرها من دونه، إلا أنها آلهه باطلة، لا تضر ولا تنفع، ولا تجيب داعيها، ولا تسمع، وهي بحاجه إلى الله في وجودها، والله عنها غني، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ * أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ * لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الحج: ٦١-٦٤].

فالله تبارك وتعالى هو المتصرف في خلقه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وآلهة البشر لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك، فالله سبحانه هو الحق، وآلهة البشر التي يدعونها من دون الله آلهة باطلة، ومن دلائل ألوهيته سبحانه أنه يُنزلُ من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة، إن الله لطيف خبير، والآلهة التي تعبد من دونه

لا تستطيع أن تفعل من ذلك شيئاً.

والله هو مالك السموات والأرض وما يعبد من دونه آلهة باطلة لا تملك شيئاً من دون الله، وكل ما أمر الله تبارك وتعالى به أو نهى عنه فإنه حق.

قال أبو القاسم الزجاجي في بيان هذا المعنى، أعني كونه حقاً في ألوهيته: « الله عز وجل حق، وكل معبود دونه باطل، والحق نقيض الباطل، ويقال: حق الشيء يحق حقاً، تأويله: وجب يجب وجوباً، فالله عزّ وجل حق، وكل شيء من عنده حق، وكل ما عاد إليه حق، وكل ما أمر به ونهي عنه حق على العباد امتثاله، أي: واجب ذلك عليهم، فالله الحق، أي: هو الحق، وما عبد من دونه باطل، والله- عزَّ وجل- الحق، أي ذو الحق في أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وجميع ما أنزله على لسان رسله وأنبيائه» [اشتقاق أسماء الله: ٣٠٧].

الثالث: كل ما صدر عن الله أو جاء من عنده فهو حق، فالله نزل الكتاب بالحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦] ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأرسل رسله بالحق ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة: ١١٩] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]. ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف:٤٣].

وخلق سبحانه وتعالى السماوات والأرض بالحق ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الحجر ٨٥]، والحق الذي خلق السموات والأرض من أجله يجب أن يعرف ويطاع ويعبد.

وقصَّ الله تبارك وتعالى القصص بالحق﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

فالقصص الذي قصه الله- تبارك وتعالى- حق لا باطل فيه، بخلاف ما يقصه البشر من قصص وأساطير، فهو كذب كله مختلق، أو صدق خالطه الكذب، والحق الصرف في قصصهم قليل.

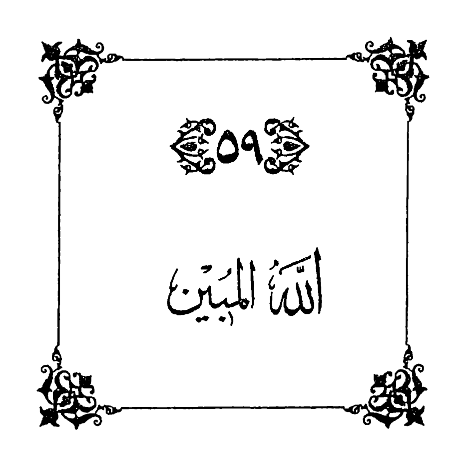
ووعد الله حق، وهو لا يخلف الميعاد﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥].

تمجيد الله بأسمه الحق:

علمنا ربنا- تبارك وتعالى- كما علمنا رسولنا ﷺ أن نمجد ربنا ونقدسه باسمه « الحق» فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وقوله:﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: « اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيمُ السموات والأرض، ولك الحمدُ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق؛ اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك خاصمت، وبك حاكمت، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرتُ، وأسررت و أعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت ». [البخاري ٧٤٤٢، ومسلم: ٧٦٩ واللفظ للبخاري].





٥٩
الله المبين

من أسماء الله الحسنى التي وردت في كتاب الله عزّ وجل المبين، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥].

والمبين له معنيان:

الأول: ظهور الله ووضوحه، بظهور الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته، فكل شيء في الكون فهو دال على الله، الأرض والسماوات، والجبال الراسيات، والنجوم الدائرات.

ومن ظهوره سبحانه مجيء الرسل معرفين بالله ودالين عليه ومتحدثين عنه وممجدين له، يقول الخطابي: « المبين البين أمره في الوحدانيه، وأنه لا شريك له،يقال: بان الشيء، وأبان، واستبان بمعنى واحد » [شأن الدعاء: ١٠٢].

المعنى الثاني: إظهار الله للحق، وإبانته له، ومن ذلك إظهار نفسه تبارك وتعالى، وتعريفه بها، ليدل الخلق عليه، ويرشدهم إليه، قال أبو القاسم الزجاجي رحمه الله:

« المبين: اسم الفاعل من أبانَ يُبينُ فهو مبينٌ إذا أظهرَ وبَيَّنَ، إما قولاً وإما فعلاً، فالله تبارك وتعالى المبينُ لعبادهِ سبيلَ الرشادِ، والموضِّح لهم الأعمالَ الموجبه لثوابه والأعمال الموجبه لعقابه، والمبين لهم ما يأتونه ويذرونه، يقال: « أبانَ الرجل في كلامه

ومنطقه» فهو مبينٌ.والبيان: الكلام. كذلك فسّر قوله عزّ وجل: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾» [الرحمن: ٣-٤]. قالوا: البيان: الكلام، ويقال: « بانَ الكلام » وأبانَ بمعنىً واحد فهو بيِّنٌ ومبينٌ. وأنشدوا بيت لَبِيد بن ربيعة العامري يصف دياراً:

فَوَقَفْـتُ أسـألُها وكيـف سـؤالنا   صُـماً خوالـدَ مـا يَـبينُ كلامهـا؟

[اشتقاق أسماء الله: ٣١١].

والبيان من الله تبارك وتعالى له طريقان:

الأول: بما أنزله في كتبه المنزله على رسله، وما أوحاه الله إلى رسله وأنبيائه.

الثاني: بآياته التي خلقها دالة عليه، كما قال الشاعر:

وفي كـل شـيء لـه آيـة   تـدل علـى أنـه الواحـد

فالأول وهو ما أنزله على رسله وأنبيائه، يكفينا في ذلك أن نتأمل في آخر هذه الكتب وأعظمها وهو القرآن الكريم، لندرك عظم البيان الذي تضمنه، فالبيان كما يقول أهل البلاغة: « إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وأصله الكشف والظهور » [النهاية: ١/ ١٧٤].

وقد أقر ببلاغة القرآن أهل البلاغة والفصاحة من مشركي العرب، وكانت بلاغته قمة لا يطمح البشر إلى بلوغها.

وقد عرفنا الله تبارك وتعالى ببيانه عن أسمائه وصفاته، وحلاله وحرامه، وكشف لنا عن طرق الهدى الموصلة إليه، وعرى طرق الضلال والغواية، وحكم حكماً واضحاً ظاهراً بين عباده فيما اختلفوا فيه، كل ذلك ليفقه عنه عباده، ليعلموا الحق، ويلتزموه، ويحذروا الباطل ويجتنبوه.

قال تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[البقرة: ١١٨] وقال:﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[آل عمران: ١١٨] وقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ

ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المائدة: ٧٥]. وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٧] وقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨].

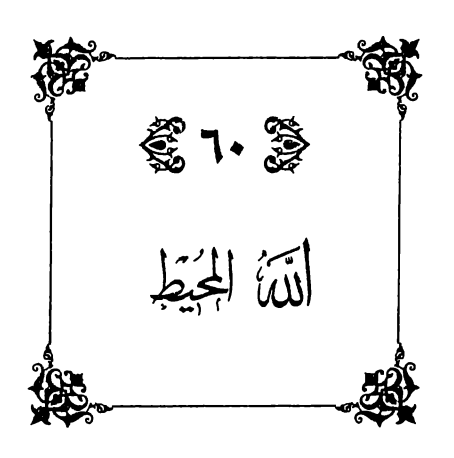
وكما نسب الحق البيان إلى نفسه، فقد نسبه إلى كتابه، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة:١٥] وقال: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] وقال:﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[الشعراء:٢]. وقال: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١-٢]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وكما كان القرآن مبيناً، فكذلك رسوله ﷺ، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[الشعراء: ١١٥] وقال: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[ص: ٧٠]. وقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف:٢٩].

وكما بين الله تبارك وتعالى الحق في كتبه وعلى ألسنة رسله في الدنيا، فإنه يبين لهم الذي اختلفوا فيه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل:٩٢].

وقد كانت معجزات الرسل آيات بينات، فهي تدل على صدق الرسل الذين جاؤوا بها، وصدق الدين الذي جاؤوا به ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:٢١١]. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾[الأعراف: ٧٣].

إن صفة البيان من أعظم صفات الله تبارك وتعالى، فقد أبان الحق بكلماته المنزلة في كتبه وعلى ألسنة رسله، وأبان الحق بآياته التي أجراها على أيدي رسله، وجعل آياته الكونية دلائل على ألوهيته وربوبيته ووحدانية.



ورد اسم الله المحيط في عدد من آيات الكتاب الكريم، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[الأنفال: ٤٧]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت:٥٤].

وقد جاء في عقيدة الطحاوي: « أن الله محيط بكل شيء وفوقه » [شرح العقيدة الطحاوية: ٣١٤] وفسره شارح الطحاوية فقال: « إنه سبحانه محيط بكل شيء، وفوق كل شيء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠] ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما المراد: إحاطة عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « ما السموات السبع والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهن في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم » [شرح العقيدة الطحاوية: ٣١٤].

« والمحيط في اللغة- كما يقول أبو القاسم الزجاجي- اسم فاعل من قولهم

أحاط فلان بالشيء فهو محيط به إذا استولى عليه، وضم جميع أقطاره ونواحيه، حتى لا يمكن التخلص منه، ولا فوته.

فالله- عز وجل- محيط بالأشياء كلها، لأنها تحت قدرته، لا يمكن شيء منها الخروجَ عن إرادته فيه، ولا يمتنع عليه منها شيء » [اشتقاق أسماء الله الحسنى: ٦٧].

وإحاطة الله بخلقه إحاطة تامة كاملة، لا يهرب منهم أحد، ولا يندّ عنهم أحد، أحاطت بهم قدرته، وأحاط بهم علمه، أحاط بذواتهم، وأقوالهم وأعمالهم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

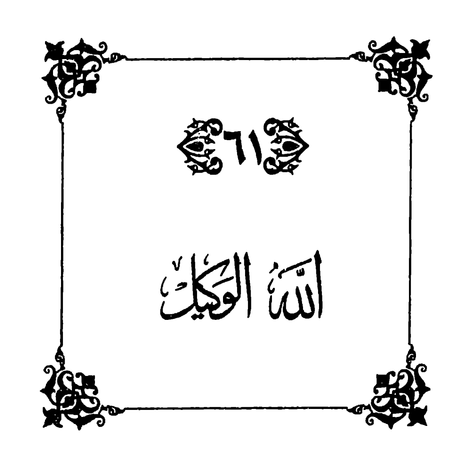
﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠] ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ [الكهف: ٩١] ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وإذا نزل عذاب الله بقوم فإنه يحيط بهم ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ [هود: ٨٤].

وعذاب النار في يوم القيامة محيط بالكافرين ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن إحاطته سبحانه بالناس في الدنيا أنه يعلم بهم ويبصرهم، كما يعلم جميع مخلوقاته لا يغيب عنه منهم شيء، وهو محيط بهم في الآخرة، فيبعثهم جميعاً لا يتخلف منهم أحد، ولا ينسى واحداً منهم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

ولذا فإن الكفرة المجرمين مهما بلغ جبروتهم وطغيانهم لا يستطيعون الخروج عن قهره وجبروته : ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] أي: يعجزونا.



الوكيل اسم من أسماء الله الحسنى المباركة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[هود: ١٢] وقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢] وقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

« والوكيل- كما يقول ابن منظور- هو المُقيم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] وقيل: الوكيل الحافظ، وقال أبو اسحاق: الوكيل في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق، وقال بعضهم: الوكيل الكفيل » [لسان العرب: ٣/ ٩٧٧].

ويفقه مما ذكره ابن منظور في معنى اسمه تبارك وتعالى الوكيل أنه المقيم لمخلوقاته، أي: الموجد لها من عدم، فكل شيء غير الله مخلوق، وكل مخلوق قبل وجوده كان عدماً، والله وحده هو الذي خلق المخلوقات من عدم ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢] وبعد خلقهم وإيجادهم بقي لهم مراقباً وعليهم حافظاً، وأمدهم بأسباب البقاء، وحفظهم من الدمار والهلاك، ولو لم يفعل

ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ [فاطر:٤١] ومن الذي يستطيع أن يوجد المخلوقات من عدم، ثم يبقى لهم حافظاً طيلة إرادته إبقاءَهم سبحانه، وهذا معنى قول ابن منظور: « وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكل إليه » وقوله: « الوكيل في صفه الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق »

وهذا المعنى معنى عام شامل لجميع المخلوقات كما قال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ [هود:١٢] وكيل على كل شيء، الكبير والصغير، والعظيم والحقير، والحيوان والنبات والجماد، كل شيء والشيء يطلق على كل موجود.

وقد سبق الحديث عن اسمه -تبارك وتعالى- القيوم، وهو القائم بنفسه المقيم لغيره، ولتمام قيوميته لا تأخذه سنه ولا نوم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾[البقرة:٢٥٥] وإذا كان الله وحده المتوكل بأمور خلقه، المستقل بذلك دون غيره، فعليهم أن يتخذوه وكيلاً دون غيره ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٢] كما قال عز من قائل، آمراً رسوله ﷺ بالتوكل عليه. ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٣] وقال: ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل:٩] وقال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧]

وأمر المؤمنين بالتوكل عليه: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وعلى مَنْ يتوكل المؤمنون إن لم يتوكلوا عليه !!! وعلى من يعتمدون إن لم يعتمدوا عليه !! إن ربنا آخذ بنواصي خلقه: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ [هود: ٥٦] وهو القادر على كل شيء، العزيز الغالب، الذي لا يقهره شيء، ولا يغلبه شيء، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٤٩] إنه سبحانه كافي من توكل عليه: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[الأحزاب: ٣].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

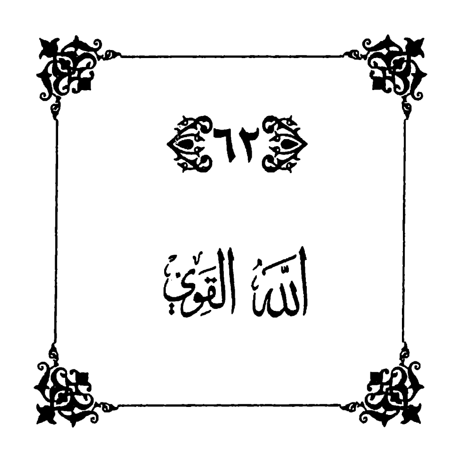
وليس التوكل على الله هو التواكل والعجز، الذي عليه حال كثير من المسلمين اليوم، ولكنه أخذ بالحق، وثبات على المبدأ، وصبر في مواجهة الباطل، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١٢].

إن التوكل على الله اعتماد عليه في الحركة بالإسلام، ودعوة العباد إلى الله، خاصة عندما يقف الجبابرة والطغاة بقوتهم وطغيانهم في وجه الحق مزمجرين متهددين متوعدين حملته بالاستئصال والفناء، فيلجأ المؤمنون إلى الركن الركين، والدرع الحصين، متوكلين على رب العالمين، قائلين: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ٨٥] ويقولون: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: ١٢].

إن التوكل على الله ليس عجزاً وقعوداً عن مواجهة الباطل، إن هذا هو حال بني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام وأخيه: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] وقد ذمهم الله بذلك، ومدح في مقابلهم محمداً ﷺ وأصحابه الذين أصابهم القرح في معركة أحد، ومع ذلك فعندما دعاهم الرسول ﷺ للخروج في أثر المشركين استجابوا على ما بهم من جراح، فلما نقل إليهم أن المشركين عائدون إليهم ليستأصلوهم، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٢- ١٧٤].

هذا هو النمط الراقي الذي يمثل الفقه الصحيح للتوكل على الله تبارك وتعالى، وهو النمط الذي يحمل الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، ويتحرك به داعياً إلى الله، مواجهاً أعداء الله، وهو في ذلك كله يتوكل عليه، ويلجأ إليه، ويحتمي بحماه، فيبصره الله بالحق، ويقيمه عليه، ويؤيده بنصره، هؤلاء هم الذي يفقهون معنى قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].





من أسماء الله عزَّ وجل التي عرف الله عباده بها القوي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] وَٱعْلَمُوٓاْ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

والقوي- كما يقول ابن جرير -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]: « الذي لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءَه رادٌّ، يَنْفَذُ أمرهُ، ويمضي قضاؤه في خلقه، شديد عقابه لمن كفر بآياته، وجحد حججه » (ابن جرير: ١٠/ ١٧-١٨).

وقال في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[هود: ٦٦] إن ربك هو القوي في بطشه، إذا بطش بشيء أهلكه، كما أهلك ثمود حين بطش بها » (ابن جرير: ١٢/ ٣٩).

وقد قرر الله تبارك وتعالى أن القوة جميعاً له، ولكن الكفار لا يدركون ذلك ولا يعلمونه إلا في يوم القيامة: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقول ابن القيم [النونية: ٢١٨]:

وهو القوي له القوى جمعا تعالى رب ذي الأكوان والأزمان

والعباد في بعض الأحيان يغترون بقوتهم، ويغفلون عن قوة الخالق المحيطة بهم، فيتمادون في غيهم، ولا يفيقون إلا عندما تحيط بهم قوة الله فتدمرهم وتهلكهم، كما وقع لقوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وقد حدثنا ربنا عما فعله بهؤلاء المغرورين بقوتهم، المتمردين على ربهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وحال المستكبرين على مرِّ التاريخ المغترين بقوتهم حال قوم عاد، تأخذهم قوة الله، وتحيط بهم وتدمرهم، وتدمر معاقلهم وحصونهم، ويصبحون أثراً بعد عين، وقد قال الله مخاطباً المشركين الذين واجههم الرسول ﷺ آمراً إياهم بالسير في الأرض، والنظر في آثار الغابرين، والاعتبار بمصارعهم ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

وعندما جاءت جموع الأحزاب، فأحاطوا بالمدينة قاصدين اجتثاث الرسول ﷺ وصحبه الكرام، أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وها نحن اليوم نشاهد نذر الله في خلقه، فقلّ من عام إلا وتأتينا الأخبار

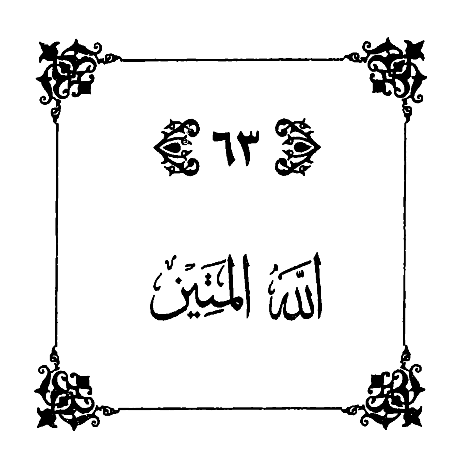
متحدثةً عما يحل بالعباد المستكبرين التائهين الحائرين، زلازل هنا وهناك، تجعل الأرض تتشقق، وتبتلع مَنْ فوقها، وتطيح بالقصور والمنازل فوق رؤوس أصحابها، ومن رأى ذلك رأى هولاً شديداً، وعذاباً أليماً: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١- ١٥].

أين المهرب من الله القويِّ المتين إذا نزل عذابه بساحة الظالمين؟

وقال الله في المعذبين ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] وقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف: ٩٧- ٩٩].

وعلى دعاة المسلمين، وعلماء الإسلام أن يذكروا الناس بمصارع الغابرين، وخاصة تلك التي قصها الله علينا في كتابه، فإن فيها من التذكير بعظمة الله وقوته وبطشه وانتقامه ما تَجِفُ له القلوب، وتخشع له النفوس، وقد أمر الله تبارك وتعالى موسى أن يذكر قومه بأيام الله ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ٥] وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى بشيء من تذكيره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم: ٨-٩] وكان قبل ذلك ذكَّرهم بنعمة الله عليهم في إهلاكه فرعون، وإنجائهم من عذابه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقد حدثنا الله أن مؤمن آل فرعون قد سلك هذا المسلك في دفاعه عن موسى في مواجهة تهديد فرعون بقتله، وكان مما دفع به المؤمن طغيان فرعون وملئه تذكيرهم بما حل بالمكذبين المستكبرين من قبلهم، كما ذكرهم بموقفهم بين يدي الله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ * وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ * يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[غافر: ٣٠- ٣٣].



٦٣
الله المتين

« المتين- كما يقول الخطابي- الشديد القوي الذي لا تنقطع قوته، ولا تلحقه في أفعاله مشقّة، ولا يمسّه لغوب » [شأن الدعاء: ٧٧].

وقد وصف الله نفسَه بأنه المتين بعد أن وصف نفسه أنه ذو القوة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وعلى العبد المؤمن بقوة الله تبارك وتعالى، أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن يتوكل على الله، ويعتمد على حول الله وقوته، وقد علَّم الرسولُ ﷺ أبا موسى الأشعري- كما ورد ذلك في صحيح البخاري- أن يقول: « لا حول ولا قوة إلا بالله » وأعلمه أن هذه الكلمة كنز من كنوز الجنّة، أي: هي من ذخائر الجنة ونفائسها المذخورة لأصحابها في يوم الدين.

وقد حدثنا ربنا عن ذلك المؤمن الذي واجه صاحبه الثري صاحب الجنتين عندما دخل جنته ظالماً لنفسه، كافراً بربّه، مغتراً بما أوتي من حرث ومال، قائلاً له مؤدباً ومعلماً ليخضع لربه، ويتواضع لجنابه، ويتبرأ من حوله وقوته، ويعتمد على حول الله وقوته: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].





عرفنا ربنا- تبارك وتعالى- أنه ولينا ومولانا، فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء: ١٤٥] وقال: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

وقال في اسمه المولى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦].

وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج: ٧٨] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

والولي في أسماء الله تعالى كما يقول ابن الأثير: « الناصر، وقيل: المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم يطلق عليه الولي » [النهاية: ٥/ ٢٢٧].

وعلى ما ذكره ابن الأثير يكون الله ولياً ووالياً للمؤمنين وللكافرين، فالكفار داخلون في الخلائق الذين خلقهم وهو قائم بأمورهم، ولكن مع ذلك فيمتنع أن يقال شرعاً: الله ولي الكافرين والمجرمين والجبارين، لأن الكفار قابلوا إنعامه وإحسانه

بالكفر والشرك والطغيان، أمّا المؤمنون فقد قابلوا إنعامه بالشكر والإقرار والطاعة والتوحيد، وعلى ذلك فهو وليهم ومولاهم. [راجع: اشتقاق أسماء الله: ١٨٨].

ولما كان الله وحده هو الذي يتولى المؤمنين بالرعاية والحفظ والنصر والتأييد، فعلى المؤمنين أن يتخذوه ولياً، فالكفرة اتخذوا أولياء من دون الله، بهم يستنصرون، وإليهم يتوجهون، كما اتخذوا زعماء الكفر أولياء من دون الله بهم يعتزون وينتصرون، وقد أنكر الله عليهم فعلهم هذا ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾[الشورى: ٩] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[البقرة: ٢٥٧].

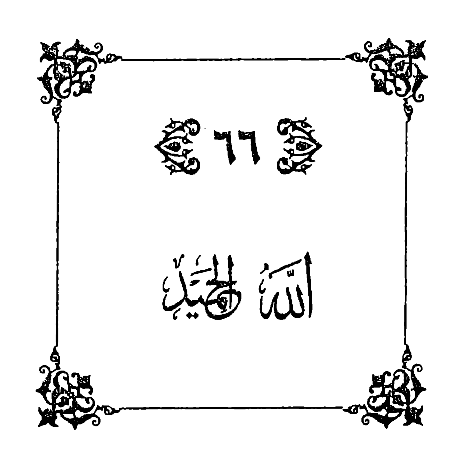
إن الله هو الولي على الحقيقة، أما الذين تولوا آلهة من دونه يستعينون بها ويستنصرون بها فمثلهم كما قال:﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾ [العنكبوت: ٤١].

إن الذي يستحق الولاية الله تبارك وتعالى فاطر السموات والأرض: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

والله يستحق أن يتولاه المؤمنون، لأنه واهب الهداية، المخلص من الضلالة، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

إن أولياء الله هم المؤمنون بالله، الذين يوالونه بالطاعة بالأقوال والأعمال، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

فكل مؤمن تقي فهو لله ولي، وليس أولياء الله الأموات الذين تبنى عليهم القباب، ويقصدون بالحوائج من دون الله، ويستغاث بهم ويستنصر من دون الله.



في أسماء الله الحسنى المباركة الحميد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[هود: ٧٣] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤] وقال: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢].

والعلم بأن الله حميد واجب على المؤمنين، ومن لم يعلم ذلك كان مقصرا في حق الله، فقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

« والحميد- كما يقول أبو القاسم الزجاجي- المحمود، ذو الحمد المستحق لذلك » [اشتقاق أسماء الله: ٢٠٨].

وقال أبو سليمان الخطابي في « الحميد » : « هو المحمود الذي استحق الحمد بفعاله، وهو فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يحمد في السراء والضراء، وفي الشدّة والرخاء، لأنه حكيم لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه الخطأ، فهو المحمود على كل حال » [شأن الدعاء: ٧٨].

الله جل جلاله هو المحمود من وجوه لا تحصى، وجوانب لا تسقصى، فهو المحمود على وحدانيته، وتعاليه عن الشريك والنظير والمثيل ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

وهو المحمود لخلقه السموات والأرض وجعله الظلمات والنور ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وهو المحمود على إنزاله الكتاب العظيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

وهو المحمود على نعمه وعطاياه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وقال داود وسليمان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

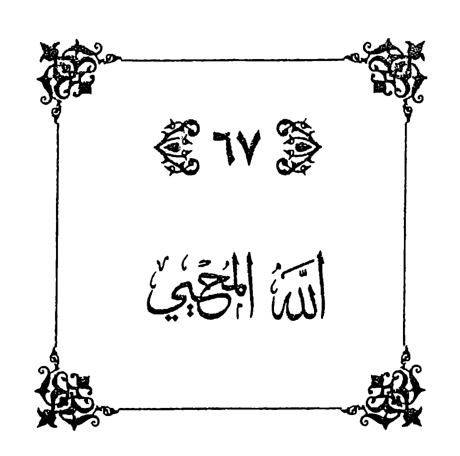
وله الحمد في الكون كله دائماً وأبداً، في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨ وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

يقول ابن القيم في[نونيته: ٢١٥/ ٢]

وهو الحميد فكل حمد واقع ... أو كان مفروضاً مدى الأزمان
ملأ الوجود جميعه ونظيره ... من غير ماعدّ ولا حسبان
هو أهله سبحانه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

ويرى العلامة ابن الوزير رحمه الله أن جميع أسماء الله الحسنى ترجع إلى الملك والحميد، «فما كان من أسمائه يقتضي كمال العزة والقدرة والجبروت والاستقلال والجلال دخل في اسم الملك وعاد إليه. وما كان منها يقتضي الجود والرحمة واللطف والصدق والعدل وكشف الضر، وأمثال ذلك من الممادح دخل في اسم الحميد وعاد إليه، وربما عبر عنهما بما رادفهما أو أحدهما مثل قول النبي ﷺ: «أهل الثناء والمجد» وقوله: «إنك حميد مجيد» فإن المجد هو الملك، والثناء هو الحمد، فمن الناس من نظر إلى اسم الملك فعظمه ووفاه حقه بالنظر إلى معارف البشر، وقصر في

اسم الحميد ومعناه بنفي الحكمة عن أفعاله كلها، كما أن من الناس من عكس فبالغ في اسم الحميد، وقصر في تعظيم ملكه وقدرته وعزته، فلم يجعل له قدرة على اللطف بعبد واحد من جميع عباده العصاة. وجميع أئمة الإسلام العارفين جمعوا بين تعظيم هذين الاسمين الشريفين، ووفوا كل واحد منهما حقه على حسب قوى البشر في ذلك » [إيثار الحق: ١٨٦].



٦٧
الله المحيي

من أسماء الله المحيي قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: ٥٠] وقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

١-بيان معنى المحيي:

«والمحيي- كما يقول الزجاجي- اسم فاعل من أحيا يحيي فهو محيي، والمميت: اسم فاعل من أمات يميت، فهو مميت، فالله عز وجل المحيي المميت» [اشتقاق أسماء الله: ٢٣٥].

وقال الخطابي: «المحيي هو الذي يحيي النطفة الميّتة، فيخرج منها النسمة الحيّة، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، ويحيي القلوب بنور معرفته، ويحيي الأرض بعد موتها بإنزال الغيث، وإنبات الرزق.

والمميت: هو الذي يميت الأحياء، ويوهن بالموت قوة الأصحاء الأقوياء ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الحديد:٢].

وتمدح - سبحانه - نفسه بالإماتة كما تمدحها بالإحياء، ليعلم أن مصدر الخير والشر، والنفع والضر من قبله، وأنه لا شريك له في الملك، استأثر بالبقاء، وكتب

على خلقه الفناء» [شأن الدعاء: ٨٠].

٢- وإحياء الله الخلائق وإماتتهم من أعظم ما يدل على الله:

من أعظم ما يدل على الله ويعرف به إحياؤه الخلائق وإماتتهم، وقد جادل طاغية العراق في عهد إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن إبراهيم في وجود الله، فعرف إبراهيم ربه في مجال الحجاج بأنه يحيي ويميت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وتعريف الله بإحيائه وإماتته كثير في كتاب الله ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الشورى: ٩] وقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] وقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:١٥٨] والكفر مستغرب متعجب منه من البشر الذين كانوا أمواتاً فأحياهم الله، ثم يميتهم، ثم يحييهم، كما قال عزّ من قائل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

والموت والحياة سرّان عجيبان يمر بهما الأحياء من الإنس والجن والطيور والأسماك والديدان، وتحتار العقول في سرّهما، فهي ترى آثارهما، ولا تدرك كنههما، إنَّ الموت والحياة من أعظم الآيات الدالة على الله.

٣- تصديق البشر بإحياء الخلائق في الأولى وكفر أكثرهم بذلك في الآخرة:

والبشر يصدقون بالحياة الأولى في هذه الدنيا مؤمنُهم وكافرُهم، ويؤمنون بالموت الذي تختم به هذه الحياة، ولكن أكثرهم يكذبون بالحياة الآخرة، التي أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه عنها، كما قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

ففي النفخة الأولى يموت الأحياء، وفي الثانية تعود الأرواح إلى الأجساد، وينهض العباد من الأجداث، أي: القبور، مجيبين المنادي الذي يأمرهم بالخروج إلى الحساب والجزاء. وقد حكى الله مقالة الذين يكذبون بالبعث والنشور، وشبهتهم التي يركنون إليها، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨- ٨٣].

وقد ردّ الحق -تبارك وتعالى- على المكذبين بالبعث والنشور الذين يقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ بأن القادر على النشأة الأولى، قادر على إحيائه في الأخرى، واستدلّ- سبحانه - على البعث بأنه يحول الشجر الأخضر الذي لا يصلح للإحراق إلى يابس تشتعل فيه النار، وأن القادر على الأعظم وهو خلق السموات والأرض قادر على الأدنى وهو بعث الناس، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٤- أرى الله بعض خلقه إحياء الأموات في الدنيا:

وقد دل الله عباده على قدرته على البعث والنشور في بعض العصور بأن أرى بعض خلقه إحياءه الموتى، فمن ذلك أن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا ببعض منها قتيلاً وجد ملقى بين حيين، كل حيّ ادعى أن الآخر قتله، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله، فتكلم، ودلّ على قاتله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

وأخبرنا ربنا- عز وجل- عن قوم تعدادهم ألوف، خرجوا من ديارهم مخافة

الموت، فأماتهم الله جميعاً، ثم أحياهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وأخبرنا الله تبارك وتعالى عن ذلك الرجل الذي مرّ على قرية دُمِّر عمرانها، وتهدم بنيانها، وخرت على عروشها، فتعجب من إحياء الله هذه القرية بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فلما سئل عن مقدار لبثه في مماته، ظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم، ولا شك أن عجبه قد زاد عندما علم أنه مكث مائة عام ميتاً، وأخذ الملك الذي يخاطبه يدله على قدره الله، ويريه ذلك رؤية عين.

أمره الملك أن ينظر إلى طعامه وشرابه الذي كان صحبته قبل مائة عام لم يفسد، ولم يتغير، بل بقي صالحاً للأكل والشراب، بينما حماره بليت عظامه وتقطعت أوصاله، وأمره أن ينظر إلى العظام البالية المتفتة، وهي تتكون وتتشكل، ثم أراه كيف يوصل ما بينها، ثم تكسى باللحم، ثم تجري فيها الروح والحياة، عند ذلك قال: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ونبي الله إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فكان هذا المشهد الذي حدثنا الله عنه، أمره أن يذبح أربعة من الطير، ثم يفرق أجزاءَها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتي ليقع في مكانه، فلما اجتمعت وتكاملت، نفخ الله فيها الروح، وعادت إليها الحياة كما كانت ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ

فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ونبي الله عيسى عليه السلام أعطاه الله القدرة على إحياء الموتى، بل أعظم من ذلك، وهو أنه يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتصبح طيرا بإذن الله ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الزخرف: ١١].

ومن آيات الله الباهرة أنه كان يحول عصا موسى عليه السلام إلى أفعى عظيمة، وفي يوم القيامة ينفخ في الصور، فتعود الأرواح إلى أجساد العباد، ويعودون إلى الحياة: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

والموت غاية الحياة الدنيا، وبالموت والحياة يتحقق الابتلاء الذي خلق الله الإنسان من أجله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

٥- الإنسان حالة الاحتضار:

وقد حدثنا ربنا عن مشاهد الموت، وهي مشاهد لا يراها الأحياء، وإن رأوا آثارها، وقد سمى المعاناة التي يعانيها الإنسان حال الاحتضار بالسكرات، وفي ذلك يقول: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩].

ومن المشاهد التي صور الله بها الموت قوله: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٢٦- ٣٠] والتي بلغت التراقي هي روح المحتضر، والتراقي العظام بين ثغرة النحر والعاتق والراقي الذي يرقي المرضى طلباً للشفاء، والفراق الذي ظنه المحتضر فراق الروح الجسد، وفراق الأهل والأحبة، ويرسل الله ملائكة الموت لنزع أرواح العباد إذا حلّ الأجل ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وتتنزل مع ملائكة الموت ملائكة الرحمة تطمئن قلوب المؤمنين وتثبتها، وتبشر المؤمنين برحمة الله وجنته، وما أعد الله لهم فيها من النعيم المقيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

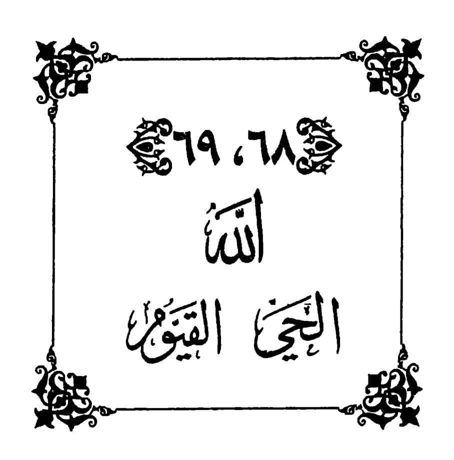
أما الكفار في الاحتضار فهم كما وصف الجبار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الأنفال: ٥٠- ٥١].

٦- الموت حتم لازم:

والموت حتم لازم لا فكاك ولا خلاص للعباد منه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومهما حاول العباد الهروب من الموت، والتحصن منه بالقلاع والحصون، فإنهم لا يستطيعون ، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨].

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه الرسل والأنبياء، وقد قال الله لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].



٦٨، ٦٩
الله
الحي القيوم

لا زلنا نتابع الإجابة عن السؤال العظيم الذي يقول سائله: من هو الله؟ فيأتي الجواب من رب العزة أنه الحيُّ القيوم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[طه: ١١١] وقال: ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١- ٢].

« والحي- كما يقول الزجاجي- في كلام العرب: خلاف الميت، والحيوان خلاف الموات، فالله عزَّ وجل هو الحي الباقي، الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء، عزَّ وجل علواً كبيراً، ولا تعرف العرب عن الحيِّ والحياة غير هذا » [اشتقاق أسماء الله: ١٦٨].

« والقيوم فيعول من قام يقوم، وهو من أوصاف المبالغة في الفعل، وهو من قوله عزَّ وجل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: يحفظ عليها ويجازيها ويحاسبها.

وقال أبو عبيدة: « القيوم: القائم، وهو الدائم الذي لا يزول » [اشتقاق أسماء الله: ١٧٣].

وقال الخطابي: « الحي من صفة الله- تعالى- هو الذي لم يزل موجوداً، وبالحياة

موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعتورهم الموت أو العدم في أحد طرفي الحياة أو فيهما معاً ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص: ٨٨].

والقيوم القائم الدائم بلا زوال، ووزنه فيعول، من القيام، وهو نعت المبالغة في القيام على الشيء، ويقال: هو القيم على كل شيء بالرعاية له، ويقال: قمت بالشيء إذا وليته بالرعاية والمصلحة » [شأن الدعاء: ٨٠].

« والحياة التي يوصف بها الإله الواحد هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثمَّ يتفرد الله- سبحانه- بالحياة على هذا المعنى، كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ، ولا تنتهي إلى نهاية، فهي متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية، ومن ثمَّ يتفرد الله بالحياة على هذا المعنى.

ثم إنها هي الحياة المطلقة من الخصائص التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة، فالله- سبحانه- ليس كمثله شيء، ومن ثمَّ يرتفع كل شبه من الخصائص التي تتميز بها حياة الأشياء، وتنفى بهذا جميع المفهومات الأسطورية التي جالت في خيال البشر » [في ظلال القرآن، بشيء من الحذف والاختصار: ١/ ٢٨٧].

(والقيوم) هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، فالله هو المقيم لمخلوقاته، لا يحتاج إليهم، وهم جميعاً إليه محتاجون، سواء في ذلك الملائكة المقربون، وحملة العرش، وأهل السماء والأرض ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧- ٥٨].

وقد أعلمنا ربنا تبارك وتعالى أنه لكمال حياته وقيوميته ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسِّنَة أوائل النوم، وهي التي نسميها بالنعاس والوسن، وتكون عندما يدب النعاس إلى جسد الإنسان وعقله، ويبدأ النوم يداعب أجفانه، وتبدأ حواسه بالمغيب

عنه، قبل أن يستغرق في منامه، ثمَّ يغيب عن وعيه.

والله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، فلو نام لضاع الخلق، وفسدت السموات والأرض، وقد صح في الحديث الذي يرويه مسلم وغيره: « إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ».

وقال الطحاوي في عقيدته المعروفة باسمه: « حي لا يموت، قيوم لا ينام »،

وقال شارح الطحاوية: « لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك: أنه حي لا يموت، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون.

ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسِّنَة، دون خلقه، فإنهم ينامون. وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته.

فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً وأن الدار الآخرة لهي الحَيوانُ، فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة، وهي للمخلوق- لأنا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها، هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة، فهي دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى.

وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين، أعني: الحي القيوم مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسم

الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية مالا يدل عليه لفظ القديم. ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود. والقيوم أبلغ من « القيّام » لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه، باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة.

وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان، أصحهما: أنه يفيد ذلك.

وهو يفيد دوام قيامه وكل قيامه، لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل، فإن الأفل قد زال قطعاً، أي: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال، موصوفاً بصفات الكمال. واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على دوامها وبقائها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً.

ولهذا كان قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في « الصحيح » عن النبي ﷺ.

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها.

فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة. وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه. المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته. فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام » [شرح الطحاوية: ١٢٤-١٢٥].





من أسماء الله الحسنى الواحد الأحد، وقد ورد الأحد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وورد الواحد في أكثر من عشرين موضعا، منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

والواحد الأحد كما يقول أبو القاسم الزجاجي: الذي لا ثاني له، ولا شريك له، ولامثل ولا نظير، لم يسبقه في أوليته شيء عزَّ وجل، والله عزَّ وجل الواحد الذي لا نظير له، والله- عزّ وجل- الواحد الذي يعتمده عباده، ويقصدونه، ولا يتكلون إلا عليه عزَّ وجل. [اشتقاق أسماء الله باختصار: ١٤٥].

ومما قاله الخطابي في اسم الله الواحد: « هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، وقيل: هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك، والنظير، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة، والله سبحانه الواحد الذي ليس كمثله شيء » [شأن الدعاء: ٨٢].

وتتجلى وحدانية الله فيما يأتي:

اولا: في ذاته وصفاته:

فالله لا مثيل له، ولا نظير له، لا في ذاته ولا في صفاته، ولذلك فإنه تعالى وتقدس

لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، كما قال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ١-٤].

وهذه السورة الكريمة العظيمة عرفت العباد بربهم، وقد أنزلها رب العباد، جواباً لأهل الشرك والعناد، الذين سألوا الرسول ﷺ طالبين منه أن ينسب لهم ربّه.وقال ابن جرير الطبري في تفسير هذه السورة: « قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن نسب ربك، وصفته، ومَنْ خلقه: الرب الذي سألتموني عنه، هو الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا تصلح لشيء سواه » [الطبري: ٣٠/ ٣٤٣].

وقال القرطبي: « نزلت هذه الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ صف لنا ربك، أمن ذهب هو؟ أم من نحاس أم من صُفْر؟ فقال الله ردّا عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [القرطبي: ٢٠/ ٢٤٦]. وقال ابن كثير: « قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [ابن كثير: ٨/ ٣٨٩٢] ونقل ابن كثير عن عكرمة، قال: « لما قالت اليهود: نحن نعبد عُزيرَ ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيحَ ابنَ الله، وقالت المجوس: نحن نعبدُ الشمسَ والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [ابن كثير: ٨/ ٣٩٠٠].

ومعنى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ « أحد » في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنّه الكامل في ذاته وجميع صفاته وأفعاله.

والذين ينسبون إلى الله الولد جاؤوا بجريمة نكراء، كادت السموات لعظمها أن تتفطر، والأرض أن تتشقق، والجبال أن تخرَّ هدّا، إن الله سبحانه واحد أحد لا يليق به أن يتخذ ولداً، فالكل تحت ملكه وقهره، وجميعهم يأتون الرحمن يوم القيامة خاضعين، لا يتخلف منهم أحد، فقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

يَنفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥]. وكيف يكون له سبحانه ولد وقد خلق كل شيء ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقد عدّ الله- تبارك تعالى- نسبة الولد إليه شتماً له، ففي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد » [البخاري: ٤٩٧٤].

ووحدانيته تعالى في صفاته، تدل على أنه لا مثيل له في رحمته ولا في عزته، وجبروته،وملكه، وقدرته، ورزقه، وعلمه، وغيرها من صفاته.

فالله متفرد في صفاته، والذين شبهوا صفات الخالق بصفات المخلوق، أو صفات المخلوق بصفات الخالق لم يوحدّوا ربهم تبارك وتعالى، وأشركوا مع الله غيره.

وقد ضل الذين نفوا عن الله صفاته بدعوى أن إثباتها يشبه الله بخلقه ، فالله واحد متفرد في صفاته، وصفاته مخالفة لصفات المخلوقين، مثله في ذلك مثال ذاته، فهي مخالفة لذوات المخلوقين.

والذين نفوا عن الله صفاته بدعوى أن إثباتها يؤدي إلى التشبيه شبهوا الخالق بالعدم، فالذي تنفى عنه الصفات معدوم، ولذلك قال أهل العلم من سلفنا: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، ومرادهم بالمعطل نفاة الصفات.

ثانيا: وحدانيته تعالى في ربوبيته:

فهو سبحانه وحده الذي خلق السموات والأرض، وأنزل الماء من السماء،

وأنبت به جنات الأرض التي تبهج النفوس وتسرها: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩- ٦٠].

وقد أنكر الله على الذين اتخذوا أرباباً من دونه في قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. وقال مقرراً وحدانيته: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

ثالثاً: توحيده في ملكه :

ومن توحيد الربوبية توحيد الله في ملكه، يقول الشيخ حافظ حكمي:

(الأحد الفرد) « وهو أحد في ربوبيته فلا شريك له في ملكه، ولا مضاد، ولا منازع ولا مغالب، فكما أنه الأحد الفرد في ذاته وألهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فهو المتفرد في ملكوته بأنواع التصرفات، من الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة والخلق والرزق، والإعزاز والإذلال، والهداية والإضلال، والإسعاد والإشقاء، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والوصل والقطع، والضر والنفع، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما على إماتة من هو محييه، أو إعزاز من هو مذله، أو هداية من هو مضله، أو إسعاد من هو مشقيه، أو خفض من هو رافعه، أو وصل من هو قاطعه، أو إعطاء من هو مانعه، أو ضر من هو نافعه، أو عكس ذلك لم يكن ذلك بممكن في استطاعتهم، وأنّى لهم ذلك والكل خلقه وملكه وعبيده وفي قبضته وتحت تصرفه وقهره، ماض فيهم حكمه، عدل فيهم قضاؤه، نافذة فيهم مشيئته، لا امتناع لهم عما قضاه، ولا خروج لهم من قبضته، ولا تحرك ذرة في السموات والأرض ولا تسكن إلا بإذنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » [معارج القبول: ١/ ١٣٦].

وتوحيده في ملكه، هو من توحيده في ربوبيته سبحانه.

رابعاً: وحدانيته في ألوهيته:

فالله هو المعبود الحق الذي يستحق العبادة دون سواه، وكل من عبد معه إلهاً آخر يدعوه، ويستعين به، ويستغيث به، فقد أشرك غيره معه في ألوهيته: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]. ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]. وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

ووحدانية الله أخص خصائص ألوهيته، والإقرار بالألوهية أعظم أنواع العبادة التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ونقيض الوحدانية الشرك، وهو أعظم جريمة يرتكبها البشر، ولعظمها فإن الله لا يغفر لأحد مات على شركه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

ولما كان المشرك ذنبه غير مغفور، فإن الله حرّم عليه الجنة، وهو خالد في النار لا يخرج منها أبداً ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠- ٤١].

وقد حدثنا الرسول ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه[٣٣٥٠] « أن إبراهيم عليه السلام يلقى أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يُبْعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: « إني حرّمت الجنّة على الكافرين » ثم يقال: يا إبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار » .

إن الله لا يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه، لأن أباه مات مشركاً، والله حرّم الجنة على كل كافر مشرك، ولأن الله وعد إبراهيم أن لا يخزيه في يوم القيامة، فإنه يمسخ في ذلك اليوم أباه ضبعاً، فيلقى به في النار، فلا يعرف أحد أنه والد إبراهيم، فلا يخزى به.

تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الله بأسمائه الحي القيوم الواحد الأحد:

وردت أحاديث كثيرة صحيحة مجد الرسول ﷺ وأصحابه فيها الله عزَّ وجل بأسمائه الحي القيوم الواحد الأحد، وإليك بعض ما أورده ابن الأثير في ذلك من أحاديث:

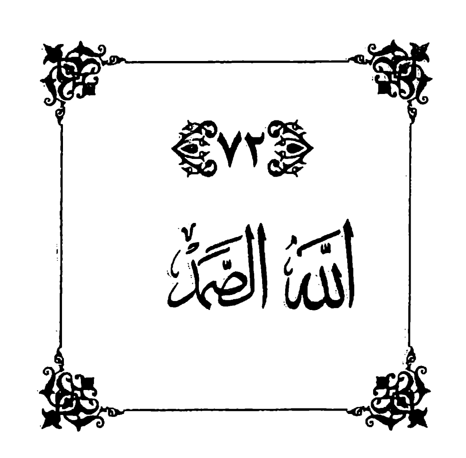
١- حديث الترمذي وأبي داود عن بريدة أَنَّ رسولَ الله ﷺ: « سَمِع رَجُلاً يقول: اللَّهمَّ إني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ، لا إلهَ إلاَّ أنتَ، الأَحدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدُ، ولم يكن له كُفُواً أَحَدٌ، فقال: والذي نفسي بيده، لقد سأل اللهَ باسمه الأعظَم، الذي إذا دُعِيَ به أَجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ». هذه رواية الترمذي.

وفي رواية أبى داود: « باسْمِهِ الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعيَ به أَجاب » [جامع الأصول: ٢١٤١] وصحح محقق الجامع إسناده.

٢- روى أبو داود والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنَّهُ كانَ مَعَ رَسولَ اللهِ ﷺ جَالِساً، ورُجلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا الرَّجلُ فقال: اللَّهمَّ إني أسألُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمدَ، لا إلهَ إلا أنتَ، المَنَّانُ، بَدِيعُ السَّموات والأَرض، ذو الجَلاَلِ والإكْرَام، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، فقال رسول الله ﷺ لأصحَابِهِ :أتَدرونَ بمَ دَعَا؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: والذي نفسي بيده، لَقَدْ دَعا الله باسمه الأعظم، الذي إذَا دُعِيَ به أَجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» واللفظ لأبي داود [جامع الأصول: ٢١٤٣] وصحح محقق الجامع إسناده.

٣- وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ كان يقول: « اللهم لك أَسْلمْتُ، وبك آمنت، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمْتُ، اللهم أعوذ بعزَّتك، لا إله إلا أنت،أنْ تُضِلَّنِي، أنت الحيُّ الذي لا يموتُ، والجِنُّ والإنْس يَموتونَ » [جامع الأصول: ٢٣٥٦].





من أسماء الله الحسنى الصمد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢].

(والصمد) الذي تصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم، فمنهم الذي يسأله الهداية، ومنهم الذي يسأله الرزق، وآخرون الشفاء والمعافاة، أو الزوجة، أو الولد، وهو يسمع دعاءَهم ونداءهم، لا يشغله أحد عن أحد، ولا طلب عن طلب، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقال الزجاجي في بيان معنى هذا الاسم: « والصمد السيد الذي انتهى سودده، فالناس يصمدونه في حوائجهم، أي: يقصدونه ويعتمدونه » [اشتقاق أسماء الله: ٤٤١].

وقال الخطابي: هو « السيد الذي يُصْمَدُ إليه في الأمور، ويُقْصد في الحوائج والنوازل، وأصل الصمد: القصد، يقال للرجل: اصمد صمد فلان، أي: اقصد قصده » [شأن الدعاء: ٨٥].

وعن ابن عباس أنه فسر (الصمد) « بالسيد الذي قد كمُلَ في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والعليم الذي كمل في علمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي

كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار » [ابن كثير: ٨/ ٣٩٠٠].

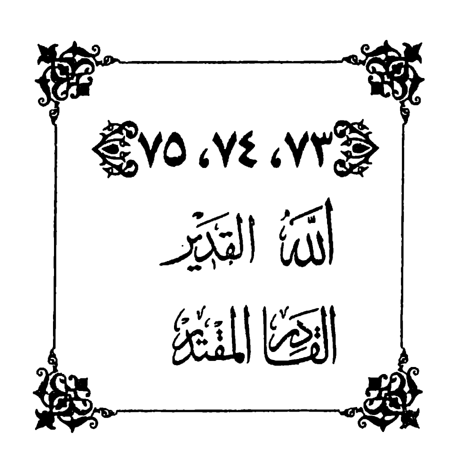
ويفهم من كلام ابن عباس رضي الله عنه أن الصمد: « يتضمن جميع صفات الكمال » [مجموع الفتاوى: ١٧/ ١٧٨].

وعزا ابن تيمية إلى بعض السلف أن « الصمد الدائم، وهو الباقي بعد فناء خلقه، فإن هذا من لوازم الصمدية، إذ لو قبل العدم، لم تكن صمديته لازمة له، بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه، وذلك محال، فلا يكون مستوجباً للصمدية، إلا إذا كانت لازمة له، وذلك ينافي عدمه، وهو مستوجب للصمدية، لم يصر صمداً بعد أن لم يكن- تعالى وتقدس- فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع، وأنه مفعول محدث مصنوع، وهذه صفة مخلوقاته » [مجموع الفتاوى: ١٧ / ١٦٤].

وجه مجيء « الصمد » معرفاً:

بين شيخ الإسلام وجه مجيء الصمد معرفاً دون اسمه « أحد » في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢] فقال: « جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد؛ لأن أحداً لا يوصف به في الإثبات غيره، بخلاف الصمد، فإن العرب تسمى السيد صمداً. قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف، فقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بيان لاختصاصه بكمال الصمدية » [مجموع الفتاوى: ١٧/ ٨١].





في مجال تعريف الرب العباد على نفسه، أعلمهم أنه القادر القدير المقتدر، ففي تعريفنا باسمه القادر قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]. وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وأعلمنا أنه قدير في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] وقال ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢].

وأعلمنا أنه سبحانه المقتدر في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] وقوله: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

والأسماء الثلاثة: القادر، والقدير، والمقتدر من القدرة وهي القوة، فالقادر هو القوي، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضيه الحكمة، لا زائداً عليه، ولا ناقصاً عنه.

ومن قدرته تبارك وتعالى إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، والمصلح للخلائق على وجه لا يقدر عليه أحد غيره، فضلاً منه وإحساناً، ومن تمام قدرته سبحانه أن يوجد الخلاق من غير معالجه، فإذا أراد شيئاً إنما يقول له: كن فيكون. ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ

كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فأمره سبحانه نافذ في الأكوان، لا يمتنع عنه شيء، ولا ينازعه منازع، ولا يخالفه مخالف، ومن نظر في قدرة الخالق والمخلوق علم أنه لا يقارن بينهما، فقدرة الخالق تتصف بالتمام والكمال، وقدرة المخلوق تتسم بالقصور والضآلة، وهي إلى زوال، حتى الملائكة الكرام أصحاب القوى الهائلة لا تأتي قدرتهم شيئاً بالنسبة لقدرة الواحد الديان.

وفي اسمه القدير يقول العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في [نونيته: ٢/ ٢١٨]:

وهو القدير وليس يعجزه إذا ... ما رام شيئاً قط ذو سلطان

والقدير من أسماء الله الثلاثة الدالة على صفة القدرة أبلغ من القادر، والمقتدر أبلغ من القدير.

وقد فصل لنا ربنا في كتابه القول ليعرفنا بقدرته، حتى يستقرّ هذا في قلوبنا، فتخضع له سبحانه القلوب، وتتوجه إليه الوجوه، فقد أعلمنا تبارك وتعالى أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

ومن قدرته تبارك وتعالى أنه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠] وهو سبحانه ﴿ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٦٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ومما يدل على قدرته، أنه قادر على أن يأتي بنا ويجمعنا أينما كنا، وحيثما حللنا: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومما عرفنا به ربنا تبارك وتعالى عن عظيم قدرته أنه – سبحانه- يقبض أرضه

بيده يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] أي: ما عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته.

وضرب الله مثلاً في كتابه لبيان ضعف الآلهة التي تعبد من دون الله وبيان بطلان ألوهيتها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] ثم عقب على ذلك قائلا: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

وقال أحد الملوك- وقد وقع الذباب على أنفه فآذاه- لعبد صالح: لماذا خلق الله الذباب؟ فقال العبد الصالح على البديهة: ليذل به الجبابرة.

وانظر إلى هذا الحشد الهائل الذي ساقه الله في هذه الآيات مدللاً به على قدرته واقتداره ووحدانيته: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[النجم: ٤٢- ٥٥].

والله قدَّر الأشياء كما قال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٦٥]. ويتحقق ذلك بإعطائها القدرة على مقدار مخصوص ووجه مخصوص، كتقديره في نواة الزيتون أن تنبت شجرة الزيتون، دون التين والعنب،وتقديره أن يوجد من الحيوان المنوي في الإنسان إنساناً لا حيواناً، كما قال في خلق الإنسان: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٨-١٩].

والقَدَر: قدرة الله، وهو علمه في الأزل بكل شيء سيوجده ويخلقه على النحو الذي يريد إيجاده، وكتابةُ ذلك في اللوح المحفوظ، ثم خلقه الأشياء على النحو الذي أراده وكتبه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣].وقال: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وعلى المؤمن بقدرة الله سبحانه أن لا يغتر بقدرته، وأن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى فيما ينوبه، فقد علمنا ربنا ورسوله ﷺ أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلمنا رسولنا ﷺ الاستخارة في الأمور كلها، فبعد أن نصلي ركعتين من غير الفريضة، نتوجه إلى الله بقلوب مخبتة، متواضعة لجلال الله وعظمته سبحانه، متخلين من الاعتماد على علمنا القاصر، وقدرتنا الناقصة الفانية، معلنين ذلك لله ربنا، طالبين منه أن يختار لنا خير الأمور فيما نحن مقبلون عليه، ومما ورد في هذا الدعاء المأثور عن الرسول ﷺ: « اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب .

اللهَّم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري، أو قال: عاجلِ أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه.

وإن كنت تعلم أن في هذا الأمر شرّاً لي في ديني ومعاشي، وعاقبةِ أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به ».





عرفنا ربنا- تبارك وتعالى - أنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وقد وردت هذه الأسماء الأربعة مجموعة في موضع واحد في كتاب الله في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

والأول هو الذي لا شيء قبله، والآخر الباقي الذي لا شيء بعده، ذلك أنه تبارك وتعالى الموجود أزلاً وأبداً، لا يقبل العدم ولا الفناء، وغيره مربوب مخلوق، أنشأه الله من عدم، ثمَّ إلى العدم يصير.

قال الخطابي: « الأول: السابق للأشياء كلها، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق، فاستحق الأولية إذ كان موجوداً، ولا شيء قبله ولا معه، وهو الآخر الباقي بعد فناء الخلق، وليس معنى الآخر ماله انتهاء، كما ليس معنى الأول ماله ابتداء، فهو الأول والآخر. » [شأن الدعاء: ص ٨٧. بتصرف يسير].

وقال البيهقي: « الأول هو الذي لا ابتداء لوجوده، والآخر هو الذي لا انتهاء لوجوده » [الاعتقاد: ص ٦٣].

وقال الزجاجي: « الله عز وجل الأول، لأنه كان قبل الأشياء كلها، فهو الأول الذي لم يتقدمه شيء، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فنائها » [اشتقاق أسماء الله الحسنى: ص ٣٥٥].

وقال ابن جرير: « هو الأول قبل كل شيء بغير حد، الآخر بعد كل شيء بغير نهاية، وإنما قيل كذلك ، لأنه كان ولا شيء سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كما قال جل ثناؤه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]. [تفسير ابن جرير: ٢٧/ ٢١٥].

وسمّى الله سبحانه باطناً، لأنه سبحانه محتجب عن أبصار الخلائق، فلا يراه أحد في الدنيا، ولذلك قال لكليمه موسى عليه السلام عندما طلب منه أن يمكنه من النظر إليه: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلم يطق الصخر الأصم أن يصمد لأنوار الحق، أما في الآخرة فإن العباد يخلقون خلقاً غير قابل للفناء، ولذا فإن المؤمنين يتمكنون من رؤية ربهم في جنات النعيم.

فالله حجب نفسه عن أن يراه خلقه في الدنيا، فلا يشاهد كما تشاهد المخلوقات.

ومع أنه سبحانه باطن، فهو كما يقول الزجاجي: « ظاهر بالدلائل الدالة عليه، وأفعاله المؤدية إلى العلم به، ومعرفته، فهو مدرك بالعقول والدلائل » [اشتقاق أسماء الله الحسنى: ص ٢٣٣] ويقول البيهقي: « الظاهر: هو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهنيه النيرة وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته » [الاعتقاد: ص ٦٣].

ويرى بعض أهل العلم « أن الظاهر العالم بما ظهر، والباطن العالم بما بطن » [معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥/ ١٢٢].يقول الزجاجي: « والباطن أيضاً في كلام العرب: الخبير العالم بما بطن من أمور » [اشتقاق أسماء الله: ص ٣٦٣]. «وقد يكون المراد بالظاهر ظهوره سبحانه وعلوه فوق كل شيء » [جامع الأصول: ٤/ ١٨١].

وقال الخطابي: « وقد يكون الظهور بمعنى العلو، ويكون بمعنى الغلبة » [شأن الدعاء: ص ٨٨].

وذهب هذا المذهب ابن جرير، فالظاهر عنده: « الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه » [تفسير ابن جرير: ٢٧/ ٢١٥].

تفسير ابن القيم رحمه الله لهذه الأسماء الأربعة:

وهذه الأسماء الأربعة -كما يقول ابن القيم- « هي أركان العلم والمعرفة » ومن هنا فإنه « حقيق بالعبد- كما يقول- أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه ».

وبين رحمه الله « أن لك أنت أولاً، وآخراً وظاهراً وباطناً، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس ».

وعقب على ذلك مبيناً ما تفردت به أولية الله وآخريته، وظاهريته وباطنيته، فقال: « فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ». ثم بين أن معنى أوليته « سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته- سبحانه- فوقيته وعلوه على كل شيء ».

وهو يرى رحمه الله أن « معنى الظهور يقتضي معنى العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه، وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ».

ثم بين ابن القيم رحمه الله أن « مدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره،

ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء ولا أرض أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ».

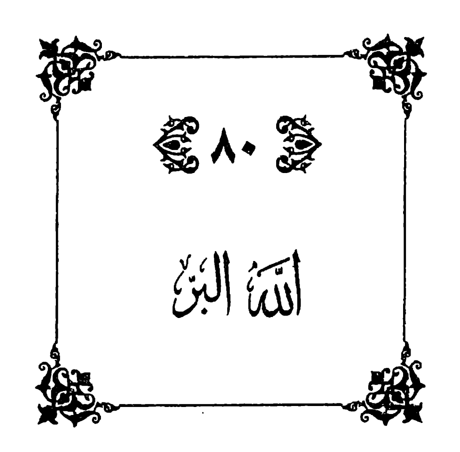
وختم كلامه القيم رحمه الله بقوله: « هذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ».[معارج القبول: ١/ ١٣٥].

ويقول ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢١٣] في هذه الأسماء الأربعة:

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبر	وتبصر وتعقل لمعان

وقد بين رسول الله ﷺ معاني هذه الأسماء الأربعة، في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، قال: « حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير عن سُهَيْلٍ قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ. ثُمَّ يَقُولُ «اللّهُمَّ ! رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ.

أَعُوذ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللّهُمَّ ! أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْس دُونَكَ شَيْءٌ، اقْض عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنا مِنَ الْفَقْرِ » وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ [صحيح مسلم: ٢٧١٣].



أخبرنا ربنا تبارك وتعالى حاكياً مقالة أهل الجنة بعد دخولهم الجنّة ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٨].

« والبر- كما يقول ابن منظور- العطوف الرحيم اللطيف الكريم.

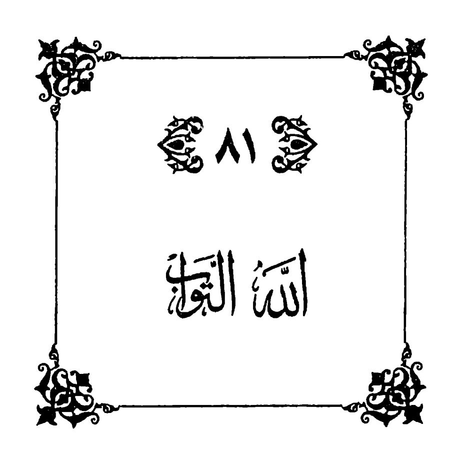
قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى البرُّ دون البار، وهو العطوف على عباده ببره ولطفه، والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البرُّ دون البارّ » [لسان العرب: ١/ ١٩١].

وقال أبو سليمان الخطابي: « البر هو العطوف على عباده، المحسن إليهم، عمَّ ببره جميع خلقه، فلم يبخل عليهم برزقه، وهو البرُّ بأوليائه، إذ خصهم بولايته، واصطفاهم لعبادته، وهو البرُّ بالمحسن في مضاعفة الثواب له، والبر بالمسيء في الصفح، والتجاوز عنه » [شأن الدعاء: ٨٩].

ومن تأمل في برّ الله بخلقه، وإحسانه إليهم، وعطفه عليهم، وجده كريماً لا ساحل لكرمه، عطوفاً لا يتوقف عطفه ولا يتلاشى، خيره إليهم نازل، وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم، ويتبغضون إليه بالمعاصي، يرسل السماء عليهم مدراراً، ويمدهم بالأموال والبنين، ويجري لهم الأنهار، وينبت لهم جنات الأرض،

ويخرج لهم كنوزها.

وكل ما في الدنيا لا يأتي قطرة من بره بعباده المؤمنين في الآخرة في جنات النعيم، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، لا يهرمون، ولا ييأسون، ولا يموتون، ولا يمرضون.



من أسماء الله الحسنى التي يعرف العباد ربهم بها التواب، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

١- بيان معنى التواب:

« والتواب فعَّال، من تاب يتوب، أي: يقبل توبة عباده، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفعَّال من أبنية المبالغة مثل ضرَّاب للكثير الضرب، لقبوله توبة عباده، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة، وواحداً بعد واحد على طول الزمان، وقبوله- عزَّ وجلَّ- ممن يشاء أن يقبل منه، فالعبد يتوب إلى الله عزَّ وجل، ويقلع عن ذنوبه، والله يتوب عليه، أي: يقبل توبته، فالعبد تائب، والله تواب » [اشتقاق أسماء الله: ٩٦].

وقال أبو سليمان الخطابي ما خلاصته: « التواب الذي يتوب على عبده، ويقبل توبته، كلما تكررت التوبة تكرر القبول، يقال: تاب الله على العبد: بمعنى وفقه للتوبة، ومعنى التوبة: عَوْدُ العبد إلى الطاعة بعد المعصية »[شأن الدعاء: ٩٠].

٢- امتداح الله نفسه بقبوله توبة عباده:

وقد امتدح الله نفسه تبارك وتعالى بقبوله توبة عباده ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

والله يريد من عباده أن يعلموا أنه يقبل توبة عباده: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقد أسلفت أنَّ الله تواب، أي: كثير التوب، فمهما عظمت ذنوب التائبين وكثرت فإن الله يغفرها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

والله تبارك وتعالى يحب توبة عباده، ويفرح لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٣- فرح الله بتوبة عبده:

وقد بين لنا رسولنا ﷺ فرح ربنا بتوبة عبده، فقال في الحديث الذي يرويه أنس ابن مالك: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» [مسلم: ٢٧٤٧].

ورواه أيضا عن الحارث بن سويد قال: « دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ أعُودُهُ وَهُوَ مَريضٌ، فَحَدَّثنا بِحَدِيثَيْنِ، حَدِيثاً عَنْ نَفْسِهِ، وَحَدِيثاً عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «لَلَّهُ أشَدُّ فَرَحاً بِتَوبة عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ في أرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَة، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ

فَطَلَبَهَا حَتَّى أدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا زَادُهُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ » [أخرجه البخاري: ٦٣٠٨ – مسلم: ٢٧٤٤].

ورواه عن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « كَيْفَ تقولونُ بِفَرَحِ رَجُلٍ انْفَلَتَتْ مِنْهُ رَاحِلَتُهُ، تَجُرُّ زِمَامَهَا بِأرْضٍ قَفْرٍ لَيْسَ بِهَا طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ، وَعَلَيْهَا لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ، فطَلَبَها حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ مَرَّتْ بِجِذْلِ شَجَرَة، فَتَعَلَّقَ زمامُها، فَوَجَدَهَا مُتَعَلِّقَةً بِهِ ؟ » قُلْنَا : شَدِيداً، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أمَا، وَاللَّهِ! لَلَّهُ أشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عبده مِنَ الرَّجُلِ بِرَاحلَتِهِ ». [مسلم: ٢٧٤٦].

٤-الله وحده الذي يقبل توبة عباده:

الله وحده الذين يقبل التوبة، ويغفر الحوبة، ويعفو ويصفح، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

فالتوبة إلى الله وحده، حالها حال الصلاة والدعاء والاستغفار، ولا يتاب إلى نبي مرسل، ولا إلى ملك مقرب، وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وجاء تقرير هذه الحقيقة في الدعاء الذي علمه الرسول ﷺ لأبي بكر أن يقول: « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً- أو كثيراً - ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم » [البخاري: ٧٣٨٨، ٧٣٨٧: ومسلم: ٢٧٠٥].

وقد نصب رهبان النصارى أنفسهم شركاء لله، فزعموا أن لديهم صلاحية غفران الذنوب، والتوبة على العباد، وهذا من إفكهم وضلالهم.

٥- خلقنا الله خطائين ليغفر لنا:

والله يعلم أن عباده لا يخلون من قصور ونقص، فإن ذلك من طبيعة خلقهم التي خلقهم عليه، وقد خلقهم كذلك لتظهر فيهم رحمته وغفرانه وتوبته، ففي الحديث عن أبي أيوب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون، يغفر لهم » [مسلم: ٢٧٤٨].

وفي رواية: « لو أنكم لم تكن لكم ذنوب، يغفرها الله لكم، لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم » [مسلم: ٢٧٤٨].

وفي الحديث عن أنس عن النبي ﷺ قال: « كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » [الترمذي: ٢٤٩٩. وحسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٢٠٢٩].

٦- أمثلة لتوبة الله على التائبين:

وقد أخبرنا ربنا عن توبته على عباده، ومنهم أنبياؤه ورسله، فمنهم آدم عليه السلام، نهاه الله عن الأكل من شجرة من شجر الجنة، فعصاه بالأكل منها، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۞ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٠- ١٢٢]. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والكلمات التي تلقاها من الله هي المذكورة في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا في دعائهما ربهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وموسى عليه السلام عندما سأل ربه أن ينظر إليه، فطلب منه أن ينظر إلى الجبل في حال تجلية له، فلما رأى الجبل يدك عندما تجلى له خرّ صعقاً: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن توبته على رسوله ﷺ وأصحابه الذين اتبعوه في غزوة تبوك، كما تاب على الثلاثة الذين خلفوا ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

٧- دعوة الله عباده إلى التوبة:

دعا الله عباده المؤمنين إلى تطهير أنفسهم بالتوبة، وبذلك يتخلصون من ذنوبهم ويدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم: ٨]. وقال عزَّ من قائل: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وأعلمنا أن الذين يرتكبون الذنوب ثم لا يتوبون ظالمون ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه وأمته بمثل ما أمر الله به من التوبة والاستغفار، ففي صحيح مسلم [٢٧٠٢] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة ».

إن التوبة تزيل آثار المعاصي، وتبارك النفوس، وفي [صحيح مسلم: ٢٧٠٢] عن الأعز المزني: أن الرسول ﷺ قال: « إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

٨- التوبة النصوح:

والتوبة المقبولة هي التوبة النصوح التي دعانا الله إليها في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة النصوح التوبة الصادقة، وتكون التوبة صادقة بتحقيق الأمور التالية:

أولاً: أن يدرك العبد خطأه:

وأنه عصى ربه، وخالف أمره، فالذي يشرب الخمر، ويواقع الزنا، ويأكل الربا، إن لم يعترف بأن أفعاله هذه ظلم ومعاصي وآثام لا يمكن أن يتوب منها، فكثير من الغربيين ومن لف لفهم يعتبرون هذه المعاصي وما يتبعها من مراقصة النساء، وإقامة الحفلات المختلطة من الحضارة والتمدن والتقدم، فكيف يتوب أمثال هؤلاء !!.

إن التوبة تكون للمؤمنين الذين يعترفون بتقصيرهم وظلمهم، وهم يجاهدون أنفسهم للإقلاع عما يقترفونه من الذنوب، وأول التوبة العلم بأن ما اقترفه العبد ذنب ومعصية.

ثانيا: إصلاح العبد احواله:

على التائب أن يغير من مساره، ويجفو الحال التي كان عليها، فإن كان له رفقة سوء، ومواضع لهو، فعليه أن يهجر صحبة السوء ويتخذ رفقة صالحة تذكره بالله، وتعينه على الاستقامة على أمره، وعليه بدل ارتياد مواطن اللهو والفسق أن يرتاد المساجد ودروس العلم، وبدل قراءَة الكتب السيئة أن يتجه إلى تلاوة كتاب الله، والنظر في تفسيره، وقراءَة أحاديث رسول الله ﷺ، وهذا هو الإصلاح الذي ذكره الله في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وتوبة الكفار تكون بالإيمان والإتيان بالأعمال الصالحة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وليس معنى ذلك أن العبد إن عزم على التوبة، وبدأ في إصلاح أحواله ثم انتكس وارتكس أن ييأس من رحمة الله، بل عليه أن يتوب ثانياً وثالثاً، حتى يستقيم أمره، ويصلح حاله، فإن كثرة المجاهدة مرة بعد مرة توصله إلى الشاطئ الآمن، وإن لم يفقه هذا الفقه يصيبه اليأس، ويقتنصه الشيطان اقتناصاً لا فكاك له منه.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً، فَقَالَ: اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ ! اغْفِرِ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ: تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ ربِّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » [مسلم: ٢٧٥٨].

ثالثاً: إظهار الحق:

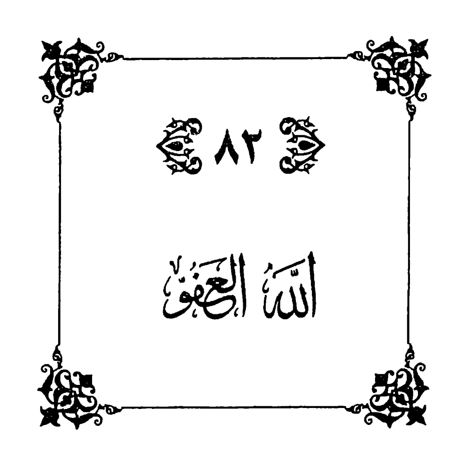
إن كانت المعصية كتماناً للحق، كالذين كتموا صفات الرسول ﷺ في كتبهم من اليهود والنصارى، أو الذين كتموا حقوق العباد في شهاداتهم، فعليهم حتى تقبل توبتهم أن يظهروا الحق الذي كتموه، كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [البقرة: ١٦٠].

رابعاً: التوبة من المعاصي التي تتعلق بحقوق العباد:

إذا كانت التوبة لها تعلق بحق من حقوق العباد، فلا بدَّ لمن ارتكبها أن يتحلل من صاحبها حتى يتوب الله عليه.

التسويف في التوبة:

على العبد أن يعجل بالتوبة، قبل أن يفجأه الأجل، أو ينزل العذاب، فالله لا يقبل التوبة عندما يحين أجل العبد، ويصل إلى الغرغرة، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].



من أسماء الله الحسنى التي تعرف بها الله سبحانه وتعالى إلى عباده العفو، قال تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة: ٢]. وقال: ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٩]. وقال: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

والعفو صيغة مبالغة، أي: أن الله – سبحانه- كثير العفو، والعفو: الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء، وقيل: إن العفو مأخوذ من عفت الريح الأثر، أي درسته وأزالته، فكأن العافي عن الذنب يمحوه بصفحه عنه. [اشتقاق أسماء الله بشيء من التصرف: ٩٠].

وقال الغزالي في تفسيره: « العفو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر » [المقصد الأسنى: ١١٧].

وعفو الله يكون لما يقع من العبد من تقصير وضعف، فالله أوجب الوضوء لمن أراد الصلاة إذا انتقض وضوؤه، ولكنه عفى عمن لا يجد الماء أو لم يستطع استعماله مراعاة لضعف العباد فأباح التيمم،وهذا من تمام عفوه سبحانه ومغفرته،

ولو شاء إعناتنا لألزمنا بالوضوء أبداً، قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

والله سبحانه يتجاوز عن كثير من الذنوب والخطايا، ولو كان يؤاخذ الناس بكل ما يصدر عنهم، لأفنى خلقه، وأزالهم من الوجود ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

ومن عفوه- سبحانه- أنه يستر على عبده في الدنيا، فلا يفضحه، ويستر على كثير من عباده في الآخرة، فيعرفهم ببعض ذنوبهم، ثم يبشرهم بغفرانه لها، بل وتبديلها حسنات، فسبحانه ما أعظمه وأكرمه، وما أعظم عفوه وغفرانه.

وعلى العباد أن يعلموا سعة عفو الله، وأن يلجؤوا دائماً إلى عفوه، سائلين إياه أن يتجاوز عنهم بعفوه وكرمه، وقد أخبرنا ربنا- تبارك وتعالى- أن من صفات المؤمنين الذين أثنى الله عليهم في آخر سورة البقرة أنهم يدعون ربهم قائلين: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وعفوه تبارك وتعالى واسع، كما قال ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢٢٧]:

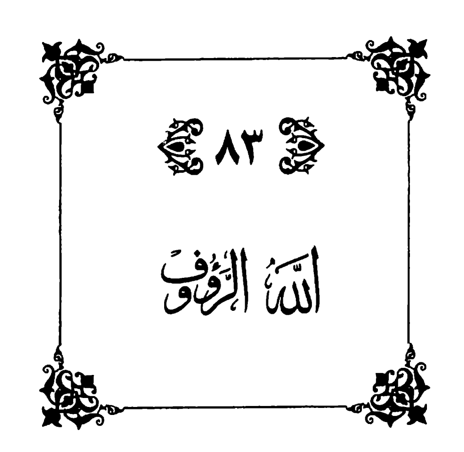
وهو العفو فعفوه وسع الورى ... لولاه غار الأرض بالسكان

وقد سألت الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها وعن أبيها الرسول ﷺ عما تقوله في ليلة القدر إن هي علمتها، فعلمها أن تقول: « اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » . [سنن الترمذي (٣٥١٣)]، وهو حديث صحيح.

وكان من دعائه ﷺ إذا قام من الليل أن يقول: « اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك » [مسلم: (٤٨٦)].

وقد دعا الله عباده إلى العفو عمن ظلمهم، والتجاوز عمن سفه عليهم إذا هم قدروا، ووعدهم على ذلك بعفوه وتجاوزه عنهم، ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] وقال سبحانه مطمعاً عباده بالعفو: ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]. وقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. وقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وفي الحديث: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » [مسلم عن أبي هريرة: ٢٥٨٨].



٨٣
الله الرؤوف

من أسماء الله الحسنى التي تعرف بها إلى عباده الرؤوف، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١٧]. وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

قال ابن الأثير في تعريف الرؤوف: « في أسماء الله الرؤوف هو الرحيم بعباده، العطوف عليهم بألطافه، والرأفة أرق من الرحمة » [النهاية: ٢/ ١٧٦].

وقال الخطابي: « الرؤوف الرحيم العاطف برأفته على عباده، وقال بعضهم: أبلغ الرحمة وأرقها، ويقال: إن الرأفة أخص، والرحمة أعم ». [شأن الدعاء: ٩١].

ومن رأفته -سبحانه- أنه لا يبطل عمل عباده الذين عملوا قبل وقوع النسخ، فقد تساءَل الصحابة عن عملهم وعمل إخوانهم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس بعد أن حولت القبلة إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٤٣].

ومن رأفته سبحانه أنه أخبر عباده بما سيلاقونه في يوم القيامة، حيث تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وهذا الإخبار من رأفته، حتى يستعد الناس لذلك اليوم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

﴿وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

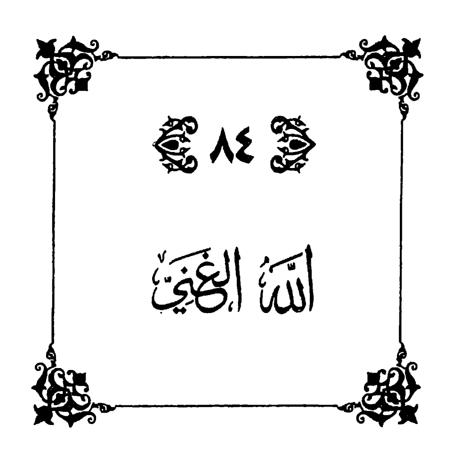
ومن رأفته- تبارك وتعالى- إنزاله الكتاب على رسوله ليخرجنا من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الحق ودين الإسلام ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

ومن رأفته توبته على عباده ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

ومن رأفته سبحانه تسخيره لنا وسائل النقل الممثلة في الجمال والخيول والبغال والحمير قديماً، والسيارات والطائرات حديثاً ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

والمؤمن الحق الذي يعلم أن ربّه رؤوف رحيم دائماً يلجأ إلى الله باسمه الرؤوف داعياً ومنادياً طالباً منه أن يرأف به، ويرحمه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].





من أسماء الله الحسنى التي تعرف بها إلى عباده وأمرهم أن يعلموها الغني، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧]. ومن المواضع التي ورد فيها هذا الاسم قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[الأنعام: ١٣٣]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

١-بيان معنى الغني:

« والغني في كلامِ العربِ: الذي ليسَ بمحتاجٍ إلى غيرِهِ، وكذلك الله ليس بمحتاج إلى أحد جل وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] وكل الخلق إليه جل اسمه محتاج كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فالله عز وجل ليسَ بمحتاج إلى أحد فيما خلق وما يخلق، ودبر ويدبر، ويعطي ويرزق، ويقضي ويمضي، لا رادَّ لأمره، وهو على ما يشاء قدير.

هذا أصل الغنيّ في كلام العربِ، وهو أن لا تكون بالإنسانِ حاجة إلى غيرِهِ، وإنما سميَ ذو اليسارِ والمال غنياً، لاستغنائهِ بالمال الذي عنده عن غيرِهِ، وحاجةِ الناسِ إلى ما عنده، وهذا مجاز، وليس في العالم أحد غنياً في الحقيقة، لأنه بكلِّ مَنْ

فيهِ محتاج إلى غيرهِ- كان ذا يَسارٍ أو مُعدِماً كبيراً كان أو صغيراً- لا بُدَّ له من الحاجةِ إلى غيرهِ في مَعُونةٍ أو تصرُّفٍ أو غير ذلكَ من أمورِ الدنيا التي بعضُها منوطٌ ببعضٍ ». [اشتقاق أسماء الله: ١٩٤].

٢- غنى الله غنى ذاتي وفقر العباد ذاتي:

قال ابن القيم رحمه الله مجلياً هذه الحقيقة: « قال الله سبحانه: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] بيَّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمرٍ أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يُعلّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلةٍ أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفَقْرُ وَصْفُ ذاتٍ لازمٍ أبداً كما الغِنى أبداً وَصْفٌ له ذاتي

فالخلق فقيرٌ محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يُذكر ويُقرر من أسبابِ الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا عِلَلٌ لذلك، إذ ما بالذات لا يُعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته، فما يُذكر من إمكان وحُدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له » [طريق الهجرتين:٦٦٨].

يقول ابن القيم [النونية: ٢/ ٢١٨] مقرراً أن غنى ربنا ذاتي:

وهو الغني بذاته فغناه ذا تي له كالجود والإحسان

٣- دلائل غنى الرب وسعة غناه وكثرته:

دلنا ربنا- تبارك وتعالى- على دلائل غناه، وسعته في مواضع من كتابه، كما

دلنا على ذلك رسوله ﷺ، **فمن ذلك:**

أ- ملكه للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما:

ومن غناه سبحانه أنه مالك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لا شريك له في شيء من ذلك، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]. ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقد دلنا ربنا على غناه بما بينه لنا في الحديث القدسي الذي يملأ القلوب مهابة، والرب فيه يحدثنا عن نفسه، فكلنا محتاجون إليه، في هدايتنا وفي طعامنا وشرابنا وكسوتنا، وغفران ذنوبنا. لا ينفعه تقوانا ولا يضره فسقنا وفجورنا.

ولو أن العباد اجتمعوا في صعيد واحد إنسهم وجهنم، وسأل كل واحد ربه مسألته فأعطاه إياها، لم ينقص ذلك من ملكه إلا كما تنقص الإبرة عندما تغمس في البحر، ثم تخرج منه .

روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. فِيمَا رَوَىَ عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ أَنَّهُ قَالَ: « يَا عِبَادِي إِنّي حَرّمْتُ الظّلْمَ عَلَىَ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّماً، فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلّكُمْ ضَالّ إِلاّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلّكُمْ جَائِعٌ إِلاّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلّكُمْ عَارٍ إِلاّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللّيْلِ وَالنّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرّي فَتَضُرّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَىَ أَتْقَىَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَىَ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلاّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنّ إِلاّ نَفْسَهُ ».

ب- غناه عن الصحابة والولد والشريك:

اتخذ البشر على مدار التاريخ آله من دون الله، وزعموا أن بعضهم أبناء أو بنات لله، وأن بعضهم شفعاؤهم عند الله، فأكذبهم الله تبارك وتعالى فيما يقولون، ونزه نفسه عن الصاحبة والشريك والولد، فالجميع خلقه، وهو غير محتاج الى أحد منهم، وهم المحتاجون إليه ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس:٦٨]

وقالت الجن فيما حدثنا الله عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] والجد: العظمة، أي: تعالت عظمته أن يتخذ صاحبه أو يتخذ ولداً، فإنه غني عنهم، غير محتاج إليهم.

ج- غناه عن عباده، فالله خلق الخلق ليعبدوه:

الله غني عن عباده، فهو لا يريد منهم طعاماً ولا شراباً ولا رزقاً، بل هم المحتاجون إليه في طعامهم وشرابهم ورزقهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]

فإن كفر العباد بربهم، ورفضوا عبادته وطاعته، فهو غني عنهم ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨] ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] ﴿وَمَن

يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد ضل سفهاء اليهود الذين زعموا أن الله فقير إذ يسألهم النفقة والبذل والعطاء وهم أغنياء، وسيكون جزاؤهم النار. ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

د- على العباد وهم يُدْعون إلى البذل والإنفاق في المجالات التي يحبها الله أن يستشعروا أن الله غني عنهم، وهم المحتاجون إليه، وهو إنما يدعوهم للبذل لكي يثيبهم ويأجرهم، ويدخلهم جنته، لا لحاجته إليهم، وفقره إليهم، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ولذلك فإنهم إذا منّوا على الله أو على خلقه بأعمالهم أبطلوا أعمالهم: ﴿۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٣- ٢٦٤]. وقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

٤- تمجيد الله باسمه الغني ودعائه به:

أمرنا الله أن نعلم أنه غني حميد ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

واستقرار هذا المعنى في قلب العبد يوجب عليه أن يتوجه إليه في كل حاجاته، فالعبد دائماً فقير إلى خالقه، يحتاج إليه فيما يمده بالبقاء من الهواء والماء والطعام، ويحتاج إليه كي يدفع عنه أسباب الهلاك، وعلى العبد أن يسدَّ فقره وحاجته بتوجهه إلى رب العباد، كما قال إبراهيم عليه السلام في الثناء على ربه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۞ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۞ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١].

وكان الرسول ﷺ يقول في استغاثته ربه في الاستسقاء: (اللهم لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت قوة لنا وبلاغا إلى حين). [سنن أبي داود (١١٧٣)] وهو حديث حسن.

ومن دعائه الذي علم المدينين أن يدعوه به « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، واغنني بك عمن سواك ». [مسند أحمد (١٣١٩)، وسنن الترمذي (٣٥٦٣)] قال الترمذي: حديث حسن غريب] .





من أسمائه الحسنى المقدسة سبحانه النور، قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يدعو في قيامه من الليل فيقول: « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض، لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت نور السموات والأرض » [البخاري: ٧٣٨٥] وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام من جوف الليل: « اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض » [مسلم: ٧٦٩].

وفي سنن الترمذي بإسناد حسنه الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عزَّ وجل خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله » [الترمذي: ٢٦٤٢].

١- نور الله ليس كمثله نور:

نور الله الذي يتصف الباري به لا يشبه الأنوار المخلوقة، فهو نور ليس

كالأنوار على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فكما أنه تعالى له علم لا يشبه علم المخلوقين، ورحمة لا تشبه رحمة المخلوقين، وقدرة لا تشبه قدرة المخلوقين، فكذلك نوره لا يشبهه نور المخلوقين، فهو نور لا كالأنوار، قال ابن العربي: « إنه نور لا كالأنوار، قاله أبو الحسن الأشعري، قال: وقالت المعتزلة: لا يقال إنه نور إلا بالإضافة، قال: والصحيح عندنا أنه نور لا كالأنوار لأنه الحقيقة، والعدول عن الحقيقة إلى «نور هادي» أو منور، أو ما أشبه ذلك، مجاز من غير دليل لا يصح، ولأنَّ الأثر يعضده » [نقله عنه محمد بن حمد الحمود في النهج الأسنى: ٢/ ٦٨١].

٢-الجهمية أوجبوا تأويل هذا الاسم:

نقل ابن تيمية رحمه الله تعالى عن بعضهم أن يجب تأويل اسمه « النور » قطعا. [مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٢٥].

ورد هذا القول قائلاً: « جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم، وهذا مذهب السلفية، وجمهور الصفاتية، من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم، وهو قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات، ورد على الجهمية تأويل اسم النور، وهو شيخ المتكلمين الصفاتية من الأشعرية، وحكاه عنه أبو بكر بن فورك في كتاب «مقالات ابن كلاب » والأشعري، ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذمومين باتفاق، وهو- أيضاً- قول أبي الحسن الأشعري ذكره في « الموجز ». [مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٢٨].

فأنت ترى أن القول بتأويل اسمه النور ليس مذهب سلف الأمة، بل هو مذهب الجهمية الذين قصدوا إفساد هذا الدين بتأويلاتهم الباطلة.

٣- الله النور وحجابه النور وهو نور السموات والأرض:

ونصوص الكتاب والسنة التي سمى الله فيها نفسه نوراً جاءت بثلاثة كما يقول

ابن تيمية:

الأول: اتصافه بصفة النور في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. وورد ذلك أيضا في حديث الترمذي: (٢٦٤٢) « وألقى عليهم من نوره ».

والثاني: كونه تبارك وتعالى نوراً: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]. ومثله ما جاء في الحديث: « أنت نور السموات والأرض ». [البخاري: (٧٣٨٥)].

الثالث: حجابه النور، فقد ورد في صحيح مسلم: (١٧٩)(٢٩٣): « حجابه النور، أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ». [مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٣٢- ٢٣٣].

٤- كونه نورا لا يمنع من كونه هادياً لخلقه منوراً لسماواته وأرضه:

بين شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن الممنوع الذي لا يقبل ولا يرتضى إنكار كون النور صفة لله عزَّ وجل، وتأويل النور بالهادي والمنور، أمَّا الإقرار بأن الله يتصف بصفة النور كما يتصف بالرحمة والعلم والقدرة، ثم الاعتقاد بأن من لوازم ذلك هداية خلقه، وتنوير سماواته وأرضه، فهو صحيح، لا يمنع منه مانع.

والذين فسروا من السلف أنه سبحانه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، بأنه هادي أهل سماواته وأرضه، تفسيرهم هذا من باب ذكر النوع أو اللازم، كما فسروا الصراط المستقيم ونحو ذلك [مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٣٥].

٥-الرد على من زعم أن النور مضاف إلى الله إضافة خلق وإيجاد:

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الذين زعموا أن إضافة النور إلى الله إضافة خلق وملك كإضافة الناقة إليه﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾[الشمس: ١٣] لوجوه:

أحدهما: أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة، فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا: إنها نور الله، ولا في الشمس والقمر، وإنما يقال كما قال

عبد الله بن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ».

الثاني: أن الأنوار المخلوقة - كالشمس والقمر - تشرق لها الأرض في الدنيا، وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله، وكذلك من قال: منور السموات والأرض لا ينافي أنه نور، وكل منور نور، فهما متلازمان.

ثم إن الله- تعالى- ضرب مثل نوره في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح، وهو في نفسه نور، وهو منور لغيره، فإذا كان نوره في القلوب هو نور، وهو منور، فهو في نفسه أحق بذلك، وقد علم كل ما هو نور فهو منور.

وأما قول من قال: معناه: منور السموات بالكواكب، فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه نور السموات، وأنه أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنى إلا هذا فهو مبطل؛ لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض.

وأيضاً، فإنه قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين، فعلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين نور الإيمان، والعلم مراد من الآية، لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى، وأبي العالية والحسن، بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس؛ لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور أما إنهم يقولون: قوله: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليس معناه إلا التنوير بالشمس، والقمر والنجوم، فهذا باطل قطعاً » [مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٣٦].

٦- أنوار الكتب السماوية

أخبرنا ربنا أن الكتب المنزلة من عنده نور يضيء الله به قلوب العباد، قال

تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾[الأنعام:٩١] وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦].

وأعظم الأنوار المنزلة الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وبهذا النور العظيم أخرج الله الذين آمنوا من الظلمات إلى النور ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩] وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

٧- إرادة الكفار إطفاء نور الله:

والكفرة يجهدون بكل سبيل على أن يذهبوا بالقرآن الذي يضيء قلوب المؤمنين، وينير حياتهم ومجتمعاتهم، ولكن الله حافظ كتابه، وكتابه حافظ لهذه الأمة من الزوال، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الصف: ٨].

ولقد حاول الكفرة أن يذهبوا بهذا القرآن، ويذهبوا بلغته، فزالوا وبقي القرآن، وبقيت لغته، وستبقى إلى يوم الدين.

وإذا شاء حملة هذا الدين أن تعز هذه الأمة وتنتصر، وتعود كما كانت من قبل فعليهم أن يخرجوا هذه الأمة بهذا القرآن من الظلمات إلى النور، وتلك مهمة الأنبياء وأتباع الأنبياء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

٨- تفسير ابن القيم لآية النور في سورة النور:

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى آية النور، وهي قوله تعالى ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ثم قال مفسرا لها: « قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم، وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل وثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا.

منهم من نوره كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم، وآخر كالسراج، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضئ مرة ويطفأ أخرى، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا، بل كان نوره ظاهراً لا باطناً أعطي نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب..

وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة، وهي الكوَّة في الحائط، فهي مثل الصدر، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج، حتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه وهي مثل القلب، وشبه بالزجاجة، لأنها جمعت أوصافاً هي في قلب المؤمن، وهي الصفاء والرقة والصلابة، فيرى الحق والهدى بصفائه، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته، ويجاهد أعداء الله تعالى،

ويغلظ عليهم، ويشتد في الحق، ويصلب فيه بصلابته، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى، ولا تعارضها، بل تساعدها وتعاضدها، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٦٦] .

وفي أثر « القلوب آنية الله تعالى في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها».

وبازاء هذا القلب قلبان مذمومان على طرفي نقيض:

أحدهما: قلب حجري قاس، لا رحمة فيه، ولا إحسان ولا برّ، ولا له صفاء يرى به الحق، بل جبار جاهل، لا علم له بالحق ولا رحمة فيه للخلق.

وبإزائه قلب ضعيف مائي لا قوة فيه ولا استمساك، بل يقبل كل صورة، وليس له قوة حفظ تلك الصور، ولا قوة التأثير في غيره، وكل ما خالطه أثر فيه من قوي وضعيف، وطيب وخبيث.

وفي الزجاجة مصباح، وهو النور الذي في الفتيلة، وهي حاملته، ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار.

فهذه مادة نور المصباح، وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن: هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة، وأبعدها عن الانحراف، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها، لم تنحرف انحراف النصرانية، ولا انحراف اليهودية، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء.

فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن.

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه، ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته، وقويت مادة ضوء النار فيه، كان ذلك نوراً على نور.

وهكذا المؤمن: قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشتاته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور.

فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً، فينشا إيمانه عن شهادة الوحي وعن شهادة الفطرة.

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة، فقد ذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض، ونوره في قلب عباده المؤمنين: النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي، فهما نوران عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر.

وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمي ولا غيره، لأن الحيوان إنما يكون حيث يكون النور، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يكون ألبتة، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ميتة ولا بد، وقلب فقد منه هذا النور: ميت ولا بد، لا حياة له ألبتة، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه.

موقف ابن القيم من تفسير نور السموات والأرض بمنورهما وهادي أهلهما:

« وقد فسر قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بكونه منور السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق

له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول كقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى، إذا جاء لفصل للقضاء.

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور: « أعوذ بنور وجهك الكريم: أن تُضلَّني لا إله إلا أنت ».

وفي الأثر الآخر: « أعوذ بوجهك، أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات» فأخبر ﷺ: أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله، كما أخبر تعالى: أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرها: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: « ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه ».

وهذا الذي قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض.

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السموات والأرض فلا تنافى بينه وبين قول ابن مسعود.

والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار

قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ».

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: « سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنّى أراه؟ ! ». سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه: كان ثَمَّ نور، أو حال دون رؤيته نور، فأنّى أراه ؟.

قال: ويدل عليه: أن في بعض الألفاظ الصحيحة « هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نورا ».

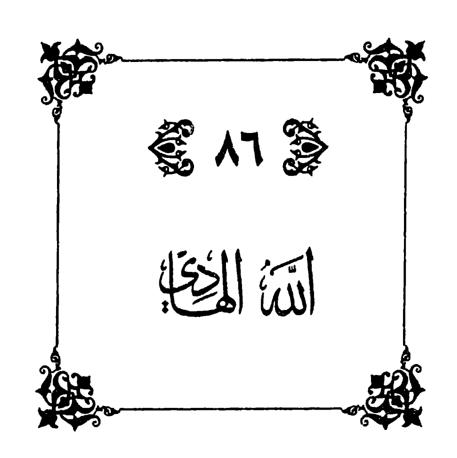
وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صحفه بعضهم فقال: « نور إني أراه » على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظاً ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ: أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه، وكان قوله: « أنى أراه » كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث، ورده بعضهم باضطراب لفظه.

وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رأى ربه عز وجل ولم يقل بعيني رأسه، ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رضي الله عنه.

ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه: قوله ﷺ في الحديث الآخر: « حجابه النور » فهذا النور هو - والله أعلم – النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه « رأيت نوراً » [التفسير القيم: ٣٧٣- ٣٧٧].



من أسماء الله الحسنى الهادي، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

١- بيان معنى الهادي:

« والهادي الذي يهدي عباده إليه، ويدلهم عليه، وعلى سبيل الخير والأعمال المقربة منه عزَّ وجلَّ، يقال: هديت الرجل الطريق هداية، وهديت الرجل في الدين هدى » [اشتقاق أسماء الله: ٣٢٣].

وقال ابن الأثير: « في أسماء الله الهادي، هو الذي بصّر عباده، وعرفهم طريق معرفته، حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بدَّ له منه في بقائه ودوام وجوده » [النهاية: ٥/ ٢٥٣].

٢- الهداية على ضربين:

الأول: بمعنى الدلالة والإرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. قال قتادة: « أي: بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة، فاستحبوا، أي: آثروا الضلالة على الهدى ». [لسان العرب: ٣/ ٧٨٦].

وهذه الهداية أعطيت للرسل والأنبياء وأتباعهم، فهم يدلون الناس على الله

ويرشدونهم إليه، ويبصرونهم به، وبدينه، وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

ومن هذا النوع من الهداية هداية مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] ومنها هداية الصالحين من قوم موسى ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٩] والكتب السماوية أنزلها الله هادية للناس، دالة عليه، مرشدة إليه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

الثاني: الهداية الخاصة بالله تبارك وتعالى، لا يملكها غيره، وهي التي نفاها الله عن أكرم خلقه، وخاتم رسله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وهذه الهداية هي التي يخلق الله بها الإيمان في القلوب، وهي التي قال فيها المهتدون أصحاب الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]

وهذه كما سبق لا يستطيعها العباد، ولا يقدرون عليها﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨] وقال سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧] وقال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] وقال:﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال:﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧] وهؤلاء

الذين لا يهديهم الله هم أهل النار، الذين أوجبها الله لهم.

٣- الهداية اليوم لا توجد إلا عند اتباع محمد ﷺ:

لا توجد الهداية اليوم إلا عند أتباع محمد ﷺ، فبعد بعثة الرسول ﷺ لا إيمان لمن لم يؤمن به، ويترك دينه ويتبعه، فاليهود والنصارى اليوم ما لم يتبعوا الرسول ﷺ ضالون، فضلاً عن غيرهم من الملحدين والكافرين ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]. فالله خلق الجنة والنار، وخلق للجنة أهلاً، لا بد أن يدخلوها، وخلق للنار أهلاً كتب عليهم دخولها، ولو شاء لهدى الناس جميعاً،ولكنه سبحانه﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾[الرعد: ٣١] وقال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

٤- طلب الهداية من الله:

وعلى العباد أن يسألوا الهداية من مالكها، وهو الله سبحانه،ولذلك فإننا بتوفيق من الله نسأله الهداية إلى دين الله وشرعه، وهو الصراط المستقيم في كل ركعة من ركعات الصلاة حينما نقرأ الفاتحة، فنقول:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وعلى المؤمنين الذين هداهم الله للإيمان أن يدعو ربهم أن يثبتهم عليه ولا يزيغ قلوبهم عنه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨] وعليهم أن يجاهدوا في طلب الحق والاستقامة عليه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الهداية من ربه عندما يفتتح صلاته من الليل، فيقول:« اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم» [مسلم عن عائشة: ٧٧٠]

وفي حديث علي ابن أبي طالب أن من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة:«واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت» [مسلم:٧٧١]

وقد أمره الرسول ﷺ أن يقول:« اللهم اهدني وسددني » [مسلم: ٢٧٢٥] ومن دعاء قنوت الرسول ﷺ الذي علمه الله لأمته: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت» [الترمذي عن الحسن بن علي: ٤٦٤ وقد حسنه الترمذي وصححه الألباني]

٥- هداية الكائنات لما خلقت له:

وهناك نوع من الهداية أجاب به موسى عليه السلام فرعون عندما سأله عن ربه قائلا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] إن فرعون يطالب موسى أن يعرفه بربه الذي أرسله وهارون أخاه، وهو الإله الذي يدعوانه إليه، فيجيب موسى عليه السلام بأنه هو الذي خلق الكائنات كلها، وأعطى كل شيء ما يصلحه من خلقه، ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

يقول ابن منظور: « معناه خلق كل شيء على الهيئة التي بها ينتفع، والتي هي أصلح الخلق له، ثم هداه لمعيشته » [لسان العرب: ٣/ ٧٨٧] وقال الخطابي: « هو الذي هدى سائر الخلق من الحيوان إلى مصالحها،وألهمها كيف تطلب الرزق،وكيف تتقي المضار والمهالك » [شأن: الدعاء: ٩٦] .

ويعرض سيد قطب، رحمه الله لتفسير هذه الآية، فيبين أن الله « ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها، وفطره عليها، ثمَّ هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه الله لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الفطري للوظيفة التي خلق لها.

وليس هناك افتراق زمني بين المخلوق وخلق الوظيفة، إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غُفْلاً، وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الإله الخالق المدبر لهذا الوجود، هبة الوجود لكل موجود، وهبة خلقه على الصورة التي خلق عليها، وهِبَةُ هدايته للوظيفة التي خلق لها، وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته في حدود ما يطيق- في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار قدرة الله التي أبدعته ودبرته في كل كائن صغير أو كبير، من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياءِ، وكلُّ ذرة فيه تنبض، وكلُّ خلية فيه تحيا، وكلُّ حيٍّ فيه يتحرك، وكلُّ كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى..، وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل، ولا فتور في لحظة من اللحظات.

وكل كائن بمفرده كَوْنٌ وحدَه، وعالَمٌ بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، في توافق وانتظام، وكل كائن بمفرده- ودعك من الكون الكبير- يقف علم الإنسانِ وجهده قاصراً محدوداً في دراسته خَواصِّه ووظَائفَه وأمراضه وعلاجه، دراستها مجرد دراسة، لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارجٌ كلية عن طوق الإنسان، وهو خَلْقٌ من خلق الله، وهبه وجوده على الهيئة التي وجد بها، للوظيفة التي خلق لها، كأي شيء من هذه الأشياء.

ألا إنه الإله الواحد... ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] [في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٧].

وكان البشر ولا يزالون يدققون النظر في هداية المخلوقات إلى ما هديت إليه مما يتناسب مع خلقها وتكوينها، وقد لاحق الباحثون اليوم بآلات التصوير الحيوانات في الغابات، والطيور في وكناتها، والأسماك في البحار، ورصدوا تصرفاتها وتحركاتها، فوجدوها عوالم كعالم الإنسان، لها طرائقها في الحياة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٦- أمثلة من هداية المخلوقات:

وقد حدثنا الحق- تبارك وتعالى- عن شيء من هداية الأحياء، فمن ذلك هداية النحل، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

والوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى ما هداها وأرشدها إليه، وبهذه الهداية « تعمل النحل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى.

وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها- في الجبال والشجر وما يعرشون، أي ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها، وفي طبيعة الكون حولها من توافق » [في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٨١].

ومن عجيب هداية النحل أن الله سبحانه زود كل نحلة بقرني استشعار، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويقوم هذان القرنان في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة، تستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة، ولغير ذلك من الأصوات، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس، وإذا فقدت النحلة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع القيام بدورها،

ففيهما يتركز معظم حواسها.

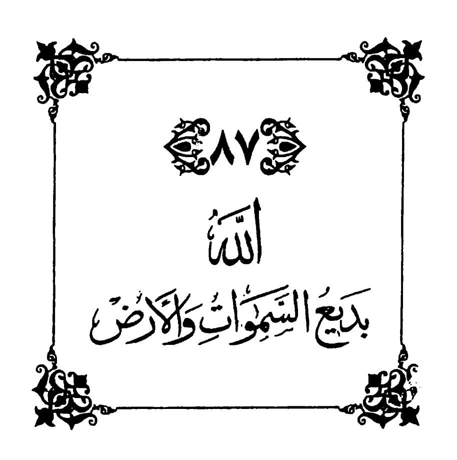
ومن عجائب الخلق الذي أُعطي لها قدرة النحلة الملكة على أن تضع في كل يوم ما بين (١٥٠٠) إلى (٢٠٠٠) بيضة، لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل بسبب قصر أعمار النحل وبسبب الأخطار التي يتعرض لها.

ومن عجيب الخلق الذي وهبها الله إياها قدرتها على أن تبصر الشمس من خلال السحاب، لأن النحل يرى بالأشعة فوق البنفسجية، وهذه الأشعة قادرة على اختراق السحاب، والنحل لا يستطيع الاهتداء إلى خليته، كما لا يستطيع أن يحدد موضعه ومساره إلا إذا رأى الشمس فحدد موضعه ومكانه بوساطة أشعتها.

ومن هداية الله للحيوان أنه أعطى الحيوانات المفترسة الأنياب والمخالب التي تصطاد بها فرائسها، كما أعطاها الأوابد التي تسعى بها وراء تلك الفرائس، وزودها بحاسة الشمّ التي تتعرف بها على مواضعها، وأعطى الطيور الأجنحة التي تحلق بها في أجواز الفضاء، والمناقير التي تلتقط بها الحب، والريش الذي يحميها من الحر والقرّ، وأعطى الأسماك الزعانف التي تنطلق بها في الماء، والخياشيم التي تستخلص بها الهواء المذاب في الماء، وجعل لها ذلك الشكل الانسيابي الذي يسهل عليها الانزلاق والحركة في الماء، وأعطاها في أجسادها ما تتمكن به من الاغتذاء والقدرة على الحياة.

وخلق الإنسان في أحسن تقويم، ووهبه الحياة وأعطاه العقل، وجعل له السمع والبصر، والفؤاد، ووهبه العلم، وأعطاه الأيدي التي يبطش بها، والأرجل التي يمشي بها، وسلطه على الأرض يستعمرها، ويستثمر خيراتها، لقد أعطاه خلقه، وهداه إلى استعمال ما أعطاه وفق ما فيه خيره وصلاحه.





البديع من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة:١١٧]وقال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام:١٠١]

« والبديع من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء، والله كما قال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧]. أي: خالقها ومبدعها، فهو سبحانه المبتدع على غير مثال سابق [لسان العرب:١/ ١٧٥]. وقال ابن الأثير: « البديع الخالق المخترع، لا عن مثال سابق، فعيل بمعنى مفعل، يقال: أبدع فهو مبدع » [النهاية:١/ ١٠٦].

وقال الزجاج: (أبدعت الشيء إبداعاً، إذا جئت به فرداً لم يشاركك فيه غيرك، وقال تعالى:﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٧] أراد به أنه المنفرد بخلق السموات والأرض [تفسير أسماء الله الحسنى:٦٤]. وقال الخطابي: « هو الذي خلق الخلق، وفطره مبدعاً له مخترعاً، لا على مثال سبق » [شأن الدعاء:٩٦]

والنظر فيما سبق نقله عن أهل العلم يدل على أن البديع، هو المبدع، أي: المنشئ والمحدث والمخترع للسموات والأرض على غير مثال سابق، وهذا أمر معلوم مشهود، وإن شئت أن تعلم ذلك حق العلم، فانظر إلى السماء واتساعها

وكثرة نجومها وكواكبها، وشمسها وقمرها، وانظر إلى الأرض وجبالها ووهادها، وأنهارها وبحارها، وأحيائها وأمواتها، وحيوانها ونباتها وجمادها، تجد أن الله قد أبدع ذلك بما لا إبداع فوقه، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١- ٦٢]. وقال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠-٦١] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

والنصوص الدالة على ما في الكون من إبداع كثيرة، ويستطيع العباد من خلال تأملهم في الكون أن يدركوا شيئاً من هذا الإبداع.

الرد على الذين نسبوا الولد إلى الله عز وجل:

النصان اللذان ورد فيهما اسمه تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلاهما ورد في سياق الرد على الذين زعموا كاذبين أن الله اتخذ ولداً فكان من جملة رده عليهم وإبطال مقالتهم أنه بديع السموات والأرض، ففي سورة البقرة قال رب العزة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[البقرة: ١١٦- ١١٧].

فدعواهم أن الله اتخذ ولداً، يبطله أنَّ الله خالق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما كل له قانت خاضع، بديع السموات والأرض، أي خالقهما ومنشئهما

على غير مثال سابق.

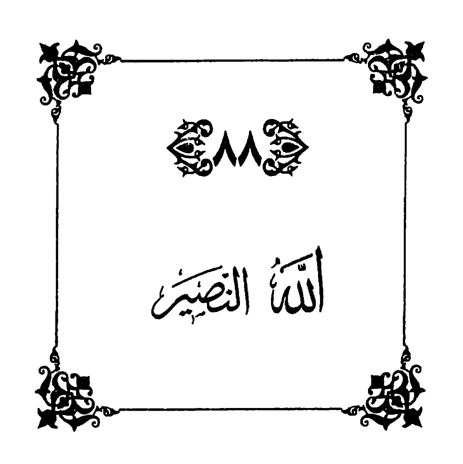
والنص الثاني جاء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٩٩- ١٠١].

والنص يبين بطلان ما نسبوه إلى الله من الولد، فالجن والملائكة وعيسى كلهم خلق الله، والله خالقهم ومبدعهم ومبدع السموات والأرض، وهذا ينفي ما افتروه من نسبة الولد إليه.

تمجيد الله ودعائه باسمه بديع السموات والأرض:

روى الترمذي عن أنس قال: دخل النبي ﷺ المسجد، ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول في دعائه: « اللهم لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام فقال النبي ﷺ: « أتدرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى » [الترمذي: ٣٥٤٤، وأبو داود: ١٤٩٥].



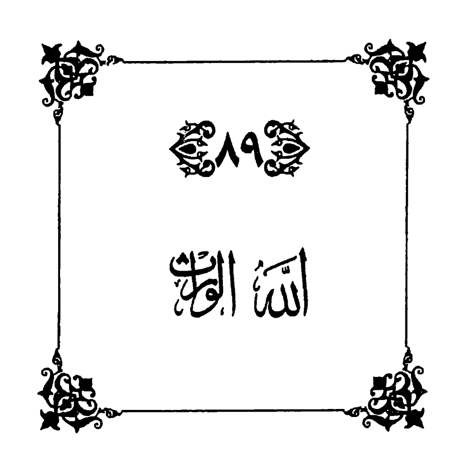


من أسماء الله تبارك وتعالى التي وردت في كتاب الله النصير، قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

والنصير الناصر، والله ناصر المؤمنين على الكافرين كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥] وقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن النصر من عنده، وإن نصرنا فإنه لا غالب لنا، وإن خذلنا فلا ناصر لنا ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٢٦] وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقد أرشد الله المؤمنين إلى طلب النصر منه في مواجهة الكافرين ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنين: ٢٦] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].



جاء اسم الوارث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [الحجر: ٢٣] وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨] وقال زكريا في دعائه ربّه: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

« والوارث: الباقي بعد فناء الخلق، والمسترد أملاكهم وموارثهم بعد موتهم، ولم يزل باقياً مالكاً لأصول الأشياء كلها، يورثها من يشاء، ويستخلف فيها من أحب » [شأن الدعاء: ٩٦].

وقال الزجاجي: « والوارث اسم فاعل من ورث يرث فهو وراث، فالله عزَّ وجل وارث الخلق أجمعين، لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال عز وجل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[مريم: ٤٠] [اشتقاق أسماء الله: ٢٩٨].

وقال الزجاج: « كل باق بعد ذاهب فهو وارث » [تفسير أسماء الله الحسنى: ٥٦].

وقال الغزالي: « هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك، وذلك هو الله سبحانه وتعالى، إذ هو الباقي بعد فناء الخلق، وإليه مرجع كل شيء ومصيره »

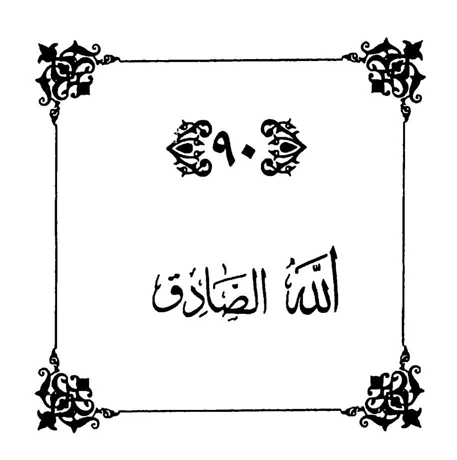
[المقصد الأسنى: ١٢٤].

والمعنى الذي يفقه من النصوص أن الله مالك السموات والأرض على الحقيقة، وقد استخلف بني آدم في الدنيا لينظر كيف يعملون، فهم يتوارثونها فيما بينهم، قوم يأتون، وقوم يرحلون، وملكهم إياها ملك زائل، وعارية مسترجعة، ثم يفنيهم الله جميعاً، ولا يبقى إلا الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧].

فالمالك الله على الحقيقة، وهو الذي يرث الأرض ومن عليها والناس ذاهبون راحلون، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠].

وإذا علم العباد أن ما يملكونه اللهُ مالكه على الحقيقة جادوا بما ملكهم إياه فيما يرضيه، ولم يبخلوا به، فالبخلاء بالمال الكانزون له يضرون أنفسهم، والله عنهم غني، فله ميراث السموات والأرض ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقد دعانا ربنا -تبارك وتعالى- إلى الإنفاق في سبيله، معلماً إيانا بأن له ميراث السموات والأرض ترغيباً لنا بالجود والإنفاق رغبة فيما عند الله ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الحديد: ١٠].



ورد اسم الصادق في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقال: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤].

« والصادق: هو الذي يصدق قوله، ويصدق وعده، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤] [شأن الدعاء: ١٠٢].

وقال الزجاجي: « الصادق في خبره: الذي لا تكذيب له، فالله عز وجل الصادق في جميع ما أخبر به عباده » [اشتقاق أسماء الله: ٢٩٠].

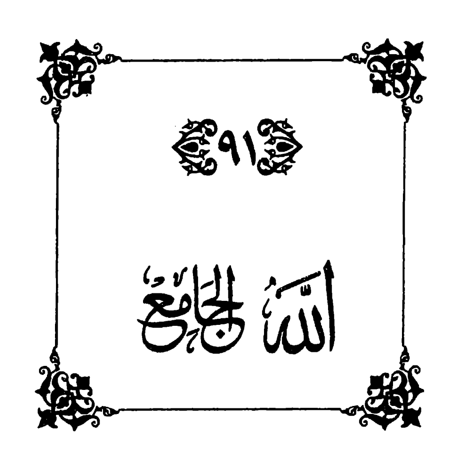
وأخبار الله تبارك وتعالى صدق كلها، ذلك بأنه سبحانه العليم الخبير، لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه يخبر عن علم ومعاينة، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥] وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وكما أن الله صادق في خبره فهو صادق في وعده، والمؤمنون في الدنيا والآخرة يشهدون صدق وعد الله الذي وعدهم إياه﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ الأحزاب:٢٢] ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[آل عمران:٥٢] وقال:﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾[الأنبياء:٩]

والله يحب الصادقين في خبرهم والصادقين في وعدهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج:٢٦] وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ [المائدة:١١٩] وأثنى الله على نبيه إسماعيل عليه السلام بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[مريم:٥٤] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].





٩١

الله الجامع

ورد اسم الجامع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٤٠]

والجامع – كما يقول الخطابي: «الذي يجمع الخلائق ليوم لا ريب فيه بعد مفارقة الأرواح الأبدان، وبعد تبدد الأوصال، والأقران، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» [شأن الدعاء:٩٢].

وقد أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه سيفني الحياة والأحياء، ثم يعيد الناس ليحاسبهم على ما قدموه في يوم القيامة الذي سماه الله بيوم الجمع، وهو وعد أخذه الله على نفسه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾ [النساء:٨٧] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ❁ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠] وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣].

ويجمع الله الخلائق عندما يأمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور، فتعود الأرواح إلى الأجساد، ويبعث الله العباد ﴿❁وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[الكهف:٩٩] وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ

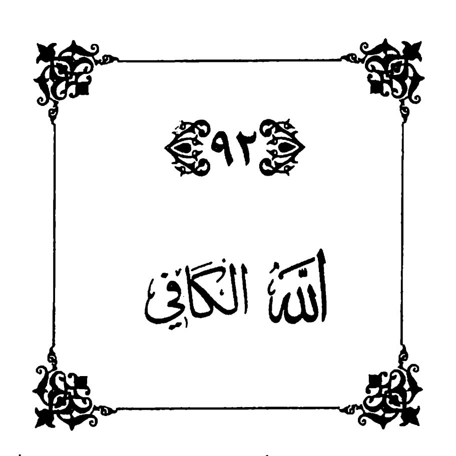
﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

وعندما يجمع الله الناس في يوم القيامة لا يتخلف منهم أحد، فلا فرق بين الذين دفنوا في القبور، والذين أحرقت أجسامهم النيران، ولا الذين أكلتهم وحوش البراري، أو طيور السماء، أو أسماك البحار،كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨].

وعندما يقف العباد بين يدي الله، يقول الله مخاطباً خلقة: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات:٣٨] وأسعد الناس في ذلك اليوم المؤمنين الذين آمنوا بالله واليوم الآخر واستعدوا لذلك اليوم، الذين كانوا يقولون في الدنيا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[آل عمران: ٩].

وفي ذلك اليوم يقضي الله بين عباده ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[سبأ:٢٦] وكما جمع الله عباده من كل موضع كانوا فيه يوم القيامة، فإنه يجمع المنافقين والكافرين في النار﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].





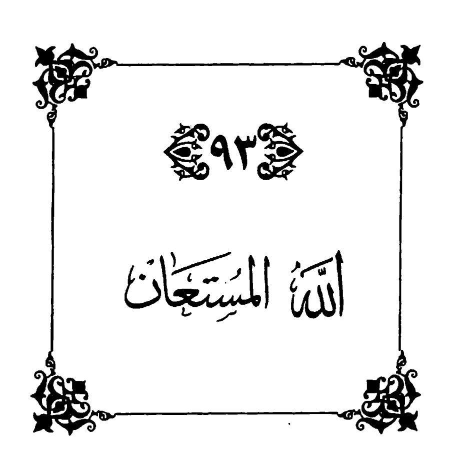
جاء اسم الكافي في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

« والكافي- كما يقول الزجاجي- اسم الفاعل من كفى يكفي فهو كاف، فالله - عز وجلَّ- كافي عباده، لأنّه رازقهم وحافظهم ومصلح شؤونهم، فقد كفاهم الله عز وجل » [اشتقاق أسماء الله: ١٣٠].

وكفاية الله لعباده المؤمنين واسعة، فهو كافي المؤمنين أعداءَهم، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر: ٣٦].

ومن كفايته تبارك وتعالى رسوله والمؤمنين أنه ينزل عليهم نصره، ويمدهم بملائكته، ولله جنود السموات والأرض، فإذا أراد سبحانه نصر المؤمنين زلزل الأرض من تحت أرجل أعدائهم، وأرسل عليهم الريح تضرب وجوههم، وتعفر عيونهم، وتقلع خيامهم ومساكنهم، وقذف الرعب في قلوبهم، فولوا مدبرين، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩] وقال: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].



ورد المستعان في قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وفي قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

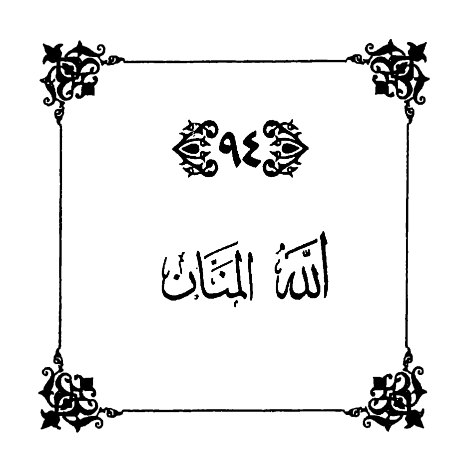
وقال القرطبي : « قال ابن العربي: وهذا الاسم لم يرد في حديث أبي هريرة، ولا ذكره علماؤنا، وهو من أشرف الأسماء لشرف متعلقة، وقد تضمنت الفاتحة معناه، فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة].

وعقب عليه القرطبي قائلا: « ذكره غير واحد، منهم الأُقْلَيشي » [نقله عنه: محمد بن حمد الحمود في النهج الأسنى: ٢/ ٧٧٠].

«والعون: المعاونة والمظاهرة، والاستعانة، طلب العون» [المفردات:٣٥٤] والمستعان الذي يطلب منه العون وحده على ما يواجهه العبد في أموره، فيعقوب عليه السلام عندما أخبره أولاده كاذبين أن الذئب أكل ابنه يوسف، قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]. فاستعان بالله على مواجهه الأمر الجلل الذي أصابه. وعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نقول في مواجهة الظالمين: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢].

وقد كان الصالحون من قبلنا يستعينون بالله على طاعة الله وعبادته، كما

يستعينون به على قضاء حوائجهم في كل أمورهم الدنيوية والأخروية ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. وفي الحديث: «اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» [الترمذي:٣٥٢١، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب].



المنان من أسماء الله الحسنى التي وردت في السنة النبوية الصحيحة، ففي السنن لأبي داود والترمذي عن أنس أنه كان جالساً مع رسول الله ﷺ ورجل يصلي، ثم دعا: "اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: « لقد دعا الله باسمه العظيم الذي دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » [سنن أبي داود:١٤٩٥ والترمذي:٣٥٤٤]. واللفظ لأبي داود.

قال ابن الأثير في تفسير هذا الاسم: « في أسماء الله المنان، هو المنعم المعطي، من المن:العطاء ». [النهاية:٤/ ٣٦٥]. وقال الخطابي: « المنان كثير العطاء» [شأن الدعاء:١٠٠]. وقال الزجاجي: «الله عزَّ وجل منان على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم، و(فلان يمن على فلان) إذا كان يعطيه ويحسن إليه». [اشتقاق أسماء الله:٢٨١]. وقال ابن منظور: « المعطي ابتداء، ولله المنة على عباده، ولا منة لأحد منهم عليه، تعالى الله علواً كبيراً ». [لسان العرب:٣/ ٥٣٦].

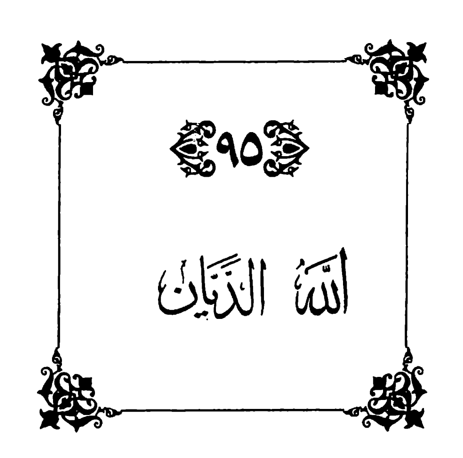
والله تبارك وتعالى صاحب الفضل والإنعام، فقد خلقنا وأوجدنا، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، وخلقنا في أحسن تقويم، وخلق لنا الطيبات، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، ومن أعظم مننه علينا أن أرسل فينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آياته، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]. ولله المنة الكاملة بهدايته إيانا للإيمان والإسلام ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

ومنّ الله على رسله وأنبيائه، ومنهم موسى وهارون ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات:١١٤]. ومنّ على بني إسرائيل، فبعد الذلة والهوان، جعلهم أئمة ومكن لهم في الأرض ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥].

وإذا كان الله قد امتدح نفسه- سبحانه- بمنته على عباده، فإنه ذمَّ الذين يمنون على الله أو على عباد الله بما أنفقوه من أموالهم، وقدموه من أعمالهم، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]. وحذرنا ربنا من أن منّنا بما نقدمه من الصدقات يبطل ثوابها وأجرها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].





من الأسماء الحسنى التي ورد ذكرها في السنة النبوية، الديان، فعن جابر بن عبد الله قال: خرجت إلى الشام إلى عبد الله بن أنيس الأنصاري فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« يحشر الله تعالى العباد أو يحشر الله الناس، قال: وأومى بيده إلى الشام عراة غرلاً بُهماً، قال: قلت: ما بُهماً قال: ليس معهم شيء، فينادي بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَرُبَ، أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطالبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطالبه بمظلمة، قالوا: وكيف وأنا نأتي الله عراة غرلاً بُهماً، قال: بالحسنات والسيئات ».

رواه عمرو بن أبي عاصم في [كتابه السنة:٢٢٥ ورقمه:٥١٤] وحسن محققه الشيخ ناصر الدين الألباني إسناده، وصححه بمجموع طرقه، وعزاه إلى البخاري في الأدب المفرد، وفي أفعال العباد، والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، كذا قالا: وأحسن أحواله أن يكون حسناً، وعلقه البخاري بصيغة الجزم، ورواه أحمد بإسناد حسن ».

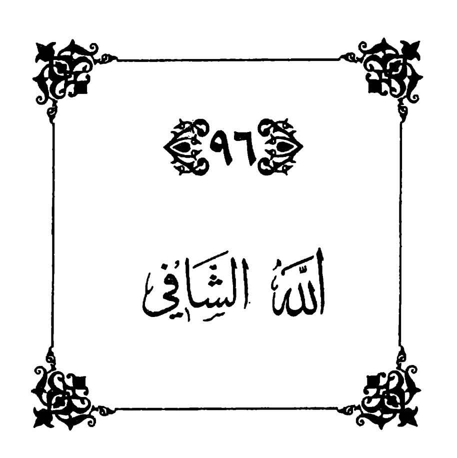
قال ابن المنظور: « والديان: من أسماء الله عز وجل، معناه الحكم والقاضي،

وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: كان ديان هذه الأمة بعد نبيها، أي: قاضيها وحاكمها، والديان: القهار، وهو فعّال من دان الناس، أي: قهرهم بالطاعة» [لسان العرب:١/ ١٠٤٣].

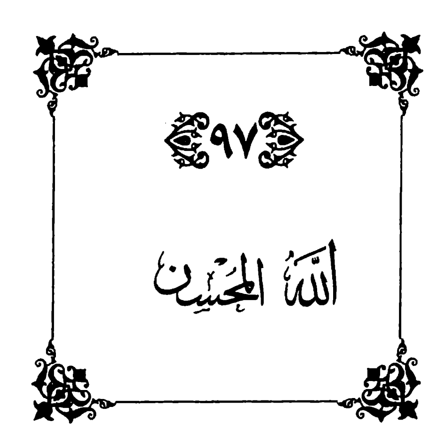
ومنه حديث أبي طالب، قال له ﷺ: « أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب ». أي: تطيعهم وتخضع لهم، ومنه الحديث: « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت». أي: أذلها واستعبدها، وقيل: حاسبها ». [النهاية:٢/ ١٤٨]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات:٥٣]. أي: محاسبون مجزيون، ومنه قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ [الواقعة:٨٦]. أي: غير محاسبين.

ومعنى الحديث الذي ورد فيه اسم الديان، أن الله يحاسب الناس في يوم القيامة، فالملائكة قد كتبت على كل عبد ما قدم في الدنيا من خير وشر، وإيمان وكفر، ويحاسبه الله على ما قدم، وينصب الله الموازين التي توزن بها أعمال العباد ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف:٨-٩]. ولا يضيع من أعمال العباد في ذلك اليوم مثقال ذرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزله: ٧-٨]. وتنتشر في ذلك صحف الأعمال، فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ بشماله، ويطلع العباد على ما ضمته صحائفهم من أعمالهم، ويقال لكل منهم ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٤].

ومن عدل الله الذي ذكره الرسول ﷺ في الحديث الذي ورد فيه أسم الديان، أن الله يقتص من أهل الجنة قبل دخولهم الجنة إذا كان في رقابهم مظالم لأهل النار، كما يقتص لأهل الجنة من أهل النار إذا كان لهم عليهم مظالم قبل دخولهم النار، ويكون ذلك بالحسنات والسيئات، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.



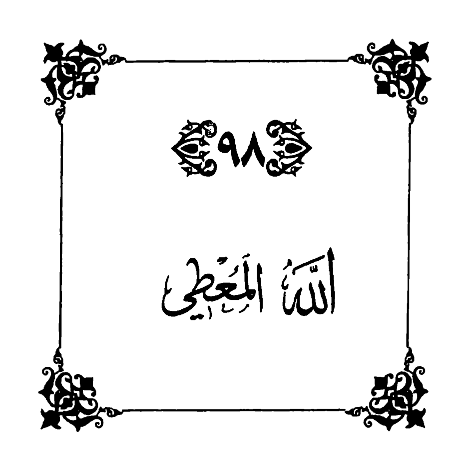
عن عائشة رضى الله عنها أن الرسول ﷺ كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: «اللهم رب الناس، أذهب البأس اشفه وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً» [البخاري: ٥٧٤٣، ومسلم: ٢١٩١، واللفظ للبخاري]. وقال نبي الله إبراهيم عليه السلام في ثنائه على ربه سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ * وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٠]. وأنزل الله القرآن شفاء للمؤمنين ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]. وخلق الله العسل فيه شفاء للناس ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩].



ورد هذا الاسم في صحيح السنة، ففي المعجم الكبير للطبراني عن شداد بن أوس أن الرسول ﷺ قال: « إن الله محسن يحب الإحسان، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، ثم ليرح ذبيحته ». [صحيح الجامع الصغير:١٨٢٤. وحكم عليه الشيخ ناصر بالصحة]. وفي الديات لابن أبي عاصم عن أنس مرفوعاً: « إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله محسن يحب المحسنين ». [سلسله الأحاديث الصحيحة: ٤٧٠].

والمحسن كما يدل عليه الحديثان السابقان بمعنى إتقان العمل، وأفعال الله – تبارك وتعالى- في غايه الإتقان، الذي سماه القرآن، وقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أنه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧]. وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ﴾ [غافر:٦٤]. وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣]. وقال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنين:١٤].

وقد دعا الله عباده إلى الإحسان بمعنى إتقان العمل في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وبين في موضع آخر أن الإحسان هو غاية الوجود الإنساني ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢] وقد فسر الرسول ﷺ الإحسان في حديث جبريل بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».



روى البخاري في صحيحه عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرة على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون » [البخاري: ٣١١٦].

وعطاء الله تبارك وتعالى واسع، ليس له حدود، ولا مقيد بقيود، يهب عباده ما يشاء، يعطي سبحانه في الدنيا عباده المؤمنين وعباده الكافرين، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

أمّا عطاء الآخرة فليس إلا للمؤمنين، وليس للكفرة منه نصيب ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٨- ١٩].

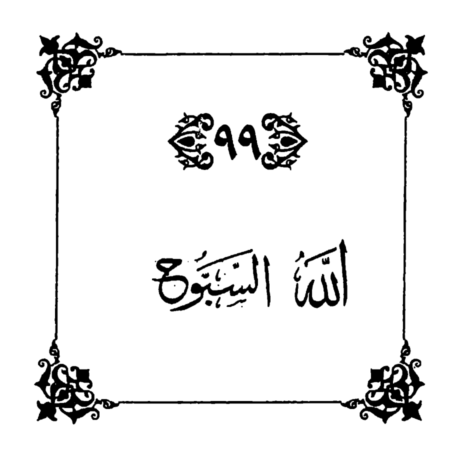
وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن عطاء الآخرة الذي اختص به المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۞ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

وقد وعد الله رسوله ﷺ أن يعطيه حتى يرضيه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] ومما أعطاه في الآخرة لرسوله نهر الكوثر. ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] والكوثر كما قال الرسول ﷺ « نهر في الجنة وعدنيه ربي

عزّ وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء » [مسلم: ٤٠٠].

وفي مسند أحمد « أُعطيت الكوثر، فإذا نهر يجري، ولم يشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مِسْكَةٌ ذفِرة، وإذا حصاه اللؤلؤ ».





تعريف السبوح:

ومن أسمائه الحسنى التي ثبتت في السنة النبوية السبوح، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » [مسلم: ٤٨٧] وكان الرسول ﷺ إذا سلم من الوتر قال: « سبحان الملك القدوس » [أبو داود: ١٤٣٠].

وقد تكرر ذكر التسبيح في القرآن والحديث على اختلاف تصرف لفظه، و«أصل التَّسْبيح: التَّنزيهُ والتقديسُ والتبرئة من النَّقَائِص، ثم اسْتُعِملَ في مواضعَ تقْرُب منه اتِّسَاعا. يُقال: سبَّحته أسبِّحه تسبيحاً وسُبْحاناً، فمعنى سُبْحان اللهِ: تَنْزيه اللهِ، وهو نَصْب على المصدر بِفْعل مُضْمر، كأنه قال: أُبَرِّىءُ الله من السُّوء بَراءةً. وقيل معناه: التَّسرُّع إليه والخِفَّة في طاعَته. وقيل معناه: السُّرْعة إلى هذه اللَّفْظة. وقد يطلق التَّسْبيح على غَيْره من أنْواع الذِّكر مجازاً، كالتَّحْميد والتَّمْجيد وغَيرِها، وقد يُطْلق على صلاة التطَّوع والنافلةِ. ويقال أيضاً للذِّكْر ولصَلاةِ النَّافلة: سُبْحَة ». [النهاية: ٢/ ٣٣١].

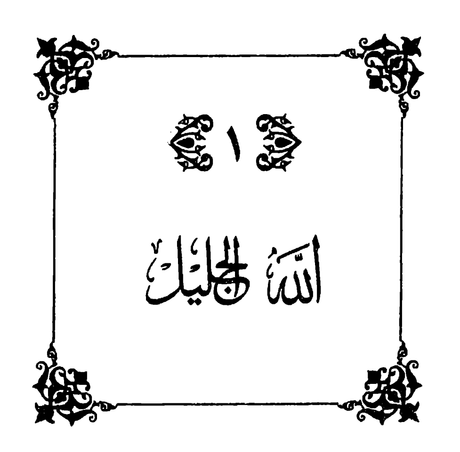
وقال النووي: « قال ابن فارس والزبيدي وغيرهما: سبوح هو الله عز وجلَّ، فالمراد بالسبوح القدوس المسبَّح المقدَّس. ومعنى سبوح: المبرأ من النقائص والشريك، وكل ما لا يليق بالإلهية » [شرح النووي على مسلم: ٤/(٤٨٧)].



بينت فيما سبق أن هناك قرابة ثمانين اسماً من الأسماء الحسنى متفق بين أهل العلم على أنها من أسماء الله الحسنى، وإن وجد في بعضها خلاف فهو خلاف شاذ أو قليل.

وبقيه الأسماء في احتسابها خلاف عند من حصر أسماءه في تسعه وتسعين اسماً، وكذلك وقع خلاف فيمن زاد في الأسماء على التسعة والتسعين.

ولمن شاء أن يحتاط في عدّ أسماء الله الحسنى حتى يحصل الأجر والثواب أسوق واحد عشرين اسماً عدها جمع من أهل العلم من أسمائه، وهي: الجليل، الأعز، المعز، المذل، الخافض، الرافع، المقدم، المؤخر، القابض، الباسط، الرازق، الحيي، الستير، الجميل، الطيب، الجواد،الماجد، الرفيق، الوتر، السيد. وآخرها المميت، وقد سبق الحديث عنه عند الكلام على اسم الله، المحي . والسبب في احتمال كونها من أسمائه أن الضوابط التي خرجت بها من أسمائه ليست قطيعه، مثل ضابط ما ابتدأ بـ «ذو» وضابط ما جاء في باب الأخبار، والله أعلم بالصواب .



لم يرد في الكتاب والسنة أسم الجليل، ولكن ورد في الكتاب والسنة اسم « ذو الجلال ». قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨].

وممن أثبت اسم الجليل للرحمن ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢١٤] حيث يقول:

وهـو الجليـل فكـل أوصـاف الجـلا ل لـــه محققـــة بـــلا بطـــلان

١-أقوال أهل العلم في معنى الجليل:

وعندما يستحضر العبد جلال الله تبارك وتعالى بحق، يفيض إلى عقله سيل من معاني العظمة والجمال والكمال تورثه هيبه الله وتعظيمه ومحبته.

يقول أبو القاسم الزجاجي: « الجلال: العظمة، فالله عزّ وجل ذو الجلال والعظمة والكبرياء ». [اشتقاق أسماء الله: ٣٥٠]. وقال ابن منظور: «الله الجليل- سبحانه- ذو الجلال والإكرام، جلّ جلال الله، وجلال الله عظمته، ولا يقال الجلال إلا لله، والجليل من صفات الله تقدس وتعالى، وهو سبحانه وتعالى الجليل، الموصوف بنعوت الجلال، والحاوي جميعها، هو الجليل المطلق، وهو راجع إلى كمال

الصفات، كما أن الكبير راجع كمال الذات، والعظيم راجع إلى كمال الذات والصفات» [لسان العرب: ١/ ٤٨٧].

وجاء في [موسوعة: وله الأسماء الحسنى: ١/ ٢٢٨]:

«والجليل هو الذي عظم شأنه، وظهر أمره، فلا يوازيه غيره، ولا يدانيه أحد في الذات، ولا في الصفات، ولا في الأمثال، وهو الموصوف بنعوت الجلال، ونعوت الجلال هي: الغنى والملك والتقدس والعلم والقدرة وغيرها من الصفات، فالجامع لها هو الجليل المطلق، وهو الله سبحانه، لأن كل ما في العلم من جمال وكمال وبهاء وحسن، فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته، وليس في الوجود موجود له الكمال المطلق إلا الله ».

وقال الشيخ حافظ حكمي: « الجليل المتصف بجميع نعوت الجلال وصفات الكمال، المنزه عن النقائص والمحال، المتعالي على الأشباه والأمثال، له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى، وله الحمد في الآخرة والأولى» [معارج القبول:١/ ١٣١].

٢-تمجيد الله والثناء عليه ودعائه بيا ذا الجلال والإكرام:

وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نلظي بيا ذا الجلال والإكرام، والإلظاء: الإكثار من الدعاء بهما على وجه الإلحاح والرغبة، ففي سنن الترمذي أن الرسول ﷺ قال: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام ». [الترمذي:٣٥٢٤، ٣٥٢٥]. ومعنى ألظَّ بالشيء، إذا لزمه، يقول: لازموه، و ثابروا عليه، وأكثروا من التلفظ بياذا الجلال والإكرام [جامع الأصول: ٤/ ٢٩٤].

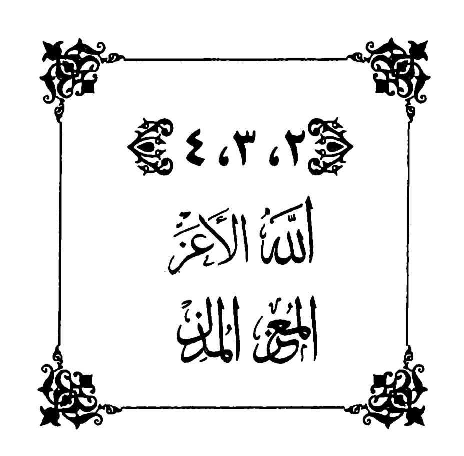
وكان الرسول ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: « اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام ». [مسلم:٥٩٣].

وروى أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا سَلَّم

قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام [أبو داود: ١٥١٢].

وسمع الرسول ﷺ رجلاً يدعو في المسجد يقول: « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب ». [صحيح سنن ابن ماجة:٣٨٥٨].





لم ترد هذه الأسماء الثلاثة أسماء مطلقة في كتاب الله تبارك وتعالى فيما أعلم، ولكن ورد عن ابن عمر وابن مسعود رضى الله عنهما في المصنف لابن أبي شيبة أنهما كانا يقولان في السعي بين الصفا والمروة: « رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم ». [المصنف:٣/ ٤٢٠].

وقال الخطابي: « يعزّ مَنْ يشاء، ويذل من يشاء، لا مذلَّ لمن أعز، ولا معز لمن أذله، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]. وقال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩].

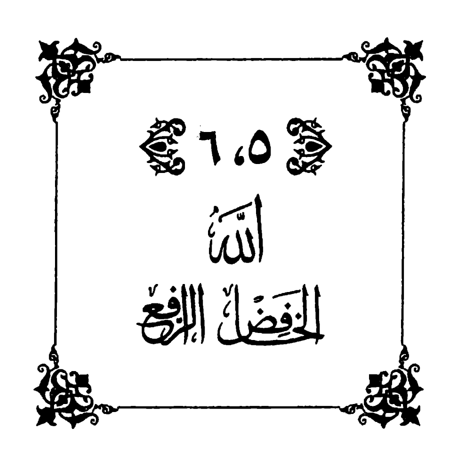
أعزَّ بالطاعة أولياءه، فأظهرهم على أعدائه في الدنيا، وأحلهم دار الكرامة في العقبى، وأذلَّ أهل الكفر في الدنيا، بأن ضربهم بالرق والجزية والصغار، وفي الآخرة بالعقوبة والخلود في النار » [شأن الدعاء:٥٨].

« والمعز هو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده، والمعزة في الأصل هي القوة والشدة والغلبة، والله هو العزيز، لأنه الغالب القوي الذي لا يغلب، وهو الذي أعز أولياءه فضلاً بعصمته، وغفر لهم برحمته، وأحلهم دار كرامته، ثم أكرمهم برؤيته ومشاهدته، فهو الذي يعز الأنبياء بالعصمة والنصر، ويعز الأولياء بالحفظ والوجاهة، يعز المطيع ولو كان فقيراً، ويرفع المتقي ولو كان عبداً حبشياً».

[موسوعة:له الأسماء: ١/ ١٤٤].

وقال ابن الأثير: « المعز الذي يهب العز لمن يشاء ». [النهاية:٣/٢٢٨]. وقال في المذل: « هو الذي يلحق الذل بمن يشاء من عباده، وينفي عنه أنواع العز جميعها». [النهاية:٢/ ١٦٦]. وقد سبق الحديث عن صفة العزة عند الكلام عن اسمه العزيز.





ذكر جمع من أهل العلم أن من أسمائه -تبارك وتعالى- التي يعرف بها، ويدعى بها: الخافض الرافع، وبالنظر في فهارس القرآن لم نجد فيه اسم الخافض مفرداً ولا مضافاً إلى الله تبارك وتعالى مطلقاً، كما لم نجد فيه فعلا يمكن اشتقاق هذا الاسم منه. أما الرافع فلم يرد اسماً في كتاب الله، أما فعله فقد جاء في عدة آيات ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام:١٦٥]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]. وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وورد اسم رافع مضافاً إلى المخاطب وهو عيسى عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]. وورد منه صيغة المبالغة: «رفيع». بمعنى رافع، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥].

ولم يأت الخافض والرافع في السنة، وجاء فعلهما في حديثين:

الأول: حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال: « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يده ».

[البخاري: ٧٤١١، ومسلم ٩٩٣. واللفظ للبخاري].

الثاني: حديث أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل» [مسلم: ١٧٩].

واسم الخافض والرافع عند من يثبتهما هما من الأسماء المزدوجة، حالهما في ذلك حال القابض الباسط، لا يذكر أحدهما تقريراً أو دعاءً إلا بذكر ما يقابله، لأن الكمال لا يتحقق إلا بذلك، كما سبق بيانه.

وفسر الخطابي الخافض فقال: « الخافض: هو الذي يخفض الجبارين، ويذل الفراعنة المتكبرين، والرافع: هو الذي رفع أولياءَه بالطاعة، فيعلي مراتبهم، وينصرهم على أعدائه، ويجعل العاقبة لهم، لا يعلو إلا من رفعه الله، ولا يتضع إلا من وضعه وخفضه » [شأن الدعاء: ٥٨].

ومن نظر فيما حدثنا الله عنه في خفضه لأقوام ورفعه لآخرين، ومن نظر فيما حدثنا الله عنه فيمن خفضه الله أو رفعه، وجد في ذلك عبراً، فقد خفض إبليس، فبينما هو معزز مكرم مع الملائكة في ملكوت السماء، إذا هو ملعون مطرود حقير ذليل ملقى في دار الشقاء.

وخفض فرعون، فبينما هو ملك آمرٌ ناهٍ تجري الأنهار من تحته، وتحرسه جيوش مصر، إذا هو غريق ذليل، ملقى على شاطئ البحر شأنه شأن العامة والسوقة.

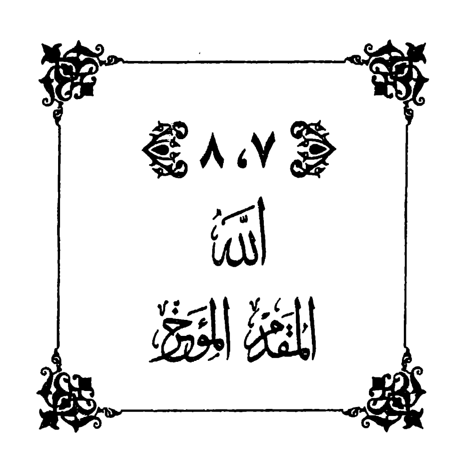
وملوك الأكاسرة والقياصرة دمر المسلمون جيوشهم وحصونهم، وهدموا معاقلهم، فهم بعد العز والتمكين أسرى أو قتلى .

ورفع الله القوم الذين يستضعفون من قوم موسى عليه السلام وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها.

ورفع الله الأمة العربية المفرقة المفككة التي لم يلتفت إليها أحد، فجعلها خير أمة أخرجت للناس، ومكّن لها في الأرض، وأصبحت أعظم أمة حملت رسالة الله.

وخفض الله ورفعه في الآخرة أعظم مما هو في الدنيا، فأقوام كانوا ملوك الأرض وساداتها وأصحاب ثرواتها إذا هم في الآخرة أذل الناس وأحقرهم وأذلهم، وآخرون كانوا فقراء مطاردين منبوذين فأصبحوا ملوك الجنة، وأهل العزة والجاه.





روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه أن من دعاء الرسول ﷺ إذا قام من الليل: « فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقّدم، وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت » [البخاري: ١١٢٠].

والله تعالى قدم بعضاً من مخلوقاته على بعض في الخلق والإيجاد، ففي الحديث أن أول ما خلق الله القلم، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، وقدم خلق الملائكة على خلق الجن والإنس، وتقدم خلق الجن على خلق الإنس، ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

وأول البشر خلقاً آدم عليه السلام، ثم تتابع بنيه في الخلق والوجود، فمنهم المتقدم ومنهم المتأخر.

وهذا التقديم والتأخير كوني قدري، ولا يلزم منه أن يكون المتقدم أفضل من المتأخر، فآدم خلق في آخر الأيام الستة، وله فضل هو وبنوه على كثير ممن تقدمهم في الخلق ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومحمد ﷺ آخر الرسل، وهو أفضل الرسل، وأمته آخر الأمم، وهي أفضل الأمم.

وقد يكون المتقدم أفضل من المتأخر فأبو الأنبياء إبراهيم ﷺ أفضل من كل الأنبياء والرسل من بعده باستثناء نبينا محمد ﷺ.

وقد يكون التقديم والتأخير شرعي ديني، فقد قدم الأذان على الصلاة، وخطبه الجمعة على صلاة الجمعة، وصلاة العيد على خطبة العيد، وقدم صلاة العيد على أضحية العيد، وللعبادات ترتيب خاص في الشروط والواجبات قد لا تصح العبادة بدونه.

ومن التقديم الشرعي الديني تفضيل بعض العبادات على بعض، وبعض العباد على بعض، فالفرائض أحب إلى الله من النوافل، وأفضل البشر الأنبياء والرسل، وهم متفاضلون فيما بينهم، ومن عداهم كذلك منهم المقدم ومنهم المؤخر، نسأل الله أن يرزقنا التقديم بفضله ومنته.





وردت هذه الأسماء الثلاثة في الحديث الذي رواه أبو داود عن أنس قال: قال الناس: يا رسول الله، غلا السعر، فسعّر لنا، فقال رسول الله ﷺ: « إن الله هو المسعّر، القابض الباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال » [صحيح أبي داود: ٣٤٥٠، وصحيح ابن ماجة: ٢٢٠٠].

وقد رواه الترمذي لكنه ذكر فيه: الرزّاق بدل الرازق، وقال فيه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [صحيح الترمذي: ١٠٥٩].

والباسط هو الذي يوسع رزقه على من يشاء من عباده، والقابض المضيق على من يشاء من عباده وفق حكمته وعلمه سبحانه، وعلى ذلك مدار أقوال المحققين من أهل العلم، يقول أبو سليمان الخطابي: « القابض الباسط هو الله الذي يوسع الرزق ويقتره، ويبسطه بجوده ورحمته، ويقبضه بحكمته على النظر لعبده » [شأن الدعاء: ٥٨] قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠] وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾: [البقرة: ٢٤٥].

ويقول الراغب: « يسلب تارة، ويعطي تارة، أو يسلب قوماً ويعطي قوماً » [المفردات: ٣٩١].

وقال ابن الأثير: « الباسط الذي يبسط الرزق لعباده، ويوسعه عليهم بجوده ورحمته، والقابض: الذي يمسكه عنهم بلطفه، فهو الجامع بين العطاء والمنع » [جامع الأصول: ٤/ ١٧٨].

والله يقبض الرزق ويوسعه بقدر، وفق علمه وحكمته سبحانه ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقد نبه أبو إسحاق الزجاج « إلى أنه من الأدب في هذين الاسمين أن يذكرا معاً، لأن تمام القدرة بذكرهما معاً، ألا ترى أنه إذا قلت: إلى فلان قبض أمري وبسطه، دَلاّ بمجموعها أنك تريد أن جميع أمرك إليه. وتقول: ليس إليك من أمري قبض ولا بسط، ولا حل ولا عقد» [تفسير أسماء الله الحسنى:٤٠]. ونبه إلى مثل ذلك الخطابي في [شأن الدعاء: ٥٧].





عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: « إن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع رجل يديه أن يردهما صفراً ». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب [الترمذي:٣٥٥٦]. وأورده الألباني في صحيح الترمذي]. وهو في سنن أبي داود بلفظ: « إن ربكم- تبارك وتعالى- حيي كريم،يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً» [سنن أبي داود: ١٤٨٨ وهو في صحيح أبي داود].

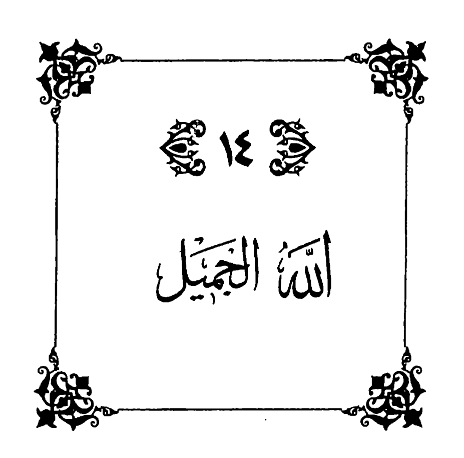
وفي سنن أبي داود أيضاً عن يعلى أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبراز، بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عزَّ وجل حيي ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» [أبو داود:٤٠١٢. والنسائي، انظر صحيح النسائي: ٣٩٣].

قال ابن القيم في [نونيته: ٢/ ٢٢٧]:

وهو الحيي فليس يفضح عبده ... عند التجاهر منه بالعصيان

لكنه يلقي عليه ستره ... فهو السِّتِّير وصاحب الغفران

قال محمد خليل هراس: « فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئه له من أسباب الستر، وهو من أجل أنه حيي ستير، يحب أهل الحياء والستر منْ عباده ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة» [شرح النونية للهراس: ٢/ ٨٠].



روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس» [مسلم:٩١].

قال ابن القيم في نونيته:

وهـو الجميـل علـى الحقيقـة كيـف   وجمـــال ســـائر هـــذه الأكـــوان
مـــن بعـــض آثـــار الجميـــل فربهـــا   أولى وأجـــدر عنـــد ذي العرفـــان
فجماله بالذات والأوصاف والأفعـ   ـــال والأسمـــاء بالبرهـــان
لا شـــيء يشـــبه ذاتـــه وصـــفاته   ســـبحانه عـــن إفـــك ذي البهتـــان

وقد أطال ابن القيم في مؤلفاته في شرح هذا الاسم بما لا مزيد عليه.





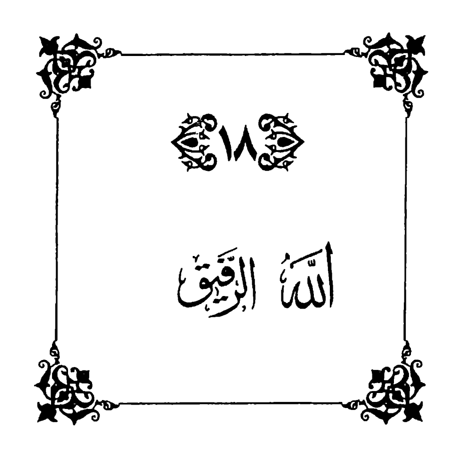
روى مسلم في صحيحه: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ : «أيُّها النَّاس إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيبِّاً، وإنَّ الله أمَرَ المُؤْمنينَ بما أمَرَ به المُرسَلينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنين:٥١]. وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ، أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْه إلَى السَّماء يا رَبِّ ! يا رَبِّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» [مسلم: ١٠١٥].

فأثبت هذا الحديث اسم الطيب في قوله: « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وروى الترمذي عن أبي ذر حديثاً طويلاً، وفيه « ذلك بأني جواد ماجد أفعل ما أريد » [الترمذي: ٢٤٩٥ وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن].

وأثنى ابن القيم على ربّ العباد باسمه الجواد في نونيته فقال:

وهــو الجــواد فجــوده عــمَّ الــو ... جــود جميعــه بالفضــل والإحســان
وهــو الجــواد فــلا يخيــب سـائلا ... ولــو أنــه مــن أمــة الكفــران





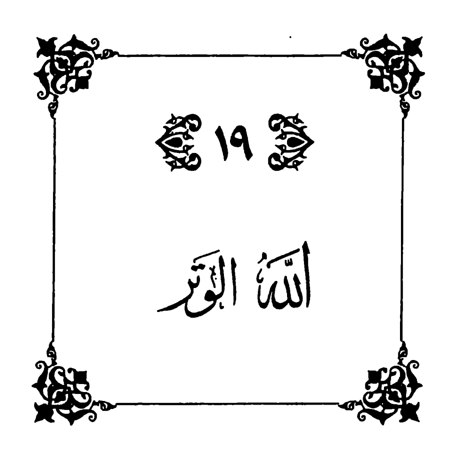
روى مسلم في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ رَضي الله عَنْهَا قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُود على النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فقال: « يا عَائِشَةُ، إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كلِّه » قُلْتُ: أو لَمْ تَسْمَعْ مَا قالُوا؟ قال: « قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ » [البخاري ٢٩٢٧].

قال ابن القيم: «

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهم بالرفق فوق أمان

قال محمد خليل هراس: ومن أسمائه سبحانه (الرفيق): وهو مأخوذ من الرفق الذي هو التأني في الأمور والتدرج فيها، وضده العنف الذي هو الأخذ فيها بشدة واستعجال.

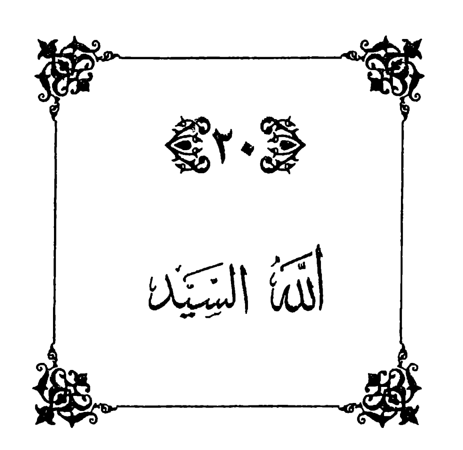
فالله تعالى رفيق في أفعاله حيث خلق المخلوقات كلها بالتدرج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة، وهو سبحانه رفيق في أمره ونهيه، فلا يأخذ عباده بالتكاليف الشاقة مرة واحدة، بل يتدرج معهم من حال إلى حال، حتى تألفها نفوسهم، وتأنس إليها طباعهم كما فعل سبحانه في فرضية الصيام وفي تحريم الخمر والربا ونحوها... ».



قال الإمام البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحد، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». [البخاري: ٦٤١٠ ومسلم: ٢٦٧٧].

والوتر: الفرد، والله فرد لا نظير له لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فالوتر يحمل معنى الواحد الأحد.





روى أبو داود عن مطرف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: « السيد الله تبارك وتعالى » قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرئنكم الشيطان » [أبو داود: ٤٨٠٦ وهو في صحيح أبي داود].

قال ابن الأثير: « السيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والحليم والكريم » [النهاية: ٢/ ٤١٨].

وقال الخطابي: « قوله السيد الله: يريد أن السؤدد حقيقة لله عز وجل وأن الخلق كلهم عبيد له » [معالم السنن للخطابي: ٦/ ١٧٦].



التعرف إلى الله سبحانه عبر صفاته

يتم التعرف إلى الله تبارك وتعالى من خلال النصوص التي حدثتنا عن صفاته التي تثبت له الذات والسمع والبصر والوجه والقوة والحكمة والاستواء والعلو والقدرة والعزة والغضب والفرح والنزول والمحبة والرضا والكراهية والبغض، مما تحدثت عن بعضه في تضاعيف هذا الكتاب، وتحدثت عن بعضه الآخر في كتابي العقيدة في الله، وكتابي الآخر « أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة».

وقد بينت في مواضع من كتبي أن الإيمان بصفات الله تحكمه الضوابط التالية:

الأول: الإيمان بكل ما أخبر به الله أو رسول الله ﷺ من صفات الله وعدم تكذيب الله أو رسول الله في شيء من ذلك، فمن أعظم الافتراء على الله، أن يخبرنا أن له وجهاً جل وجه ربنا وتقدس، أو أنه استوى العرش، أو أنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، فنتحامق، ونتعالم، ونرد على الله قوله، ونكذب بوجهه واستوائه وعلوه.

الثاني: عدم تشبيه الله بخلقه، فالله سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

الثالث: عدم تأويل صفاته سبحانه، فلا نقول: استواؤه تعالى استيلاؤه، ولا نقول: يد الله قدرته، ولا نقول: نزول الله نزول أمره، فالله سبحانه له صفات

حقيقة ندرك معناها في لغة العرب، ولكننا نجهل كيفيتها.

وقد جمع هذه الأصول الثلاثة قول الإمام مالك عندما سئل عن كيفية الاستواء، فقال: « الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

والسؤال عن الكيفية بدعة، لأنه لا يعرف كيف الله إلا الله، والإيمان به واجب لأن الله أخبرنا بذلك، والله أعلم.





من الصفات التي يؤمن بها السلف الصالح ما يسمى بالصفات الاختيارية، فقد أخبرنا تبارك وتعالى أنه يحب ويرضى، ويغضب ويكره، والمؤمن الحق هو الذي يؤمن بذلك كما جاء عن الله، من غير تمثيل ولا تكييف، والمؤمن الحق يحب ما يحبه الله، ويرضى ما يرضاه الله، ويكره من يبغضه ويكرهه.ويتجنب مواقع غضبه، ويحذر من الوقوع في ملاعنه.

فالله- تبارك وتعالى- يحب المحسنين من المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. كما يحب التوابين المتطهرين منهم﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ويحب الصابرين، والمتوكلين والمقسطين ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

كما يحب الفئة المؤمنة المجاهدة المكرمة للمؤمنين المذلة للكافرين ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن لوازم محبة الله المؤمنين رضاه عنهم ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] ومن المؤمنين الذين رضي عنهم الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وكما يحب الله المؤمنين ويرضى عنهم فإنه يكره الكافرين والظالمين والمعتدين والمسرفين والخائنين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

والذين لا يحبهم الله يلعنهم، ويغضب عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وعلى المؤمن أن يحب الله ويرضى عنه، كما يحب ما يحبه الله من الأقوال والأعمال والأشخاص، ويبغض الكافرين والظالمين والمجرمين، فكيف يزعم العبد الإيمان ثم يبغض من أحبه الله، ويحب من يبغضه الله، إن من يفعل هذا يقع في التناقض الذي لا تناقض بعده، وقد جلّى الله هذه المسألة في قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إن أصل الإيمان يتمثل في الحب في الله، والبغض في الله، فالمؤمن يوالي من

والى الله ورسوله، ويعادي من عادى الله ورسوله، ولو كان أباً أو أخاً أو عشيرة ، هؤلاء هم المؤمنون الذين يرضى الله عنهم، ويدخلهم جنات النعيم.

وإبراز هذه الحقيقة على هذا النحو يدل على خطأ منهج الذين يزعمون أن المؤمن يحب الناس جميعاً، فمن المعلوم من الدين بالضرورة أن المؤمن يبغض فرعون وقارون وهامان وأبا جهل وأبا لهب وكل من حارب الله ورسوله، وكل من كفر برسول الله ﷺ من المشركين واليهود والنصارى والبوذيين ونحوهم، ولا يمنعنا بغض هؤلاء جميعا أن نحب لهم الهداية والإيمان والتوبة.

والطريق إلى محبة الله تتمثل في محبة الرسول ﷺ ومتابعته فيما جاء به، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر- بعد أن أنقذه الله منه- كما يكره أن يلقى في النار » [جامع الأصول: ١/ ٢٣٧].

وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: « والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » [جامع الأصول: ١/ ٢٣٨].





أفعال الله

حدثنا ربنا تبارك وتعالى أنه فعّال لما يريد، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٥- ١٦].

« والفعال- كما يقول الزجاجي- اسم مبنى لمبالغة الفعل، فهو يجري في ضروب من صفاته عز وجل، نحو جبار، وعلام، ورزاق، ووهاب، وما أشبه ذلك » [اشتقاق أسماء الله: ٢٦٣].

وقد مضى الحديث عن بعض فعل الله في خلقه عند الحديث على كثير من أسمائه كالخالق الباريء المصور والرب والبديع، ونحو هذه الأسماء، وفعل الله في خلقه كثير لا يعد ولا يحصى، تراه في إبداعه السماء ونجومها، والأرض وبحارها وأنهارها وعيونها وجبالها وسهولها، كما تشاهده في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وقد حدثنا عن خلقه الذي لم نره كالملائكة، والجن، والجنة والنار وغير ذلك.

ومن ذلك فعله بالمجرمين والظالمين الذين أنزل الله بهم بأسه فأهلكهم، وفيهم قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۞ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦-١٣] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل].

وسأعقد للحديث عن فعل الله في خلقه ثلاثة مباحث:

الأول: تصريفه سبحانه للسحاب.

الثاني: إنزاله الماء من السماء.

الثالث: التفكر في خلق الله.



المبحث الأول

تصريف الله الرياح

من آيات الله العظيمة تصريفه سبحانه الرياح ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فقد ذكر الله سبحانه في الآية السابقة جملة من آياته، وتصريفه الرياح كان آية من هذه الآيات، وهي آية مشاهدة محسوسة لمن نظر في حركتها نظرة معتبر متفكر، ونظر إلى ما يبنى على هذه الحركة من آثار في هذا الكون.

وقد عدد الله سبحانه في آية أخرى منافع الرياح التي يرسلها بها فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦] فالريح المرسلة بين يدي السحاب المشبع بالماء تحمل عبق المطر ورقّته، فتبشر العباد الذين تهب عليهم بقرب هطوله، فيفرحون ويستبشرون، وإذا نزل المطر فرحوا بالغيث مرة أخرى، وتسوق الرياحُ السفن، فتجري بها في البحار الواسعة، وكانت الرياح هي الوسيلة الأعظم في الملاحة في البحار، قبل أن تخترع الآلات التي تحرك السفن، وبالحركة بالسفن كان الناس ولا يزالون يتنقلون في جنبات الأرض عبر البحار والأنهار، وينقلون بضائعهم ودوابهم ابتغاء فضل الله.

ومن أعظم منافع الرياح التي حدثنا عنها في كتابه وأشارت إليها الآية السابقة دور الرياح في تكوين السحاب وتأليفه، ثمّ حمله ونشره وتصريفه في جنبات الأرض، فيسقي به البلاد والعباد.

ففي إنشاء السحاب وتكوينه يقول الحق سبحانه مبينا أثر الريح في ذلك: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ * فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨- ٥٠].

وفي حمله الرياح في طبقات الجو، وتصريفه في جنبات الأرض، وإسقاطه على البلاد والعباد في شكل قطرات صغيرة، أو حبات برد يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ويقول في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٢-٤٣].

وقد تكون الرياح عذاباً ونقمة، وليست رحمة، يسوقها إلى الكفرة المجرمين، والغواة العاصين، فتدمر بلادهم، وتهلك حرثهم، وتبيد خضراءهم، وقد تقضي على وجودهم فتهلكهم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧] ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١- ٤٢].وعندما أحاطت الأحزاب بالمدينة أرسل الله عليهم ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وإهلاك السفن وركابها بالريح أمر مشاهد منظور ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] ويرسل الله أحيانا ريحا تيبس الزرع وتدمره ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١] فاصفرار الزرع بسبب الرياح علامة تدل على هلاكه، وكفرهم بسبب عدم احتسابهم الأجر والثواب لما نزل بهم من مصاب.

وقد صورت في هذه الأيام العواصف والأعاصير، فمن رأى ذلك رأى أمراً هائلا، فهي كما وصف الله تبارك وتعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وتقتلع الأشجار، وتطيح بالسفن والسيارات، وتدفع مياه البحار إلى اليابسة، فتغرق المدن، وتدفن أهلها في الركام، والعباد لا يستطيعون تجاهها شيئاً، فهم لا يستطيعون حماية أنفسهم، كما لا يستطيعون حماية مزارعهم وبهائمهم، وقد يكون في الإعصار نار تحرق، كما قال الله سبحانه: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].



المبحث الثاني

إنـزال الله المـاء من السمـاء

تحدثنا في المبحث السابق عن دور الريح التي يصرفها الله في تكوين السحاب، وحمله، وتصريفه في جنبات الأرض، وفي هذا المبحث نتحدث عن آثار نزول الماء من السماء في إحياء البلاد، وسقي العباد ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩] وفي موضع آخر أعلمنا أنه أنزل لنا الماء من السماء، ليكون شراباً لنا ولأنعامنا ولينبت به شجراً ترعى منه بهائمنا ودوابنا، ونسقي به الزروع التي نأكل منها وتأكل منها حيواناتنا، ونزرع بها الأشجار من الزيتون والنخيل والأعناب التي تنبت أطايب الثمار ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠- ١١].

وقد خلق الله لنا من أصناف النبات وأصناف الأشجار ما لا يحصيه إلا الله، وعندما ينزل الماء من السماء، فيخالط نبات الأرض، ونسقيه الأشجار، فإنها تخضر، وتضرب بجذورها في التربة ويرتفع سوقها إلى السماء، فتزهر، وتثمر، فترى منظراً بديعاً، يبهج النفس، ويفرح القلب، ترى الأزهار ذات الأريج والشذى، والمناظر البديعية، والثمار المتنوعة ذات الطعوم المختلفة، وتتجمع الطيور في تلك الجنات مغردة جذلة، وتقصدها الحيوانات تنعم بمأكلها ومشربها، ولولا الماء لما كان الشجر، ولما كان الزهر والثمر، وقد أفاض القرآن في الحديث عن أصناف النبات والزروع، وأنواعها وأزهارها وثمارها بما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣].

وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] وقال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾[فاطر: ٢٧].

وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ * وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ * لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ * سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣- ٣٦] وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ * وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ * رِّزۡقًا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٧- ١١] والماء الساكن في باطن الأرض يَنْزَحُ الناس منه فيشربون ، ومنه يزرعون، أصله من ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ * فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨-١٩].

وقد أنزل الله الماء من السماء، فأجراه ينابيع في الأرض، فيشرب الناس منها، ويسقون زروعهم ودوابهم ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] وماء السماء يغذي الأنهار السارحة في هذه الأرض، وفي سني الجفاف تتناقص مياه الأنهار، ويتضرر أهل البلاد الذين تمرُّ هذه الأنهار في ديارهم كما حدث للقوم الذين كان فيهم نبي الله يوسف عليه السلام، وكما نشاهد نقص الأنهار في مختلف العصور والبلاد.

والله المنزلُ للماء من السماء، المسكنُ له في الأرض، الذي سلكه فيها ينابيع وعيوناً، المخرجُ به الزرع، والمنبتُ به الأشجار، قادر على أن يمنع الغيث ويحبسه، كما

هو قادر على أن يجعله مرّاً غير صالح للسقيا، ولا الإنبات، كما هو قادر على أن يجعل عيوننا وأنهارنا ومخزون مياهنا غوراً، فلا نستطيع أن نستقي منه، وقد نبهنا الله على ذلك في كتابه حتى تبقى قلوبنا متعلقةً به، ووجوهُنا متجهة إليه، نجأر إليه بالليل والنها، ونشكره على نعمائه صباح مساء، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة: ٦٣ –٧٠] وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقد شرع الله لنا إذا حبس مطر السماء أن نجأر إليه بالدعاء، وشرع لنا صلاة الاستسقاء، ووعدنا بالإجابة، وقد دعا رسول الله ﷺ عندما أصاب الناس في عصرة قحط فمطروا، وكان مما قال في دعائه: « اللهم اسقنا، اللهمَّ اسقنا، اللهّم اسقنا » [البخاري: ١٠١٣].

ومرة دعا فقال: « اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً مَريئاً مَريعاً نافعاً غير ضار، عاجلاً غير آجل » [أبو داود: ١١٦٩].

وقال أخرى: « اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت» [أبو داود: ١١٧٦].

وفي كل مرة كان يستغيث فيه الرسول ﷺ كانوا يسقون ويغاثون.

وقد يكون سقوط المطر عذاباً، ولذلك فقد كان الرسول ﷺ يدعو الله أن تكون سقياهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب، فقد أغرق الله قوم نوح بالطوفان، ونحن نشاهد اليوم ما تحدثه الأمطار من دمار في كثير من البلاد عندما يتواصل هطول الأمطار، فتغمر المياه الأرض، ويعلو منسوب المياه في الأنهار، فتفيض، فتغرق، وتخرب وتقتل، وذلك بذنوب العباد.

المبحث الثالث

التفكير في خلق الله والتدبر فيه

تحدثنا في هذا الكتاب وخاصة في آخر مبحثين عن خلق الله وبديع صنعه، وإنما ينتفع العباد بهذا الخلق والإبداع إذا هم أحسنوا النظر فيه، والقرآن الكريم يدعونا إلى النظر في خلق الله، والتفكير في آياته، كي نعلم أنه لم يخلق الخلق عبثاً وباطلاً، إنما خلقة لنتعرف عليه من خلقه وآياته، فنعبده وحده لا شريك له، وآيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها إلا للقلوب الذاكرة العابدة، لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب، وتفتحت واتصلت بالكون العجيب، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثرا في هذا القلب البشري، وقيمة في الحياة البشرية، هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم، وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف، ولذلك نص القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم أولو الألباب أي أصحاب العقول ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. [راجع في ظلال القرآن: ١/ ٤٤٥].

هؤلاء هم الذين ينتفعون بالنظر في الخلق والتفكير فيه يعرفون الغاية من وراء الخلق والإيجاد كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ* وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢١-٢٤].

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون، أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب، أما الكفار فإنهم يشاهدون الخلائق العظيمة، والآيات الباهرة، ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧]، ولذلك فإن الكفار لا ينتفعون بالآيات الكونية، كما لا ينتفعون بالآيات المنزلة من عند الله ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

ولكن يبقى توجيه أنظار الكفار إلى التأمل في الكون والتبصر فيه سلاح بيد المؤمن يحارب به الكفر والضلال، ويعلي به منار الإيمان والتوحيد، فقد دعا الله إلى النظر في الكون وما فيه من دلائل تدل على الله في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

وقد واجه موسى كليم الله عليه السلام بهذا السلاح طاغية عصره الذي ادعى الألوهية من دون الله، ولم يزل يأتيه بالدليل في إثر الدليل، حتى انقطعت حجته، فلجأ إلى التهديد والوعيد، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

إن فرعون الطاغية المتأله يسأل نبي الله موسى عليه السلام سؤال المستهزىء المتهكم عن الإله الذي يسميه موسى رب العالمين، فيجيب موسى عليه السلام بأن هذا الإله هو رب السموات والأرض وما بينها، وبالتالي فهو رب فرعون، ورب قومه، ورب ديار مصر الذي يزعم أنه إلهها، وفي هذا تصغير لأمر فرعون وتحقير لألوهيته.

وعندما يخاطب فرعون قومه معجباً إياهم من قول موسى: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ . يتبع موسى جوابه الأول بجواب ثان يعرف فيه ربه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. إنه ربكم جميعاً، ربك يا فرعون، ورب الملأ الذين يجلسون حولك، ورب أهل مصر والناس كلهم، ورب آبائكم، فأنتم مخلوقون ولستم آلهة، كما كان آباؤكم الذين ماتوا واندثروا.

فيعجز فرعون عن الجواب، ولا يملك إلا أن يتهم موسى بالجنون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. فيسارع موسى إلى إيراد الإضافة الثالثة التي يعرف بها ربه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. إن رّبه هو ربُّ المشرق والمغرب، ومن الذي يدعي من الطغاة والمتأهلين فرعون أو غيره أنه رب المشرق والمغرب، وفيه تعريض بفرعون وألوهيته، فأين هو من المشرق والمغرب، هل هو خالقهما؟.

إنه سلاح رهيب، لا يخطىء ولا يخيب، فهو دائماً سلاح مسدد في يد المؤمن في مواجهه المشركين والجبارين والطغاة، ولا زلنا بهذا السلاح نواجه طغيان الكفر في هذا العصر، ونواجه القلوب والعقول، ونرد التائهين والجبارين إلى الله.

وقد قال موسى في تمام إجابته فرعون عن سؤاله في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩]. فيما حكاه الله عنه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٣-٥٥].

هكذا أجاب موسى عليه السلام، وهكذا يجيب العارفون بالله عندما يسألون عن ربهم، فآيات الله الدالة على الله والمعرفة به موجودة في هذا الوجود، تدل عليه دلاله ضوء الشمس على الشمس، لا تحتاج إلى تعقيد، ولا تقعر، وصدق الشاعر إذ يقول:

وفي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه الواحـــد

لقد عرَّف موسى ربه تبارك وتعالى بأنه الذي جعل لنا الأرض مهداً صالحاً للاستقرار عليها، والعيش فوقها، والترحال في جنباتها، وجعل لنا طرقاً نتمكن من التنقل خلالها في أرجائها، وأنزل لنا من السماء ماء فأخرج لنا من أصناف النبات والأشجار أزواجاً شتى، نأكل من ثمارها، وترعى منها البهائم والدواب، وذلك من أعظم الآيات الدالات على الله، ولكن لا يستفيد من هذه الآيات إلا أصحاب العقول السليمة المستقيمة، وهم الذي سماهم بأولي النهي.

وربنا هو الذي خلقنا من تراب هذه الأرض بخلق أبينا آدم أولاً، وبإخراج طعامنا من هذه الأرض بالنبات، وما يغتذي عليه من الحيوان ثانيا، ثم يعيدنا مولانا إلى تراب هذه الأرض بعد موتنا مرة أخرى. الفعال لذلك كله هو الله ربنا تبارك وتعالى.

وهذا المنهج الذي سلكه موسى عليه السلام منهج إيماني أصيل، تراه كثيراً في القرآن، فإن الله تبارك وتعالى يعرض مشاهد من خلقه، ثمَّ يوقف عباده على مواطن العبرة والعظمة ويدلهم على مواطن الاستدلال بالمخلوق على الخالق، وأنه وحده المستحق للعبادة، وانظر نظر معتبر متفكر إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

هذا خلق الله، والخالق على هذا النحو هو المستحق للعبادة، والذين تعبدونهم من دونه لم يخلقوا شيئاً، فهم لا يستحقون من العبادة شيئاً. واقرأ هذه الآيات ثم استمع إلى التعقيب الذي عقب به عليها ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۞ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ [الزمر:٥-٦]. ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر:٦]. أي الذي خلق لكم ذلك كله وسخره هو الله، المالك لكل شيء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال بعبادة من لا يستحق العبادة.

ولذا فإنه سبحانه نادى الناس جميعاً طالباً منهم أن يعبدوه دون سواه، لأنه الخالق المنعم المتفضل سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قائمة المراجع

١- أحكام القرآن، لابن العربي: محمد بن عبد الله. طبعة البابي الحلبي. ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

٢- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة. للمؤلف. دار النفائس. عمان. الأردن.

٣- اشتقاق أسماء الله، للزجاجي: عبد الرحمن بن إسحاق. مطبعة النعمان. النجف. ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

٤- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. للبيهقي: أحمد بن الحسين. دار الآفاق الجديدة. بيروت. الأولى. ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٥- إيثار الحق على الخلق لابن الوزير: محمد بن المرتضي اليماني. دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى. ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٦- بدائع الفوائد، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار الخير. بيروت. الأولى. ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

٧- تفسير أسماء الله الحسنى، للزجاجي: إبراهيم بن السريّ الزجاج. دار المأمون للتراث. دمشق. الخامسة. ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٨- تفسير ابن كثير، لإسماعيل بن عمر بن كثير. طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية. السعودية. جدة. الأولى. ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٩- تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. طبعة البابي الحلبي. القاهرة. الثانية. ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

١٠- تفسير القرطبي، لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتاب العربي. الثالثة. ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

١١- التفسير القيم، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. جمعه محمد أويس الندوي. طبعة لجنة التراث العربي. بيروت.

١٢- جامع الأصول، لابن الأثير: المبارك بن محمد. مكتبة الحلواني وآخرون. بيروت. ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

١٣- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث. بيت الأفكار الدولية. الرياض.

١٤- سنن الترمذي (جامع الترمذي)، لمحمد بن عيسى الترمذي. طبعة بيت الأفكار الدولية. الرياض.

١٥- شأن الدعاء، للخطابي: حمد بن محمد. دار المأمون للتراث. الأولى. ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

١٦- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد ابن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت. الرابعة. ١٣٩١هـ.

١٧- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، بيت الأفكار الدولية. الرياض. ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

١٨- صحيح سنن الترمذي، للألباني: محمد ناصر الدين. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى: ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٩- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، طبعة بيت الأفكار الدولية، الرياض. ١٤١٩، ١٩٩٨م.

٢٠- الصواعق المرسلة، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار العاصمة الرياض. ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٢١- طريق الهجرتين، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار ابن كثير. دمشق. الأولى. ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
٢٢- عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: أحمد بن يوسف. عالم الكتب. الأولى. ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
٢٣- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي. مكتبة دار السلام. الرياض. الأولى. ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٢٤- الفوائد، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى. ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٢٥- في ظلال القرآن، لسيد قطب. دار الشروق. بيروت. ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
٢٦- الفوائد المجموعة، لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار الكتب العلمية: بيروت. الأولى. ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٢٧- لسان العرب، لابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ونديم مرعشلي. طبعة دار لسان العرب. بيروت.
٢٨- لوامع الأنوار البهية (عقيدة السفاريني)، لمحمد بن أحمد السفاريني. منشورات دولة قطر.
٢٩- النونية المسماة: بالكافية الشافية، لابن القيم. اعتمدت على شرحها المسمى « توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» لأحمد بن إبراهيم بن عيسى. طبعة المكتبة الإسلامي. بيروت. الثالثة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
٣٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة دار الوفاء. مصر. الأولى. ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٣١- مدارج السالكين، لابن القيم. محمد بن أبي بكر. طبعة دار الجيل. بيروت.

٣٢- مفتاح دار السعادة. لابن القيم: محمد بن أبي بكر. دار ابن عفان. السعودية. الخبر. الأولى. ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٣٣- معارج القبول، لحافظ بن أحمد الحكمي. دار ابن القيم. السعودية الدمام. الثالثة. ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٣٤- معالم السنن، للخطابي، مطبعة أنصار السنة المحمدية. القاهرة. ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.

٣٥- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني. طبعة الحلبي. القاهرة. ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

٣٦- مقالات الإسلامين، للأشعري: علي بن إسماعيل. دار إحياء التراث. بيروت. الثالثة.

٣٧- المقصد الأسنى، شرح أسماء الله الحسنى، للغزالي: مطبعة الصباح. دمشق. الأولى. ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٣٨- موسوعة الأسماء الحسنى، لأحمد الشرباصي.دار الجيل. بيروت. الأولى. ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٣٩- النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: المبارك بن محمد. المكتبة العلمية. بيروت.

٤٠- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، لمحمد بن حمد الحمود. مكتبة الإمام الذهبي. الكويت. الأولى. ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

الفهرس